# الخوف يطارد القرية

إثيل لينا وايت

ترجمة أسماء الطيفي

# الخوف يطارد القرية

**تأليف**
**إثيل لينا وايت**

ترجمة
أسماء الطيفي

مراجعة
شيماء طه الريدي

هنـــداوي

# الخوف يطارد القرية

إثيل لينا وايت

**Fear Stalks the Village**

Ethel Lina White

**الناشر مؤسسة هنداوي**
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
**تليفون:** ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
**البريد الإلكتروني:** hindawi@hindawi.org
**الموقع الإلكتروني:** https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

---

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩ ٣٧٦١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٣٢.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

# المحتويات


| | |
|---|---|
| ١- الستائر المُسدلة | ٧ |
| ٢- بيكربونات الصوديوم | ١٩ |
| ٣- النذير | ٢٥ |
| ٤- مجهول الهوية | ٣١ |
| ٥- الخوف يطرق الأبواب | ٤١ |
| ٦- نزهة في القرية | ٥١ |
| ٧- الضيف الإضافي | ٦١ |
| ٨- تسديد الفاتورة | ٧١ |
| ٩- كوفنتري | ٧٧ |
| ١٠- الخطاب الثاني | ٨٣ |
| ١١- التحقيق | ٩٣ |
| ١٢- تحت الأرض | ١٠١ |
| ١٣- زهور الكتمان المريضة | ١٠٩ |
| ١٤- اهتزاز الغصن | ١١٧ |
| ١٥- روميو من لندن | ١٢٧ |
| ١٦- الحرف الأول المفقود | ١٣٥ |
| ١٧- ساعي البريد يطرق الباب | ١٤١ |
| ١٨- الفخ | ١٤٧ |
| ١٩- ذيل الحيَّة | ١٥٣ |
| ٢٠- لوائح مكتب البريد | ١٦٣ |

| | |
|---|---|
| ٢١- أيام سعيدة | ١٧١ |
| ٢٢- حياة وموت | ١٨٣ |
| ٢٣- المحامي يكشف الستار | ١٩٣ |
| ٢٤- رأس الحية | ١٩٩ |
| ٢٥- مشهد ليلي | ٢٠٧ |
| ٢٦- الإنذار الأخير | ٢١٥ |
| ٢٧- طابع البريد | ٢٢٣ |
| ٢٨- الرفقة | ٢٣٣ |
| ٢٩- السخي | ٢٤٣ |
| ٣٠- الظرف | ٢٥١ |
| ٣١- المَخرج | ٢٥٧ |
| ٣٢- زيارتان | ٢٦٥ |
| ٣٣- تفسير إيجناتيوس | ٢٧٧ |

الفصل الأول

# الستائر المُسدلة

كانت القرية جميلة. كانت مستقرة في وادٍ صغير وسط تلال داونز، يلفُّها بإحكام وشاح زهري من الحدائق، ثم وشاح أخضر كبير من الحقول. ونمَت في جنباتها، بغزارة، الزنابق والخزامى. وتكتل النحل حول الأعشاب العطرية مثل العناقيد، وكان له طنين كطنين مئاتٍ من عجلات الغزل.

ومع أن الأكواخ المتراصة على جانبي الشارع المرصوف بالأحجار كانت نموذجًا مثاليًّا للطراز المعماري التيودوري، فقد كانت البيوت الكبيرة وسط الخُضرة تعود في معظمها إلى حقبةٍ زمنية أقدم. شذَّ عن هذه القاعدة قصر قديم مُشيَّد على الطراز الإليزابيثي، اسمه «سباوت مانور»، بحسب ورق رسائل الآنسة أسبري المطبوع، لكنه عُرف بين السكان المحليين باسمِه الأصلي «سباوت». كان القصر محلَّ إقامة الآنسة ديسيما أسبري، ملكة القرية، وهي عزباء طاعنة في السن، حسنة المَخبر والمظهر، وتملك دخلًا خاصًّا وفيرًا.

لم تكن رعية الآنسة أسبري حسنة التربية طيِّبة المعشر وساحرة فحسب، بل حباها الله بروح مُحبة للخير، حتى لم يعُدْ هناك فقر ولا بطالة في القرية. ولم تكن سيدات المُجتمع بحاجة إلى الانشغال بمشاكل الخدم، فسارت عجلة الضيافة بانسيابية وسلاسة. ولو نشبت نزاعات عائلية ما ذاع نبؤها على الملأ، فكانت الحيوات الشخصية مَحوطة بستائر أُسدِلت عليها فسترَتها. وهكذا كان طابع القرية الاجتماعي زكيًّا مثل رائحة إكليل الجبل، وندرت الفضائح نُدرة الكبريت الأحمر.

امتازت القرية بموقع مثالي. فتتراءى للناظر من نافذة الطائرة، في ساعات النهار، كنموذج محاكاة، من الجصِّ الأبيض والأسود، لقريةٍ من العصر التيودوري، مُحاط بصندوق زجاجي. أما في الليل، فكانت القرية تبدو على ضوء المصابيح الخافتة مثل سفينة

قديمة، هيكلها الخارجي مُغطًّى بقشور البرنقيل ومقدمتها مُزدانة بتمثال حيزومي، ترسو في ميناء منسيٍّ هادئ.

لم يكن يطرُقها زائرون إلا فيما ندر. فلم يكن بها محطة سكة حديدية، ولا سكان مؤقتون، إلى جانب انخفاض معدل المواليد. حتى الموت نفسه كان لا يطرُق أبوابها إلا قليلًا؛ إذ كان السكان الأصليون يمتعِضون من فكرة الموت في مِثل هذا المكان البهيج.

لكن لم يكن ميل السكان المحليين لكل ما هو قديم، الذي ثبَّط عزم ملَك الموت، قويًّا بما يكفي لمنع الزحف المُنتصِر للحافلة ذات المحرك! كانت الحافلة الخضراء الضخمة المُترنحة تُنزل ركابها خارج القرية مباشرة؛ إذ مُنعت من السير داخل شوارعها، ثم تعود أدراجها إلى الطريق المُفضي إلى لندن.

في عصر أحد الأيام في مطلع فصل الصيف، جلبت الحافلة من مدينة لندن روائيةً جذَّابة أنيقة نحيفة، تكتب قصصًا مُثيرة في حلقاتٍ مسلسلة من أجل العيش، لكنها كانت تُشكِّك في قيمتها من حينٍ إلى آخر، عندما تستيقظ أفكارها النائمة في عقلها الباطن. كانت الروائية ترتدي حذاءً فرنسيًّا ذا كعب عالٍ، بدا كأنه انتُزِع نزعًا من أرصفة المدينة، لكنها قدَّمت هذه التضحية من أجل زيارة صديقتها جوان بروك، التي كانت تعمل مرافقة لسيدة من سكان القرية.

استُضيفت الروائية بدعوة من الليدي دارسي، ربة عمل جوان، في منزل «ذا كورت»، وهو مبنًى ضخم مُشيَّد على الطراز الجورجي لونه أصفر فاتح، تُطوِّقه حديقة غنَّاء، ويبعد مسافة ميل تقريبًا عن القرية. وفي أثناء تناولهما الشاي، أحسَّت المرأتان بتمزُّق أواصر الصداقة بينهما؛ إذ دار حديثهما حول أمور عامة فحسب.

راحت كل منهما تعاين الأخرى بنظارة النقد الحيادية. تأمَّلت جوان شفتي صديقتها، اللتين أوحتا لها بأنها لثمت صندوق بريدٍ عموديًّا مدهونًا حديثًا بحرارة، في حين ارتأت الروائية أن جوان شديدة الإهمال في هيئتها. لكن في طريق عودتهما إلى القرية، اندمجتا معًا — دون أن تشعرا — في انسجام، بفعل جمال الحقول بعُشبها الموج، الذي استوى على سوقه، وتشرَّب بشمس المغيب. كان وجه جوان المسفوع بالشمس دليلًا على أنها لم ترتدِ قبعةً أبدًا، لكن الروائية أيضًا خلعت قبعتها الشبكية الصغيرة المصنوعة من النسيج الحريري المَحبوك، دون أن تحسب حسابًا لتسريحة شعرها. وبينما كانت المرأتان تسيران الهوينى وتُدخنان السجائر، دلفتا إلى النفق المظلَّل لـ «ممشى كواكرز»، الذي يبعُد نصف ميلٍ عن جادة أشجار الكستناء.

سألت الروائية: «أتُحبين القرية؟»

الْتمعت عينا جوان الزرقاوان قائلة: «أعشقها. أعلم أنكِ تعتقدين أنني مدفونة هنا. لكن هذه الجثة الهامدة تأمُل أن يُمهلها بوق النهاية قليلًا. ما كنتُ سعيدة بهذا القدر من قبل.»

قالت الروائية: «أدعو الرب أن يُديم عليك هذه النعمة ... ماذا عن الحياة الاجتماعية؟»

أجابت جوان: «حفلات التنس وحفلات الحدائق لاحقًا. أكبر المنازل هنا هي «ذا هول»، و«تاورز»، و«ذا كورت». منزلنا هو الأخير. ويعيش عمدة القرية في «هول». أما «تاورز»، فيقيم فيه أغنياء القرية لكنهم مسافرون إلى الخارج طوال الوقت.»

سألت الروائية: «وهل هناك أي رجال؟»

أجابت جوان: «هناك اثنان. القسيس والميجور بلير. الميجور هو رجل بمعنى الكلمة ومُرتبط عاطفيًّا بابنة عمدة القرية، فيفيان. فنحن الفتاتان الوحيدتان بالمكان.»

رفعت الروائية حاجبَيها المعقوفَين المصبوغَين.

قالت: «دعيني أُرتِّب ما قلتُه. هناك الفتاة فيفيان والرجل الفحل. وهكذا يتبقَّى أنتِ والقسيس. كيف يبدو؟»

أجابت جوان: «إنه مُثير نوعًا ما. رجل ضخم الجثة، أسود البشرة، ذو صوت جهوري مثل الناقوس. ليتك تسمعينه وهو يصدح ويصيح في قدَّاس الأحد. ومع ذلك أراه نقيًّا وصادقًا.»

سألت الروائية: «هل ستتزوَّجينه؟»

أجفلت جوان بعض الشيء؛ ولذا اضطرَّت إلى تذكير نفسها بصراحتها المعهودة في السابق، التي هي سِمة الحياة المعاصرة.

أجابت: «هذا مُمكن، إذا لم يرحل. لطالما أُجبرت على الخضوع لرؤسائي في العمل، وأريد أن أكون صاحبة القرار على سبيل التغيير. بيرلي، ألا ترينني أرشد السكان إلى فوائد سلق البطاطا بقشرتها وأحثُّهم على تنظيم الأسرة؟»

علَّقت صديقتها: «تناسبكِ كل الأدوار يا بروك. بالمناسبة، كيف تبدو سيدتُكِ ليدي دارسي؟»

ردَّت جوان: «امرأة ضخمة وغامضة، تَهيم على وجهها بلا هدف ولا غاية. كل ما أفعله أنني أحاول دعمَها بشكلٍ أو بآخر. وأحصل في مقابل ذلك على راتبٍ كبير لا يمكنني إنفاقه هنا. لكنه ذو فائدة لعائلتي. فهم يعيشون في ضنكٍ للأسف.»

لم يصطبغ وجه الروائية بأي لونٍ كي يكشف عما يعتلِج في صدرها، لكنها أومأت برأسها تعاطفًا مع الركود الاقتصادي السائد بينما تتفحَّص جوان من خلف عدستها المُفردة. كانت الفتاة طويلة القامة وقوية البِنية، ذات وجهٍ يُعبر عن شخصيتها، وعينَين تشعَّان بنظرة ثقة. كانت ترتدي فستان تنس أبيض بلا أكمام، وأساور فضية حول ذراعَيها البُنِّيتين. ورغم زيادة وزنها، بدت ذات صفاتٍ أصيلة وجاذبية.

سألت جوان: «حسنًا؟ ما حُكمك؟»

أجابت صديقتها: «مُذنبة! تبدين مثل موضة قديمة. لقد كثر لحمك. وصارت شفتاك مُثيرتَين. و... أشعر بالغيرة الشديدة منكِ يا عزيزتي.»

قالت جوان: «لا أريد مقايضة وظيفتي معك قطعًا.» وضحكت بسعادة. ثم أضافت: «هذا المكان رائع حقًّا يا بيرلي. فجميع السكان ذوو حسَب ونسَب ودخلٍ خاص. وكلهم طيبون. كما أنهم متزوِّجون يا عزيزتي.»

عقَّبت الروائية: «فهمتُك. لا حُب ولا بكاء! ما أجملها من صورة!» خرجت السيدتان من ظلام الجادة، فأبصرتا القرية بأكواخها العتيقة وحدائقها الزاخرة بالأزهار وقد اصطبغت جميعًا بلون المَغيب القرنفلي. وكلما تقدمتا خطوةً واحدة، بدتا كأنهما تقلبان صفحة جديدة من حكاية خيالية، تختلط فيها حوافها المُزخرفة بالسياج العشبي المقلَّم، وأعشاب الميرمية، وأشجار الخوخ الدمشقي، وخلايا النحل، بالإضافة إلى غطاءٍ مُتنوع من زهور الفاوانيا والقرنفل والثالوث. كان الفتيان والفتيات المُرفَّهون يقفزون في الشارع، فيما ازدادت القطط غرابةً وهي تنتظر بشائر الظلام. فعن قريبٍ ستبدأ حياتها الحقيقية.

أسلمت الروائية نفسها للأجواء الساحرة، لكنها لوت شفتَيها في امتعاضٍ عندما رأت دلائل بقاء النظام الإقطاعي؛ إذ أظهر جميع الأطفال احترامَهم للطبقة «الراقية».

أطالت السيدتان البقاء على الخُضرة، وفي تلك الأثناء أشارت جوان إلى منزلٍ متين من الجبس الأصفر الفاتح مُزين ببرج ساعة.

قالت جوان: «هذا منزل «ذا كلوك». يعيش الزوجان سكودامور هناك. آمُل أن نُقابلهما لأنهما فريدان من نوعهما. إنهما في غاية اللطف وينعمان بزواجٍ سعيد جدًّا. أناديهما بـ «روح القرية». عندما تقابلينهما ستجدينهما مثالًا لطابع القرية.»

حبست الروائية امتعاضَها، في حين واصلت جوان تعديد محاسن القرية. أشارت جوان بسيجارتها نحو منزلٍ حجري رمادي، في ظهره الكنيسة النورماندية.

تكلَّفت جوان نبرة جرأة وقالت: «هذا بيت القسيس. بيتي المُستقبلي. وخلفنا مباشرة منزل الطبيب، لكن الأسوار تُخفيه. وقد بُني على طراز الملكة آن، وله سِحره الخاص. يلعب الطبيب وزوجته التنس دائمًا بعد تناول العشاء. يُمكنكِ سماع صوتهما.»

وفيما وقفتا ترهفان السمع، اختلطت الخبطات المكتومة خلف الطوب الأحمر الوردي بضحكات الأطفال الخافتة، ونعيق غربان القيظ في أشجار الدردار. وفجأة خرَّت الروائية ساجدةً أمام سِحر القرية الطاغي.

هتفت الروائية: «إنها رائعة. أتساءل إن كان يُمكنني استئجار كوخ لقضاء الصيف.»

ردَّت جوان: «لو فعلتِ فلن تعودي إلى لندن بعد ذلك أبدًا. فلا أحد يطيق مغادرتها ولو لقضاء العطلات. انظري. ها هما الزوجان سكودامور.»

وارت جوان سيجارتها خلف ظهرها في خجل، بينما يتقدَّم نحوهما زوجان في منتصف العمر عبر الشارع المرصوف، يتأبط أحدهما ذراع الآخر. كان الرجل حليق الوجه، بارز الشفتَين، جاد الملامح بما يوحي أنه محامٍ من الطبقة الأرستقراطية بالمقاطعة، وكان لدَيه أنف توارثتها عائلته قرونًا.

كانت زوجته أيضًا طويلة القامة، ذات جمال شائخ وأناقة. كان شعرها الأشقر الكثيف يغزوه الشيب سريعًا، وثيابها المرفَّلة ذات لون أخضر رمادي تحار العبارة في وصفه، مثل نهر تكوَّن من جليد ذائب.

حيَّت السيدة سكودامور مرافقة الليدي دارسي بانحناءة وقورة، لكنها لم تلتفت إلى صديقتها ولو بنظرة واحدة.

غمغمت الروائية بعد رحيل عائلة سكودامور: «لم تُحبني حقًّا. هل أبدو امرأة ساقطة في نظرها؟ أخبريها أنني امرأة مُهذبة وإن كنت مُزدانة بمساحيق التجميل.»

هتفت جوان بمرح: «إنها امرأة طيبة جدًّا يا عزيزتي، ولن تُخاطر بكراهيتك. ولهذا السبب تجنَّبَت النظر إليك. إنها مُتسلطة نوعًا ما، لكنها مسيحية بحق ... صدقيني يا بيرلي.»

وحين سكتت جوان وتفحَّصت صديقتها، هيَّأت الروائية نفسها لمواجهة السؤال الحتمي.

سألت جوان: «ألا يُمكنك كتابة قصة عن هذه القرية؟»

أجابت الروائية بنبرة لاذعة: «توقَّعتُ أن تقولي ذلك. ولكن ما الشيء المُثير في هذه القرية أيتها المرأة الطيبة؟ لقد سبقَتْني جين أوستن عندما كتبت عن بلدة كرانفورد. الحقيقة، يا فتاتي، أنه لولا الوقوع في الخطيئة، ما وُجِد الناشرون ولا مكتبات الإعارة.»

أصرَّت جوان: «ولكن لا بد أن تكون هناك قصة في كلِّ مكان.»

«لا أرى ذلك هنا.»

قالت جوان: «هيَّا يا بيرلي، فلتُجرِّبي. أريد أن أتسلَّى.»

ضمَّت الروائية شفتَيها المصبوغتَين في ابتسامةٍ غامضة.

قالت في إذعان: «حسنًا. لكن سأسلُك في ذلك مسلكي الخاص. سأكتب شيئًا على هذه الشاكلة. تبدو هذه القرية مثل جنة على الأرض، بسكانها الطيبين الكرماء. لكنها مثل الزهور النامية في الوحل. فعندما يحلُّ المساء، يُشعل السكان المصابيح ويسدلون ستائر منازلهم. وعندما يتوارَون عن الأنظار، تظهر حقيقتُهم.»

حثَّتها جوان قائلة: «هلا تُعطينني مثالًا؟»

أجابت: «لنبدأ بالزوجَين الوقورَين اللذَين استهجنا شفتيَّ، ونقول إنهما ليسا زوجَين في الحقيقة بل زانيَين.»

هتفت جوان: «أيتها الحمقاء المُضحكة! أخبريني بقصة حياتهما المزدوجة.»

ردَّت الروائية: «لا، يجِب أن أرسم الخطوط العريضة للقصة أولًا، وأجمع الشخصيات ... هممم. يختفي بيت القسيس خلف أشجار الطقسوس الساترة؛ لذا فهو ليس بحاجةٍ إلى انتظار الظلام ليعيش حياته الأخرى. أتخيَّل، أنه في اللحظة الحالية، يُقيم حفل شرابٍ بثياب النوم مع بعض النساء الفاتنات من البلدة. وبالنسبة إلى طبيبك العزيز، فإنه يُسمِّم زوجته شيئًا فشيئًا، ويستغل ممارسة التنس لتحقيق مأربه. فعندما ينتهيان من اللعب، تكون زوجته عطشى، وحينها سيحرص زوجها الوفي على حصولها على المشروب المناسب. سيُعطيها مشروبًا آمنًا ومؤلمًا جدًّا.»

لوت جوان وجهها وقالت: «عندما أصير زوجة القسيس، سأحظر رواياتك من مكتبة قريتنا.»

مرة أخرى، وجدت جوان نفسها تتحدَّث بلا رويَّةٍ عن خُططها المستقبلية بشأن القسيس، وهي جرأة نابعة من شعور غامض داخلها بأنها بذلك تحمي نفسها من تلك التُّهمة التي لا تُغتفَر، وهي الانسياق وراء العاطفة. أشعلت جوان سيجارةً أخرى وهي تتمشَّى خلف صديقتها، التي كانت تسترق النظر عبر الزخارف الحلزونية الحديدية المُفرَّغة في بوابات قصر «سباوت».

على مرمى البصر، وسط نباتات الغار، رأت الروائية امرأة عابسة بيضاء الشعر تقعد على دكة، بجوار غدير تحفُّه الزنابق. كانت يداها مُتشابكتَين، وعيناها شاخصتَين، كأنها

غارقة في التأمل. جلست المرأة في مكانها جامدة، حتى لكأن طيَّات ردائها الأبيض منحوتة من الرخام، بما يوحي بأنها قديسة معبودة.

لكن ما إن عدَّلت الروائية عدستها المنفردة، حتى دبَّت الحياة في ذلك التمثال بلمسةٍ من الإنسانية الدافئة. في الزقاق المُحاط بأشجار الطقسوس، تقدَّمت امرأة بدينة الجسم قصيرة بخطوات بطيئة، وهي تحمِل كوبًا من اللبن على صينية. ربَّتت السيدة الطويلة على كتفَيها في امتنان، ثم شربت اللبن دفعةً واحدة، كأنها تُطيع نواميس التغذية، بينما تضرب بقوانين الهضم عُرض الحائط.

عندما سارت المرأة صوب المنزل، تتبعها مُرافقتها، كان فارق الطول بينهما واضحًا؛ لأنها كانت أطول من المعتاد وموظفتها أقصر من المعتاد.

همست جوان: «هذه الآنسة أسبري ومرافقتها الآنسة ماك. إنها قديسة تمشي على الأرض، وهي في غاية الكمال حتى لكأنها ليست بشرًا. تُحبها الآنسة ماك إلى حدِّ الوله، وتركض خلفها مثل كلب صغير.»

أعلنت الروائية: «سأضمُّها إلى روايتي المُسلسلة إذن. اسمعي. الآنسة أسبري، تلك القديسة النقية، ما هي إلا امرأة سادية مُتخفِّية. ما إن تُسدَل الستائر حتى تبدأ في تعذيب مرافقتها المسكينة.»

سألت جوان بقسوة: «ألا يُمكنك الكفُّ عن الحماقة؟»

ردَّت الروائية: «ألم تطلُبي مني هذه القصة؟ سأضع الخطوط العريضة للحبكة بينما ننتظر الحافلة.»

أنصتت جوان ساهمةً إلى قصة صديقتها المثيرة، التي كانت تفيض بأحداث ميلودرامية، بينما اتكأت على العوارض البيضاء التي تُحيط بالغطاء العشبي الأخضر للقرية. وبينما كانت تضحك على سخافة القصة، شعرت بالنفور منها في عقلِها الباطن من شدة فُحشها.

تساءلت جوان في نفسها: «ما خطبي؟ إن بيرلي مُضحكة جدًّا. وما تقوله مزاح لا أكثر. لكنه ... مزاح رخيص.»

وتنفَّست الصعداء عندما تملَّك التعب من صاحبتها وتفقدت ساعة جيبها.

وقالت: «من الأفضل أن نتحرك الآن. مع أنني لا أُطيق فراق هذا المكان.»

كان العشب ناعمًا ولامعًا وانسيابيًّا مثل الحرير، تتخلَّله أعمدة من أشعة شمس المغيب، في حين تمايلت الأكواخ وسط غيمٍ بنفسجي اللون. كان الشفق يتزايد حاجبًا

رؤية الشارع بينما كانت السيدتان تسيران في اتجاه النُّزل، لكن لم يكُن هناك مصابيح في القرية. كان سكان القرية يجلسون عند النوافذ المفتوحة أو يتسكَّعون عند البوابات، يتبادلون التحيَّات أو النمائم مع المارة. بدا كأن الجميع يتشاركون الشعور العام بالألفة والمودة الذي يسود هذه الفترة الفاصلة بين النهار والليل.

وأوشكت لحظة الانسحاب.

سرعان ما توقفت الروائية مأسورةً بمنظر مبنًى مُظلم، منخفض الارتفاع، مُشيَّد من الجص والشرائح الخشبية، وتحيط به حديقة مُمهدة.

قالت: «يا إلهي، أشم رائحة عفونة من مكاني. أعتقد أن هذا أقدم منزلٍ في القرية.»

ابتهجت جوان قائلة: «كنتُ أعلم أنكِ ستقعين في هذا الخطأ. كل السائحين يقعون فيه على أي حال. لقد شُيِّد هذا المنزل ليبدو مثل المنازل القديمة، فاستُخدِمت فيه أجزاء من حظائر قديمة، ويحتوي على مختلف وسائل الراحة الحديثة. أنا أُحبه، لكن سكان القرية لا يُحبونه؛ لا سيما أن مالكته وافدة جديدة على القرية. فقد مضى على وجودها في القرية إحدى عشرة سنة فحسب.»

تنهَّدت الروائية وسألت: «مَن هي سعيدة الحظ؟»

أجابت جوان: «روائيتنا المحلية، الآنسة جوليا كورنر.»

سرعان ما أبدت الروائية ذلك الجهل التلقائي بأقرانها من أهل المهنة.

«لم أسمع بها من قبل. ما الاسم المُستعار الذي تستخدِمه؟»

أجابت جوان: «تستخدم اسمها الحقيقي، وتُبلي بلاءً حسنًا أيضًا. إنها عجوز ضخمة محبوبة، لكنَّ لديها حسًّا فكاهيًّا سوداويًّا تمامًا.»

قالت الروائية: «همم.» تذكَّرت الروائية شقتها الصغيرة التي تقع في بنايةٍ سكنية. قالت: «من الواضح أنها تجني أموالًا كثيرة. هل لدَيها عمل خاص؟»

ردَّت جوان: «أجل، إنها رئيسة جمعية «الاعتدال» المحلية للإقلاع عن الكحوليات، وتجعل الأطفال يوقِّعون على «التعهد».»

قالت الروائية: «إذن سأنتقِم منها لحصولها على منزلٍ أفضل مني وسأضمُّها إلى روايتي المسلسلة. إنها تُعاقر الكحوليات سرًّا، وتُخبِّئ زجاجة ويسكي في خزانة ملابسها. وهي، في اللحظة الراهنة، تستلقي تحت فراشها في ثمالةٍ تامَّة.»

آنذاك، فُتح باب البيت المصنوع من خشب البلوط الذي ابيضَّ لونه بفِعل الزمن، وحَجب مدخلَه جسد ضخم، لوَّح بإبريق الشاي ترحيبًا بالسيدتَين.

صاحت المرأة: «تفضَّلا كوبًا من الشاي.»

ردَّت جوان: «معذرة، لكننا ننتظِر الحافلة.»

على الفور، تهادت الآنسة كورنر في المَمشى المُبلَّط، حتى وصلت إلى بوابة الحديقة، بسرعة خادعة غير مُتوقَّعة من امرأة كالفيل في الحجم. رأت الروائية القادمة من لندن وجهًا ضخمًا متوردًا، يشعُّ دماثة وطيبة، وشعرًا أشيبَ ذا قَصَّة قصيرة، وعينَين متلألئتَين من خلف نظارة ضخمة ذات إطارٍ قرني من البلاستيك السميك. ارتدت الآنسة كورنر بلوزةً طفولية عليها رسمة كاريكاتيرية لباستر براون، مزدانة بياقةٍ عريضة وفيونكة شريطية، وتنُّورة رمادية اللون من قماش التويد.

صرحت المرأة بزهو: «أكتب قصة قصيرة لإصدار عيد الميلاد المجيد لمجلة «بويز أنيوال». لقد كُلفت بهذه المُهمة بالطبع. فلديَّ اهتمام عام بالفتيان. لِمَ لا تدخُلين وتتعرَّفين على شريكي الكابتن كتِل؟»

ضحكت ملء فِيها على الدُّعابة التي ألقتْها، لكن كان مصدر تسليتِها شفتي المرأة الغريبة المصبوغتَين وعدستها المفردة.

عندما قدَّمت جوان إليها صديقتها، مدَّت يدَها الكبيرة في ترحاب.

سألت: «كاتبة زميلة؟ ما الاسم المُستعار الذي تستخدِمينه في الكتابة؟»

قالت جوان في عجالة: «آسفة، لكن لا يُمكننا التوقُّف.»

علَّقت الآنسة كورنر: «وا أسفاه. كنت أُحب مناقشة مسائل المِهنة معكِ. هل تسمحين للشخصيات بأن تُسيطر عليكِ، أو تَخرجين للبحث عن قصة مثيرة؟»

ردَّت جوان: «لقد وجدَتْ قصة في هذه القرية بالفعل.»

قالت الآنسة كورنر بابتسامة عريضة: «ستكتُبها لمجلة الأبريشية إذن حسبما أظن. بما أنكِ تُصرِّين على الرحيل، فليس أمامي سوى العودة إلى الفتيان. أرسلي حُبي لفتاي المُفضَّل إيروس.»

سمعت السيدتان دويَّ قهقهتها من خلف سياج الورد البري العطري، وهما تهمَّان بالرحيل.

سألت جوان: «كيف تَرينها؟»

لم تُجِبْها الروائية؛ إذ اجتاحتها موجة عارمة من الحنين على حين غرة. حينذاك، بدت لها لندن بعيدةً جدًّا، أو مكانًا لن تعود إليه أبدًا. شعرت كأنها صارت حبيسة القرية التي

لم تعُد واحةَ غروبٍ جميلة، وإنما بُقعة منسية مسحورة من الهمسات والأصداء والقصص القديمة المبتذلة التي تُحكى عند الغروب.

سألت بتعب: «هل اقتربنا من النزل؟»

أجابت جوان: «بلى. لقد وصلنا تقريبًا.»

قالت: «جيد. أرغب في احتساء كأسٍ من كوكتيل الجِن.»

كان نزل «كينج هيد» مبنًى طويلًا مُنخفضًا عتيقًا، يعلو مدخله لوحة بالزيت باهتة لقلادة أحد الملوك الراحِلين. كان هناك ضوء خافت ينبعث من مصباح من الحديد المشغول متدلٍّ من السقف، انعكس وميضُه الخافت المُتقطع على الجدران الجصية المُقشَّرة والنوافذ الشبكية الصغيرة. ارتمت الروائية على كنبةٍ قديمة مرتفعة الظهر ذات مِسندَين، وحملقت في البلدة المُمتدة أمامها في ظلام وسكون.

سألت جوان بودٍّ مَشُوب بكرم الضيافة: «ألم تريدي تناول كأس من الخمر؟»

ردَّت الروائية: «لا. فقدتُ الشغف.»

جلست الصديقتان في صمتٍ سرعان ما كسرته الروائية.

سألت: «هل حاول أحد مغادرة القرية من قبل؟»

ردَّت جوان: «لا أحد يُريد مغادرة القرية. لدى الآنسة أسبري خادمة، اسمُها أدا، وهي أجمل فتاة رأتها عيناي. عندما تَرينها تُفكرين أنها ربما ترغب في العمل على المسرح أو في السينما، لكن طموحها الوحيد هو أن تصير خادمة استقبالٍ للآنسة أسبري. سيتطلَّب الأمر طنًّا من الديناميت لنقلِها إلى هوليوود.»

لم تعلِّق الكاتبة؛ إذ بدا عقلها في حالةٍ من الجمود لا يقوى على التفكير بأي شيء.

وفجأة حدثت المعجزة. ظهرت شرارتان ذهبيتان على مرمى البصر، وشقَّ ظلام الليل صوت طنين. حين نظرت السيدتان، سطعت الإضاءة واتَّسعت أكثر وأكثر، قبل أن تختفي في مُنحدرٍ وسط التضاريس. لكن الطنين استحال إلى زئير، وعند منعطف الطريق ترنَّحت حافلة خضراء ضخمة، بنوافذ لامعة واسم سحري «لندن» يتلألأ فوق هيكلها بحروفٍ برَّاقة.

بدت الحافلة شاذةً وسط تلك الطبيعة المهجورة، حتى بدت أنها غير حقيقية، مثل مشهدٍ تخيُّلي من العصر الميكانيكي في المُستقبل يُعرَض أمام شخصٍ حالم في الماضي لا يكاد يُصدق ما يراه.

قفز قلب الروائية عند رؤية الحافلة احتفاءً وترحيبًا. «لندن». ذكَّرتها الكلمة بأنها ستعود مجددًا إلى الوسخ والصخب، إلى الأرصفة وأضواء المدينة. وفي غمرة فرحتها انساقت مع موجةٍ من الحماسة الزائفة.

هتفت: «لقد أحببتُ كل دقيقة أمضيتُها هنا. حمدًا لله أنني سأعود إلى لندن وإلا أسرَتْني هذه القرية أيضًا.»

ردَّدت جوان متسائلة: «أيضًا؟ ماذا تعنين بذلك؟»

نظرت الكاتبة إلى صديقتها، وأدركت فجأة سبب التغيير الذي طرأ عليها.

قالت بنبرة اتهامية: «أنتِ واقعة في الحُب يا بروكي. لا يمكن أن تسرق القرية قلبك؛ لأن رجلًا سبقها إلى ذلك. إلى اللقاء. لا تنسَي إخباري بما ستئول إليه قصتي المسلسلة.»

وَعَدَتْها جوان قائلة: «لن أنسى. من المؤسِف أنكِ عائدة إلى لندن.»

«من المؤسف جدًّا.»

أدركت جوان بتأنيب ضمير ذلك الشعور بالراحة الذي غمرَها بينما كانت تُشاهد صديقتها وهي تصعد الحافلة بخطوات سريعة. أما الروائية فقد غاصت في مقعدها في امتنان، ولوَّحَت بيدِها لصديقتها مودِّعة. كانت تترك الطمأنينة والجمال خلفها، لكنها تركتهما غير آسفة. وفيما بدأت القرية المُظلمة تمر أمام النافذة رويدًا رويدًا، راقبتها الروائية وهي تُحلق خلفها بابتسامة على شفتَيها.

ستعود إلى لندن.

وقفت جوان أمام النزل، تشاهد الحافلة، حتى توارت عن الأنظار. بدأ الغبار يهبط شيئًا فشيئًا ويمتزج بالتربة الأم. وراحت أبخرة الوقود ترتفع رويدًا رويدًا حتى تبدَّدت في الهواء المُحيط. وعجَّل المحرك بزئيره الخافت الخُطى إلى أقاصي الأرض.

حدثت جوان نفسها، وهي تتسلَّى بإشعال سيجارة أخرى: «أنا سعيدة برحيل بيرلي.»

وفيما سارت الهُوينى في شوارع القرية، كان القمر قد ارتفع في كبد السماء مُلقيًا بأشعته الفضية على المباني التيودورية القديمة، فاستحال لونُها إلى لون الأبنوس والعاج. كان الجميع قد دخلوا إلى منازلهم، والمصابيح أُضيئت والستائر أُسدِلت. ومن جديد عادت السفينة القديمة إلى مرساها في ميناء الماضي الراكد.

ذكَّرت النوافذ المحجوبة جوان برواية صديقتها المُسلسلة، فلوت شفتَيها في سخرية. كانت تعلم جيدًا ما يدور بين جنبات كل منزلٍ من المنازل المُضاءة، وما يفعله أصحابها في المساء. كانت الآنسة كورنر مُنشغلة بكتابة ملحمتها الرائعة عن فوز أصغر فتًى في المدرسة

في سباق الميل. وكان الطبيب وزوجته مُنشغِلَين بالقراءة؛ لأنهما مُشتركان في مكتبة لندن. وفي هذا المنزل الكبير يستمعون إلى موسيقى كلاسيكية تُبَث على الهواء مباشرة؛ وفي ذاك المنزل الصغير يشربون الكاكاو ويلعبون سوليتير.

في كل مكانٍ كانت هناك دراما محلية تُعرض على مسرح الليل الساكن. هناك، جلس الخدم السعداء في المطابخ المريحة؛ ونامت القطط والكلاب الشَّبعى على البُسُط؛ وأحصت الساعات الجدارية انقضاء الساعات الهادئة.

لم يقع ما يدلُّ على أن الميلودراما الخيالية التي حبكتها صديقتها حقيقية — ولو حادثة واحدة من الخوف والبؤس — أو يكشف ما كان يجري حقًّا خلف الستائر المُسدَلة. وحدها الجدران هي ما كانت تسمع ما يحدُث واحتفظت بما سمِعته سرًّا.

الفصل الثاني

# بيكربونات الصوديوم

مضى يومان منذ عودة الروائية إلى لندن، ولم يتبقَّ من آثار زيارتها سوى بعض لدغات البعوض على كاحلَيها، وذكرى ضبابية غير واضحة. حتى القرية لم تُبقِ أي أثر لشخصيتها؛ فقد مسحتها جوان من ذاكرتها تمامًا، في حين لم يأتِ أحد على ذِكر الغريبة ذات الأصباغ والعدسة المُفردة. حتى الصحيفة المصورة التي كانت تطبع قصتها المسلسلة الأخيرة لم تكن متداولة في القرية فلم يبقَ أثر لعملِها أيضًا.

تدفقت الحياة بهدوء مثل نهر مُترع شفاف، لكن كان هناك ما يُنذر بتداعي هذه الطمأنينة والسكينة. فكما تسبق الفريسة ظهور السبع، كانت زيارة الروائية النذير الذي يسبق وقوع الكارثة. كان التناغُم المُجتمعي مستقرًّا لا يُعكر صفوه شيء، لولا تلك الحادثة المزعجة الأولى التي كان من المُقرر حدوثها في ذلك المساء.

تأخر الطبيب بيري في عودته إلى منزله لتناول العشاء. وفور أن رأى واجهة منزله المشيد على طراز الملكة آن، تلك الواجهة المُبهجة التي كانت من الطوب الأحمر، دفع بوابة الحديقة على مصراعيها، وبداخله ذلك الشعور المألوف لبحَّار عاد لتوِّه إلى الميناء. كانت الحديقة المُقلَّمة تتخللها أشعة شمس المغيب مثل العروق، كما لا تزال الحدود العريضة، من زهور التوليب الوردية الطويلة وأذن الفأر، مثل سحابةٍ زرقاء مشوبة باللون الوردي، رغم أنها قد تجاوزت أوان ازدهارها على نحوٍ لا يكاد يُلحَظ.

استقبلته زوجته على درج المدخل المسقوف في استياء. كان الطبيب قد تزوَّج الصيدلانية المساعدة له، وهي ابنة نبيل أيرلندي فقير؛ ولهذا كانت غريبة على القرية؛ لكن أهلها رحَّبوا بها بِناءً على سُمعة زوجها.

للوهلة الأولى، بدا الزوجان على غير وفاق. فكان الطبيب سليلَ واحدةٍ من أعرق العائلات في القرية، شاحبَ الوجه نحيلَ الجسد، طيب المَعشر واهن الصوت، بينما كانت زوجته ذات بشرة داكنة جدًّا، وجمالٍ شاحب لم يُقلل شحوبه من جاذبيته.

كانت الهالات السوداء تحت عينَيها وفستان السهرة الذهبي الحريري المُتغضِّن، قد جعلاها تشبه مضيفة ملهًى ليلي سيئة السمعة تستقبل أولى بشارات النهار؛ لكن الرائحة النفَّاذة لمسحوق زهرة البنفسج أشارت إلى انشغالها بأعمال المنزل. فقد انتهت لتوِّها من تحميم طفلَين مشاغبَين، ولأن الأمومة بالنسبة إليها مثل عاصفةٍ من المشاعر، فقد أنهكت نفسها بمراوغاتهما وما تختبره من متعةٍ شديدة في رعايتها لهما.

قال زوجها وهو يُقبِّلها قبلةً حانية: «حسنًا يا ماريان. كيف حال العائلة؟»

أجابت ماريان بيري بصوتٍ رقيق مُتهدج: «في الفراش. ليتك شاهدتهما وهما يغتسِلان. كاد ميكي أن يسبح.»

علَّق الطبيب وهما يجتازان رَدهة المنزل الفسيحة المكسوَّة بالألواح: «جيد. لكنك تبدين في غاية الإنهاك.» كانت شمس المغيب تتسلَّل عبر ستائر لونها أزرق مثل زهرة العائق، كاشفة عن تصميم داخلي جذَّاب، أفسدته اللعب المُبعثرة في كل مكان وعربتا الأطفال الواقفتان في الزوايا.

أمسكت ماريان بخصرها وقالت: «أشعر بألَم. هل تُسمِّمني يا عزيزي حتى تستطيع الزواج بمنافستي الآنسة كورنر؟»

لم يتطابق الطبيب مع تصوُّر الروائية اللندنية عن الشخصية المزدوجة؛ إذ لم تظهر عليه أي بادرة قلق.

أجاب ببساطة: «هذا لأنك تُفرِطين في تناول عنب الثعلب النيء. ينبغي أن تأخُذي بيكربونات الصوديوم. ستُهدِّئ معدتك بطريقةٍ أو أخرى.»

قالت ماريان وهي تجرُّ الطبيب بعيدًا عن الدرج: «أتريد أن تُمرضني؟ أريد أن أتناول العشاء أيها الوغد. لا يُمكنك تغيير ثيابك الآن. فلقد تأخرتَ كثيرًا. والعشاء جاهز على المائدة.»

ودخلا يدًا بيدٍ إلى غرفة الطعام وكانت غرفة منسَّقة جميلة، مُزدانة بستائر من الكتان البيج الفاتح، ومُجهزة بأثاثٍ بندقي اللون. كانت فضيَّات المائدة كدرة، وطقم السفرة ناقصًا، لكن الطعام كان شهيًّا جدًّا. لم ينجح الطبيب في تسميم زوجته على ما يظهر؛ إذ تناولت طعامها بشهية مفتوحة رغم ألَم معدتها المزعوم.

سرعان ما سألت الزوجة: «كيف حال العيادة؟»

أجاب: «كالعادة. لا جديد.»

سألت: «هل ذهبت إلى الآنسة كورنر؟»

أجاب: «لا.»

قالت: «كذَّاب. أرِني دفتر الحالات.»

وضع الطبيب الدفتر على مفرش المائدة في صمت.

قالت زوجته وهي تقلِّب صفحات الدفتر: «سأسوِّي دفاتر الحسابات بعد العشاء.»

قالت ذلك باستمتاع؛ إذ كانت تلك مُهمتها المفضَّلة. كان أهل القرية يأخذون صحَّتهم على محمل الجد، ويلتزمون بدفع الفواتير الخاصة بها في مواعيدها؛ لذا كانت تعلَم أنها لا تجمَع أرباحًا على الورق فحسب، وهي تُحصي الأرقام، وإنما أرباحًا حقيقية.

غمغمت الزوجة: «جيه كيه. جيه كيه. يبدو أن الآنسة كورنر مصدر دخل سنوي لنا. ممَّ تشتكي؟»

«ما رأيك أن تسأليها بنفسكِ؟»

«أعرف. إنها في غاية البدانة. هل هي غنيَّة؟»

«لا أعرف.»

«لكن ذلك المنزل تكلَّف بناؤه آلاف الجنيهات يا هوريشيو، ومع ذلك لا تُواجِه أي أزمةٍ مالية. فهي تدفع لطاهيتها راتبًا قدرُه سبعون جنيهًا. لا يُمكنها أن تَجني كل هذه الأموال من الكتب السخيفة التي تكتبها.»

«حقًّا؟»

قالت ماريان مُحاكية نبرة زوجها الفاترة بسخرية: «حقًّا؟ هل يُثير اهتمامك أي شيءٍ أو أي شخصٍ على الإطلاق يا زوجي العزيز؟»

تحدَّث الطبيب بهدوئه المعتاد، لكن كانت هناك لمعة شاردة في عينَيه الهادئتَين: «تُهمة غريبة هذه. في الحقيقة، أعاني من حالةٍ مُزمنة من الفضول غير المُشبع ... أعترف أنني لا أكترث بدخل الآخرين ما داموا يدفعون لي فواتيري، ولا تُثير فضولي الأمراض العادية. لكن ما يُثير فضولي هو ما يدور حقًّا في أذهان الآخرين.»

تساءلت ماريان: «أهذا مُمكن؟ هل تعرف ما يدور في عقلي؟»

أجاب الطبيب: «لا.» وجفل حين بدأت زوجته تُقطِّع الدجاجة التي أمامها بعنفوانها المعتاد. وأضاف: «ليتني أستطيع. لربما عرفتُ حينها سبب إصرارك على تقطيع الدجاج. كنتِ ستصيرين جرَّاحة ممتازة.»

قالت: «أُقطِّع لأني أكره رؤيتك وأنت تُمسك سكينًا. فأنتَ تستخدِمها بمهارة بالِغة لدرجة أنني أشعر أنني أُشاهد عمليةً جراحية. وهذه رسالة حقيقية من أعماق عقلي أيها السيد الفضولي. بالمناسبة، نطق ميكي كلمةً جديدة. إنها تبدو مثل «اللعنة». أنا في انتظار أن ينطقها مرةً أخرى وأعيش على ذلك الأمل.»

على مدى ما تبقَّى من وقت العشاء، تمحور حديث ماريان حول طفلَيها. لكن قبل أن ينتهي العشاء، هبَّت واقفةً على قدمَيها وأمسكت خصرها في ألَم.

هتفت قائلة: «كنتُ حمقاء عندما تناولت العشاء. لقد عاودني الألَم وبدأ ينهشني بكلِّ قوته.»

غمغم زوجها: «بيكربونات الصوديوم. ما رأيك في مُمارسة التنس لاحقًا؟»

أجابت: «لا يا عزيزي، لا تمتلك ماما وقتًا للعب مع طفلِها البكر هذا المساء. فبعدما أنتهي من تحضير الأدوية، سأنشغل بدفاتر الحسابات.»

الْتمعت عيناها حماسةً من فكرة الدفاتر، حتى إنها نسيت ألم معِدتها تمامًا.

أعلنت: «أُحب هذا الأمر. أشعر بمتعةٍ حقيقية وأنا أتعامل مع الأرقام. ليتني عملتُ وكيلة مراهنات. وكلما دوَّنت البنود قلت: «ها هي علبة بسكويت للطفل الرضيع، وها هي سراويل داخلية صوفية جديدة لميكي. وأنت ماذا ستفعل؟»

أجاب: «سأُكمل قراءة الرواية.»

تمشَّى الطبيب إلى غرفة المعيشة، التي كانت لطيفةً ومبهجة، بألوان الباستيل الفاتحة واللون الأخضر المُنبعث من ظلال أشجار الجميز. تمدَّد على أريكةٍ وردية قديمة باهتة، حيث غضَّن حذاؤه غطاءه الحريري، واندمج في قراءة ترجمة مسرحيةٍ روسية. وبعد قليل دخلت ماريان الغرفة، مُحمَّلة بأدوات مكتبية وضعتْها على المكتب.

صاحت ماريان عندما رأت ما آلت إليه الأريكة من فوضى.

قالت: «تبًّا لك يا عزيزي. هذه الوسائد نظيفة.»

نزل الطبيب عن الأريكة في خفةٍ وهو يشعر بتأنيب الضمير.

قال: «أفكر في الذهاب إلى القسيس وتدخين الغليون معه.»

ردَّت: «اذهب. اذهب قبل أن أذبحك. أرسِل حُبي لذلك الشابِّ وأخبره أن يتوقَّف عن الصياح على المنبر. أعترض كأمٍّ على صياحِه الذي يوقظ كل الأطفال الرضَّع في أستراليا. ولا تسرع في العودة إلى هنا لأنني لا أتلهَّف لذلك كثيرًا. اترك لي الرواية التي تقرؤها.»

الْتقط الطبيب الرواية من فوق السجادة.

وقال لزوجته ناصحًا: «الأفضل ألا تقرئيها. فلن تستطيعي استيعاب فلسفتها العميقة، مثل كل النساء، وستتوقَّفين عند كلِّ أجزائها البذيئة. ثم ستمضين في سبِّ عموم الرجال لفساد أذواقهم ... إلى اللقاء يا ماريان.»

ترك الطبيب زوجته تُقلِّب صفحاتِ أحد دفاتر الحسابات بحماسة شديدة، في حين صعد الدرَج البلوطي العريض المُنخفض، ليغتسل ويُغيِّر معطفه. وعندما انتهى من حمَّامه، تسلَّل إلى غرفة نوم الأطفال، حيث كان ينام الرضيعان بقبضتَين مضمومتَين وشعرٍ ناعم رطب.

ومع أن أحدهما كان يكبر الآخر بعشرة أشهر، فقد كان هناك تشابُه قوي بينهما؛ فكلاهما نسخة مصغرة من أبيهما الطبيب، وملامحهما تتنكَّر لأي علاقةٍ تربطهما بوالدتهما المُتقلبة المزاج. وكانا طفلَين مرفَّهين أيضًا؛ إذ ارتديا منامات باهظة الثمن، وتدثَّرا بأغطيةٍ مسامية هادئة الألوان ذات شرائط حول حوافها. وكانت هناك عُقَد فراشية حريرية فاخرة تزين فراشي الطفلَين المطلِيَّين بالمينا البيضاء، ودمًى لحيوانات ضخمة من الفراء ترافقهما في أثناء نومهما.

بينما وقف الطبيب يتأمَّلهما بحنان، فُتح الباب بهدوء، ودلفت منه ماريان. كان شريط من شرائط فستانها الذهبي قد انزلق من فوق كتفِها، وتدلَّت خصلة من شعرها الداكن على وجنتها، ما أضفى عليها لمحةً فاضحة من الإغراء. ألقت ماريان ذراعها العارية حول عُنق زوجها واستكملت صورة السعادة العائلية.

قالت بصوتٍ رقيق: «ألا يبدوان جميلَين حقًّا؟»

وافقها الطبيب قائلًا: «بلى، إنهما جميلان.»

شددت ماريان قبضتَها على كتف زوجها وانفجرت باكية.

قالت بصوتٍ متهدج: «هل كان يجب أن نُنجبهما؟ إنهما لا يملكان من أمرهما شيئًا ويعتمدان علينا تمامًا. ماذا لو حدث شيء لي؟ أو لك؟ سيعتني بهما الغرباء. ماذا لو توقَّفت العيادة عن العمل؟ ماذا سيصير بهما؟»

أغلق زوجها عينَيه بشكلٍ غريزي من هول هذه الفكرة المأساوية. وفي اللحظة التالية كان قد استعاد رباطة جأشه، وهو يربِّت على ذراع زوجته، ويضحك ضحكةً رقيقة.

قال: «أنتِ سوداوية. ربما كان ذلك من أثر الحموضة. هلا تذهبين وتتناولين بيكربونات الصوديوم.»

الفصل الثالث

# النذير

بعد عشر دقائق، كان الطبيب بيري يجلس مُسترخيًا على مقعدٍ مهترئ من ماركة فارستي، في حديقة القسيس التي تُظللها أشجار الطقسوس، في حين أخذ مُضيفه يقطع الأرض العشبية المزدانة بزهور الأقحوان بخطواتٍ رشيقة، ملوحًا بغليونه وملقيًا مواعظه على أذنَيه. كان هذا الشخص، وهو نسخة بشرية من الدينامو، محور اهتمام عقل الطبيب الفضولي؛ وبينما كان الطبيب يُدخِّن غليونه أخذ يتفحَّصه بحيادية هادئة.

كان القسيس سايمون بليك طويل القامة مُكتنز الرقبة، مفتول العضلات، ذا ملامح كلاسيكية غير حادة، وشعرٍ مجعد أسودَ كالفحم، وعينَين براقتَين تشعَّان غرورًا. بدا في كثيرٍ من النواحي كأنه وليد زواج إمبراطور روماني أعياه الزمن بامرأةٍ مغمورة من عامة الشعب. كان صوته قويًّا مفعمًا بالحيوية، وكانت كل إيماءاته تُوحي بالعنفوان. بدا كأنه لم يكتسب عادة الجلوس قط، وكان يتحدَّث بلا توقُّف.

كان الطبيب بيري يُدرك أن استعراض القسيس لحيويته الفيَّاضة مجرد تضليل، وأنه يفعل ما يفعل لإعادة إشعال نيران، كانت قد اضطرمت ثم انطفأت جذوتها. كان يعلم أن هذه هي الحيلة الدفاعية الأخيرة للتوتُّر العصبي الذي جعلَه مثل كوكب غير مُستقر في مداره. لقد أرهق القسيس نفسه بالعمل في أبرشية مُحاذية لرصيف الميناء، وظل متمسكًا بوظيفته حتى بعد شعوره بالإنهاك لفترة طويلة. ولم يكن سيتنازل ويقبل العيش في القرية لولا أنه انهار نفسيًّا وجسديًّا.

قال الطبيب مشجعًا: «اجلس يا رجل. أنتَ مثل جزيئات الطاقة الذرية المضطربة.»

ألقى القسيس نفسه على مقعده الضعيف في انصياعٍ بقوة آلة ثقيلة، غير أنه هبَّ واقفًا مرة أخرى.

قال: «هذا المكان مثالي يا دكتور. أدعو الله أن أعيش آخِر أيامي به. انظر إليه الآن.»

ولوَّح بغليونه نحو شارع القرية الذي كان يعرض موكب الغروب الاعتيادي على مسرحه. كان الأطفال يقفزون ويلعبون على حجارة الرصيف، في صورةٍ مطابقة للأصل للفتيات والفتيان المرفهين وكنَّاسي المداخن الصغار الذين واراهم الثرى منذ زمنٍ بعيد. وانشغلت النساء بالثرثرة من فوق بوابات حدائقهن، كما كنَّ يفعلنَ في العصور التيودورية، وتحدثنَ عن الأشياء نفسها تقريبًا. وفي الثامنة إلا الربع تقريبًا، خرج السيد سكودامور وزوجته من بوابات منزل «ذا كلوك» ليقوما بجولتهما المسائية. كانت السيدة ترتدي قبعةً من الريش وشالًا نسائيًّا رقيقًا من الدانتيل الأصلي، ورفعت القرية القبعة إعجابًا بالصنعة المبهرة للدانتيل القادمة من مدينة هونيتون.

تفحَّص الطبيبُ القسيسَ، وراح القسيس بدوره يرقُب الثنائي وهما يسيران في وقار. لاحظ القسيس كيف تذوب البرودة التي تكسو وجه المحامي كلما تحدَّث إلى زوجته، وابتهج عندما رآها تبتسِم تجاوبًا مع زوجها. لكنهما لم ينشغِلا بنفسيهما عن رؤية طفلَين سفعتهما الشمس، يرتديان قلنسوات واقية من الشمس قديمة الطراز باللون الأرجواني الفاتح. أخرجت الفتاة الصغيرة ملبس اللوز من فمها لتُثبت للحاضرين أن لونه تحول من الوردي للأبيض، وبالَغ الزوجان كثيرًا في إظهار دهشتهما بهذه المعجزة.

لوى الطبيب شفته قليلًا سخريةً، بينما انفرجت شفتي القسيس عن ابتسامةٍ مشرقة.

قال: «لا يزالان حبيبَين كما كانا. هذا هو الزواج المثالي.»

غمغم الطبيب: «في نظر الرب والجيران.» ثم أضاف بابتسامةٍ باهتة: «هناك خطر وحيد من تقديس عمدة القرية وعائلته. فلن يستطيع أهل القرية الشكوى حال تعرُّضهم لأي سوء معاملة من شدة ما ترسَّخ ذلك الاعتقاد داخلهم. فهم يُدركون أن لا أحد سيُصدقهم.»

كرر القسيس: «سوء معاملة؟ هنا؟ هل جُننت؟»

أجاب: «ربما. أغلبنا لدَيه شيء من الجنون وهذا أمر طبيعي. بالمناسبة، إذا أخذتُ إجازة من العمل في أحد أيام الأحد، فسآتي لسماع خطبتك يا أبتِ. أنتَ الشخص الوحيد الذي يستطيع طرد النوم من عيني.»

ابتسم القسيس ابتسامةً صبيانية يشوبها الخجل.

وقال معترفًا: «أعرف أنني شخص مُزعج لكن الخطابة هي موهبتي. لعلها لا تلائم المكان، إلا أنني لا أجرؤ أن أتركها دون استخدامٍ حتى لا تصدأ. إلى جانب أنها ربما كانت تصنع خيرًا في الخفاء. مَن يدري؟»

كان القسيس يعلم أن عظاته الحماسية، التي أشعل بها جنبات أبرشيته السابقة، كانت مثل سلسلةٍ من القنابل تنفجر تحت الممرات المُقنطرة للكنيسة النورماندية. لكنه لم يتوقف عن هذه العادة، وكان يحضُّ مُستمعيه كل أحدٍ على التفتيش في قلوبهم عن أي ذنوبٍ خفية. وكانت رعيته تتلقَّى مواعظه بهدوء تام، في حين كان يُعجَب هو بصوته الجهوري.

كانت عائلة سكودامور قد اختفت عن الأنظار، عندما انفتحت بوابات قصر «سباوت» ذات الزخارف الحديدية المُتقَنة، وخرجت منها فتاة. بدت هذه الفتاة من بعيدٍ تُشبه جوان بروك؛ ورأى الطبيب الذي كان مُضلَّلًا هو أيضًا، الاهتمام الذي ظهر على وجه القسيس على نحوٍ مفاجئ. لكنها عندما دنت تبيَّن أن جوان مجرد مثال على الجمال، أما هي فآية فيه.

كان شعرها بين الذهبي والأحمر، وعيناها مزيجًا بين الأخضر والأزرق، وبشرتها مُركبة من الأحمر الكرزي ولون القشدة، فيما كانت قسماتها وأسنانها الناصعة البياض مثالية. كانت ترتدي فستانًا أبيض بلا أكمام من الكريب الرخيص، وجوارب نسائية حريرية يُعرف لونها بـ «الماء الموحِل»، وأساور فضية على ذراعَيها الرشيقتَين. يداها الحمراوان فحسب ما كشفتا عن اشتغالها بالأعمال المنزلية.

كانت هذه الفتاة هي أدا، خادمة الآنسة أسبري الشهيرة، وفاتنة الحي بإجماع الجميع. اجتازت الفتاة ساحة القرية، ثم توقَّفت قليلًا تحت سور حديقة القسيس المُرتفعة لتتفقَّد ساعة يدِها، التي كانت تُشبه تمامًا ساعة جوان بروك من ناحية الشكل. وعلى الفور رأت الرجلَين يُدخنان فوقها، فانحنت لهما في احترامٍ كأي طفلٍ من أطفال القرية.

ابتسم القسيس ابتسامة عريضة وقال: «مساء الخير يا أدا. هل انتهيتِ من عملك؟»

بادلَته الابتسام وأجابت: «بلى يا سيدي.»

سأل القسيس: «ماذا تفعلين في نُزهاتك المسائية؟»

«الكثير يا سيدي.»

«ألا تسأمين أبدًا أو تفتقدين الأفلام؟»

امتلأت عيناها اللتان تُشبهان زهرة البنفسج باللوم وقالت: «لا، سيدي. أنا عائدة للمنزل لأرى مولود أُمِّنا الجديد.»

سأل: «طفل جديد؟ حسنًا. ما جنسُه؟»

قالت: «ذكر يا سيدي.»

نظرت إلى ساعتها مرةً أخرى، فانحنت من جديد، وأسرعت باتجاه مَمشى كواكرز.

سأل القسيس: «أليس ذلك مُمتعًا؟ إنه لا يُقارَن بدور السينما المكتظة بالمشاهدين وما تعرضه من أفلام الجريمة والجنس ... بالمناسبة، لم أعلم أن السيدة لي رُزقت بمولودٍ جديد. كم عمره؟»

أجاب الطبيب: «ستٌ وعشرون سنة تقريبًا. إنه سائق عمدة القرية الجديد.»

ضحك القسيس على نفسه كثيرًا.

وقال: «صدقتها مثل الأحمق، أليس كذلك؟ لقد خدعتني. ولكنها على أي حال، تنعم بحبٍّ حقيقي لزوجها، وهذا أفضل كثيرًا من مشاهدة الحُب المُعلَّب على شاشة سينما.»

علق الطبيب: «في الحالة الأولى قد لا يتخطَّى الضرَر فقدان أربعة بنسات ثمن تذكرة السينما. لقد تعلَّمتُ في مِهنتي أن السلع المُعلبة قد تكون أقلَّ ضررًا من السلع الطازجة.»

الْتمعت عينا القسيس وقال: «لا. ليس هنا. لا يوجد انحلال أخلاقي في القرية. كما لا يُوجَد حقد طبقي ولا اضطرابات مُعاصرة. إن عموم السكان يتحلَّون بالطيبة وحُسن الخلق. فلم أشهد مكانًا تندُر فيه الفضائح مثل القرية. كما أن الجهود الخيرية تكاد تتقاطع. فلا تُوجَد أحياء فقيرة ولا أسقف متهالكة ولا أوضاع غير صحية.»

قال الطبيب بصوته المُتعَب: «أتَّفق معك. لكن هذه الحقيقة تظلُّ قائمة. لا تستخدِم أي من سيدات القرية أي مستحضرات تجميل، ولا حتى زوجتي المتحضرة؛ لأن زوجة السيد سكودامور قد أصدرت مرسومًا بأن الأصباغ تتنافى مع الذوق الرفيع. ومع ذلك هل رأيتَ شفاهًا مُتشققة أو بشرة متضررة قط؟»

سأل القسيس: «ماذا تقصد بكلامك هذا؟»

أجاب: «لا شيء سوى أنهنَّ حتمًا يستخدِمنَ كريمات غير مرئية ومراهم علاجية شفَّافة للشفاه ... المغزى من الكلام، يا أبتِ، أن الطبيعة البشرية تظلُّ واحدة والفساد موجود في كل عقل.»

قال القسيس في حسرة: «لعلَّك تفوقني معرفة في هذا الشأن. فلم يعُد الناس يأتمنون قسيسهم على ما يُواجهون من صعابٍ وشكوك. لكن باعتبارك طبيبًا، فلا بد أنك تطَّلع على خبايا قلوبهم في غفلة منهم.»

سأل الطبيب: «أنا؟» كان يبتسِم وهو يحاول عبثًا اصطياد عثة بيضاء. وأضاف: «لا يا أبتِ، إنهم يظهرون أحسن ما لدَيهم عند زيارة الطبيب.»

لم يعلق القسيس؛ حتى هو استسلم للصمت أخيرًا بتأثير ذلك السحر المركَّب للشفق والتبغ. لقد تلاشت الأعمدة الأرجوانية والذهبية من سماء المَغيب، وسكنت أصوات النساء الثرثارات. ودخل أهل القرية إلى بيوتهم لتناوُل الغداء أو إعداد العشاء. وعاد الزوجان سكودامور إلى منزل «ذا كلوك» بمهابة، وظلَّا يتأبط كلٌّ منهما ذراع الآخر حتى آخِر حجرٍ رصيف. أما أدا خادمة الآنسة أسبري، فكانت تُقبِّل وتُعانق مولود أمِّها الجديد الذي نما له شارب كشارب رولاند كولمان، في ممشى كواكرز المُظلم.

طفقت المصابيح تثقب ستار الليل، في حين ارتعشت أول نجمةٍ في السماء المشوبة بلون أخضر باهت. وفي الناحية الأخرى من ساحة القرية، تلألأت ألماسات ذهبية صغيرة، مثل مجموعاتٍ متكتلة من النحل، عبر النوافذ الشبكية لقصر الآنسة أسبري ذي الطراز الإليزابيثي.

تجدَّد حماس القسيس بمشهد الألماسات.

علَّق: «لا أحد مِثالي كما قلتَ. لكن الآنسة أسبري أقرب ما تكون إلى القديسة منها إلى امرأةٍ عادية. إن لها تأثيرًا في نفسي يكاد يكون روحانيًّا. أذهب إليها كلما شعرتُ بالغضب والعصبية، وأخرج من عندها وأنا في غاية الهدوء.»

تفحَّصه الطبيب عبر عدسات نظارته، وكأنه يتفحص شيئًا على شريحة مِجهر.

وسأل: «حقًّا؟ هذا مُثير للاهتمام. في الحقيقة لقد لاحظتُ أيضًا أن أي سيدة فاضلة تمتلك سِمة مُهدئة على ما يبدو. لكنها كارثية لشخصٍ ذي طبيعة خاملة مِثلي. بعدما أذهب إلى «سباوت»، أشعر كأنني تناولتُ عقار فيرونال المُنوِّم. لم أكن ألحظ ذلك من قبل؛ لذا افترضتُ أنني إما أتقدم في العمر أو أعاني من بعض الخمول الزائد.»

تحدث الرجلان بلا تكلُّف وكانت كلماتهما تذهب طيَّ النسيان بمجرد نُطقها. لم يتوقَّعا في ذلك الوقت، أنهما عندما سيغرقان في متاهة الغموض المُظلمة لاحقًا، أن تسجيلًا لمحادثتهما بالجراموفون سيكشف لهما أحد الألغاز.

قال القسيس للطبيب ناصحًا: «يجب أن تأخُذ إجازةً من العمل.»

أجاب: «إنه مرهق جدًّا.»

كان صوت الطبيب المُتثاقل مسموعًا بالكاد. كان الليل قد غلَّف القرية بطبقاتٍ بعضها فوق بعض من الأزرق والأصفر والرمادي. غرق الرجلان في مقعدَيهما، يُدخنان غليونَيهما، في سلامٍ مع الطبيعة ومع نفسيهما. بدا كأنهما يغوصان في ظلماتِ بحرٍ لُجي، غير عابئين بمراوح السفن البخارية، التي تضرب سطح المياه من فوقهما.

لكن، حتى آنذاك، كانت الضربة الأولى توشِك أن تقع على القرية. فمِن مكان بعيد، في الأفق، دوَّت طَرقة ساعي البريد المزدوجة. وبعد برهة، ظهر أمامها رجل مُستدير البِنية ذو نظارة فولاذية الإطار. تجاهل ساعي البريد بيت القسيس، ولكنه دخل من بوابات قصر «سباوت». سمع الرجلان طرقاته المُتكررة المألوفة، ثم رأياه يخرج من الحديقة مرةً أخرى ويمضي في سبيله، لكنهما لم يُدركا أنه كان نذير الكارثة.

دبَّت الحياة في نفس القسيس على الفور.

قال: «الجو بارد. لندخل ونتناول كأسًا من الويسكي.»

بينما كان الرجلان ينهضان من مقعدَيهما المُنخفضَين بصعوبة، أصدرت بوابة بيت القسيس صريرًا، ودخلت منها روز خادمة الاستقبال لدى الآنسة أسبري، التي لم تكن هيئتها تتناسَب مع جمال اسمِها، وسارت في ممرِّ السيارات المرصوف بالحصى في خيلاء. كانت امرأةً صارمة نحيلة بارزة الشفتَين، وكانت قد عملت في وقتٍ سابق في قصر الأسقف؛ لذا لم تُظهر الاحترام للقسيس كما هي عادة أهل القرية. كان صوتها أجشَّ وهي تُملي أوامرها.

قالت: «تُرسِل الآنسة أسبري تحياتها، وتطلب منك القدوم إلى بيتها على الفور إذا سمحت.»

لم يتحمَّس القسيس للفكرة؛ إذ كانت نوافذ غرفة مكتبه المضيئة تُناديه والويسكي في انتظاره، فسأل: «هل الأمر عاجل؟»

أجابت: «الآنسة تستأذنك في المجيء على الفور؛ لأن الأمر «في غاية الأهمية».»

قال: «بالتأكيد، سآتي إليها مباشرة إذن.»

تقدمت روز الطريق، بقوامها الطويل وثيابها السوداء والبيضاء، في حين استدار القسيس إلى الطبيب بيري.

سأل: «أعتقد أنك لن تنتظِرني، أليس كذلك؟»

ردَّ الطبيب: «أشكرك يا أبتِ، لكني سأنتظِرك. أعتقد أن جيلي بوتر سيظهر على الهواء الليلة؛ لذا سأُسلِّي نفسي بالراديو.»

وبينما راح ينظر إلى طيف القسيس وهو يُغادر، اشتعلت عيناه الخاملتان في العادة فضولًا، وعزم على الانتظار إلى منتصف الليل، إذا اقتضت الضرورة، حتى عودة القسيس.»

فقد كان موقنًا تمام اليقين أن فضوله الجائع سيحظى بوليمةٍ كبيرة، وأنه للمرة الأولى في تاريخ القرية ستسقُط الأقنعة المثالية.

الفصل الرابع

# مجهول الهوية

عندما تألقت الألماسات الذهبية عبر النوافذ الزجاجية لغرفة طعام الآنسة أسبري، كانت الآنسة جالسة على رأس مائدة العشاء مع مرافقتها الآنسة ماك الضئيلة الجسد، ولم تكن تدري قط أن شخصها كان محلَّ نقاش رجلَين في الناحية الأخرى من ساحة عشبية خالية.

وبينما كانت تجلس في مقعدٍ منحوت ذي مسند طويل للظهر، وتتناول الطعام الذي كدَّسته خادمة الاستقبال في صحنِها بصورة آلية، لم تكن تعي ما يجري حولها؛ إذ كانت تُحملق في الجدار المقابل لها كأنما تُحاول اختراقه بنظراتها الثاقبة.

كانت الآنسة أسبري في أوائل الستينيات، ولكن كان لها قوام مَمشوق وقامة مُنتصبة كفتاةٍ شابة. حمل وجهها بقايا جمالها السابق رغم التجاعيد الكثيرة، وكان لها أنف وذقن مُدبَّبان، جعلا وجهها ككسَّارة البندق في إشارة إلى تقدُّم العمر بها. كان لون بشرتها أصفرَ شاحبًا، وتعابير وجهها بريئة ورصينة. كانت ترتدي ثوب سهرةٍ حريريًّا أسود لاءم شعرها الفضي الأشيب بشكلٍ جيد يوحي بأنه حتى القديسين لهم نصيبهم من الخيلاء.

وهي وإن كانت في غاية الوهَن إلا أن شهيتها كانت مفتوحة، لكن بدا أنها تتناول طعامها بلا استمتاع، كآلةٍ تسحق العلف اللازم لمداواة جسدٍ أنهكته روح جامحة مُتَّقدة كالجمر. كانت امرأة ذات طاقةٍ لا تنضب، تنال منها لحظات من التأمُّل المرُكَّز الضاري، وكانت ملتزمة بعادات حياتها السابقة أيضًا.

كانت الآنسة ديسيما أسبري، الابنة الوحيدة لأبوَين ثرِيَّين، ترتاد المدرسة نفسها التي ارتادتها جوليا كورنر في ألمانيا؛ لكنها كانت تكبر الروائية بسنواتٍ عديدة، وغادرتها كي تُقدَّم في البلاط الملكي. وبعد انقضاء موسمٍ واحد فقط، سئِمت من حياة فتيات المجتمع

العادية، وذهبت إلى المُعتكَف وفي ذهنها أن تصير راهبة. لكن المنطق تغلَّب في النهاية، فاختارت مجالًا أكثر مواءمةً لطبعها، وأصبحت رئيسة دارٍ لتأهيل النساء الساقِطات في مدينة صناعية كبيرة.

لم تدخر جهدًا في سبيل عملها، وأجهدت نفسها أيما إجهاد مثل القسيس، حتى انهارت في نهاية المطاف. وأتت إلى القرية وهي لم تتجاوز بداية الثلاثينيات لتسترد عافيتها، ومكثت هناك زهاء ثلاثين عامًا. آنذاك، كان القصر ذو الطراز الإليزابيثي «سباوت مانور» معروضًا للبيع، ومنذ شرائه لم تنَم تحت سقفٍ آخر غير سقفِه، على عكس عادة الملكة إليزابيث الأولى في تجربة أسرَّة غريبة، بحسْب الأقاويل.

وما لبثت أن أثبتت شخصيتها المُسيطرة الرقيقة وأصبحت الآمرة الناهية في القرية. وحاز السيد الشريف منزلةَ عمدة القرية، لكونه كبيرَ أقدم عائلةٍ في القرية؛ ونصَّب الزوجان سكودامور نفسيهما حرسًا على الطابع العام للقرية، لكنَّ نجم الآنسة ديسيما أسبري غطَّى عليهم جميعًا.

جلست الآنسة على رأس مائدة الطعام الطويلة، ووقفت على خدمتها روز النحيفة في دأب، في حين مدَّت الآنسة ماك ذراعَها وغرفت لنفسها الطعام. كانت ماك امرأةً بدينة قصيرة، تصغُر مخدومتها بنحو خمسٍ وعشرين سنة، ذات بشرة شاحبة صافية ناعمة مثل دُمية من الخزف، وعينَين زرقاوَين فاتحتَين، وشفتَين منفرجتَين عن ابتسامةٍ خفيفة. بدت بليدة الذهن نوعًا ما من فرط لُطفها، لكنها كانت هادئةً طيبة المعشر.

في غرفة نوم الآنسة ماك، بالطابق العلوي، قبعت رسالة غير مُكتملة داخل النشَّافة الخاصة بها. كانت الرسالة موجهةً لامرأة تُدعى الآنسة سميث في لندن، وكانت تزخَر بالثناء على الآنسة أسبري والسعادة بحظِّها السعيد.

كتبت تقول: «الآنسة أسبري هي ملاك يمشي على الأرض. آوتْني حينما لم أجد المأوى ولا المال، ومهما فعلتُ فلن أستطيع أن أرد إليها حُسن صنيعها. إنها تترفق بي وتعاملني بلطف بالغ، ولا تثقلني بالأعمال، فأشعر أن الوقت يمضي بسرعةٍ وبخفَّة. لقد تحسَّنت قلبًا وقالبًا عما كنتُ. هدفي الوحيد هو أن أردَّ لها جميلها. هذا القصر جميل، مُشيَّد كله من الخشب، والجميع يقولون إنه مثل متحف.»

كان هذا من نُبل الآنسة ماك؛ لأن قصر «سباوت» لم يكن يتماشى مع ذوقِها الشخصي على الإطلاق. فكانت تُفضِّل ورق الحائط الوردي، والمصابيح الكهربائية، وغطاء المائدة الأبيض النظيف الجميل. قد يُشِيد الزائرون بالإبداع التاريخي في القصر ذي الطراز

التيودوري، ويُفرِطون في الثناء على أثاثه الأصلي الذي تعود كل قطعةٍ منه إلى عصر تيودور؛ لكنهم يجلسون في القصر فترة قصيرة فحسب، على مقاعده البلُّوطية الصلبة، وسرعان ما يرحلون وينعمون بمقاعد موسدة وثيرة ويعودون إلى القرن العشرين.

بينما كانت الآنسة ماك تتناول الخبز والجبن بنَهَم، جالت عيناها الزرقاوان الصافيتان اللتان تُشبهان الدمية الخزفية في الغرفة شِبه المضاءة بمصباحٍ زيتي وحيد مُتدلٍّ من سقفها. لم تظهر جدرانها ذات الألواح، التي اسودَّت بفعل الزمن، من ظلال ضوء المصباح. وكانت المائدة البلوطية عاريةً باستثناء بعض مفارش الأطباق الخشِنة المحبوكة يدويًّا من الكتان. كان الطعام نباتيًّا في معظمه؛ إذ احتوى على حساء العدس والسلطة والبسكويت والزبد والجبن والفاكهة. ولم يكن هناك شراب سوى ماء الشعير المُنعش مع أن الحرارة كانت لا تزال مُنخفضة في قصر «سباوت».

نظرت الآنسة ماك إلى طبق الخضراوات بارتياب؛ لأنها كانت لا تُحب الخس النيء، الذي لا يُشبع شهيتها، ويُصيبها بانتفاخ البطن فحسب.

حدَّثت نفسها قائلة: «لو كنتُ محظوظةً ستُقرقر معدتي فقط، ولو كنتُ غير محظوظة فسيضربني الألَم بقوَّة.»

وتذكَّرت الطعام اللذيذ الذي استمتعت به في إحدى المرات عندما أقامت مع أحد أعمامها المزارِعين في البلدة. فكلَّما ذبحوا خنزيرًا، كانوا يُعدون وليمة من الأطباق اللذيذة، مثل كرات اللحم، ولحم رأس الخنزير، وأمعاء الخنزير المطبوخة، وطبخة لذيذة اسمُها «السجق الأسود». قِيل لها إنها تُصنَع من دماء الخنزير، لكن هذا لم يُغير حقيقة أنها كانت مُشبعة وشهية.

من بعيد، انسابت إلى أُذنها طرقة عامل البريد المزدوجة، لكنها لم تُثِر اهتمامها؛ فقليلون هم من كانوا يكتبون إلى الآنسة ماك العديمة القيمة. ولاحظت عيناها اليقظتان رعشةً خفيفة سرَت في جسد معبودتها الآنسة أسبري، فهبَّت واقفةً على قدمَيها القصيرتَين المُتلئتَين، متأهِّبة لتقديم المساعدة.

سألت: «هلا أُحضِر لك شالًا يا آنسة أسبري؟»

أجابت الآنسة: «لا، شكرًا لك.» ونهضت من مقعدها مُتجهةً إلى الباب، فتبعتها الآنسة ماك، لكنها أشارت لها بالعودة إلى مقعدها. وقالت آمِرة: «اجلسي وأكملي طعامك من فضلك.»

وعندما أُغلِق الباب خلف الآنسة أسبري، خاطبت الآنسة ماك روز.

«ماذا لديك للعشاء في المطبخ؟»

أجابت روز: «بيض مسلوق دون قِشرته وشراب الكاكاو.»

لعقت الآنسة ماك شفتَيها وأطبقتهُما.

وعلَّقت: «الجو بارد هذا المساء. وتفوح منه رائحة الرطوبة.»

أخبرتها روز: «هذا بسبب الماء. أخبرتني السيدة أن القصر كان مزرعةً فيما مضى، وبها ينبوع ماء حقيقي. كوني واثقة أن الماء لا يزال مُختبئًا بمكانٍ ما. فالماء يبقى إلى أبد الآبدين.»

وأطبقت شفتَيها بسرعةٍ ووقفت بانتباه؛ إذ عادت الآنسة أسبري إلى الغرفة.

سألت الآنسة أسبري: «هل أفرغتِ سلَّة أوراقي اليوم يا آنسة ماك؟»

أجابت ماك بزهو: «بلى أفرغتها يا سيدتي. أعطيتُ البقايا لِأدا، وأحرقَتْها مع النفايات الأخرى، في محرقة الحديقة.»

أومأت الآنسة برأسِها دون تعليق، ولاذت بالصمت. وفيما علت دقَّات عامل البريد، استجمعت الآنسة ماك شجاعتها.

وسألت: «أيُمكنني الحصول على عصيدة على العشاء يا آنسة؟»

رفعت الآنسة حاجبَيها في دهشة، وأشارت بيدِها البيضاء إلى طبق السلطة.

وقالت: «هذا أفضل لصحَّتك. فهو يمدُّك بفيتامين سي، الضروري لنظامك الغذائي.»

ردَّت الآنسة ماك: «العصيدة أكثر إشباعًا يا آنسة.»

علَّقت الآنسة: «لكنك تزدادين بدانة. هل تقيسين وزنك كلَّ صباحٍ بعد الاغتسال؟»

طرفت الآنسة ماك بعينَيها؛ إذ باغتها السؤال. كان المِرحاض مثل زنزانة بدائية، ولعدم وجود غاز في المَبنى، كان توافر المياه الساخنة يعتمِد على نيران المطبخ، إلى جانب شبكة أنابيب معطوبة.

قالت كاذبة: «بلى يا آنسة»؛ إذ لم تجرؤ على الاعتراف بأنها لا تتحمَّم إلا مساء السبت، حين تكون الطاهية بالخارج، ومِن ثَم تستطيع أن تُشعل نيران الموقد بنفسها. وأعادت سؤالها: «أتسمحين لي بتناول العصيدة على العشاء؟ إنها وجبة رخيصة جدًّا.»

ردَّت الآنسة: «إن كنتِ تشتهينها حقًّا فلا مانع عندي بالطبع. المسألة ليست في التكلفة بل في صحَّتك.» كان صوت الآنسة أسبري حادًّا، لكن كانت عينا مُرافقتها الزرقاوان الصافيتان هادئتَين.

قرَّرت الآنسة ماك: «سأطلب بيضًا مسلوقًا في المرة القادمة. وفي المرة التي تليها سأطلب طعامًا لذيذًا بحق.»

هزَّت طَرقة ساعي البريد المنزل، وغادرت روز الغرفة في خيلاء. وعادت بعد هُنَيهة تحمل خطابًا على صينية تقديم من البيوتر، وقدَّمته للآنسة أسبري.

ظلَّ عقل الآنسة ماك مشغولًا بالسجق الشهي المُحتمَل أن يكون مصنوعًا من الدم؛ لذا لم تُراقب الآنسة أسبري بوفائها المُعتاد الذي يُشبه وفاء الكلب. لكنها عندما سمعت شهقتها الحادة، نظرت إليها ووجدتها تُحملق في رسالة مفتوحة.

كان ضِيقها واضحًا لا يخفى على أحد؛ إذ انتظرت أن تستعيد رباطة جأشها بالكامل، قبل أن تتحدَّث إلى خادمة الاستقبال.

قالت: «إذا سمحتِ يا روز، اذهبي إلى بيت القسيس، وأخبريه أنني أرغب في رؤيته على الفور.» بعد ذلك توجَّهت إلى الآنسة ماك بطلَب آخر. وقالت: «عندما يأتي القسيس، أحضريه إلى الرَّدهة من فضلك.»

تركت الآنسة ماك عشاءها الذي لم تنتهِ منه عن طِيب خاطر، وانتظرت في المدخل المسقوف المُظلم، مثل حارس صبور. لاح جسد القسيس الضخم في الشفق، وكان يسبق روز بعدة خطوات، رغم إسراعها للحاق به بقوامها الرشيق.

عندما نظر القسيس إلى وجه المرأة الضئيلة المُبتسِم دائمًا، نقلتْ إليه رسالة مخدومتها.

قالت: «الآنسة أسبري تنتظرك في الرَّدهة.»

اندفع القسيس مثل الإعصار إلى غرفة المعيشة التي كانت تُشبه غرفة الطعام بجدرانها المكسوة بالألواح وإضاءتها الخافتة. كانت هناك ستائر بنفسجية على النوافذ وبضعة كتب ووعاء يحتوي على زهور الليلك البيضاء، ولكن لم تكن هناك وسادة واحدة ولا سجادة ولا جريدة. كانت الآنسة تجلس على كنبةٍ من البلوط ذات مسندٍ طويل للظهر؛ وفور أن دلف القسيس إلى الغرفة أحسَّ وكأن قلب الآنسة أسبري لم ينعم بدفء خبرات الحياة ومباهجها قط.

بدت لعقله كأنها استعاضت عن مظاهر الدنيا القذرة بنقاء روحها. لهذا عظمت دهشته واشتدَّت عندما تحدثت إليه دون تحية.

قالت: «لقد أرسلتُ في طلبك أيها القسيس؛ لأنني استلمتُ خطابًا مجهولًا منذ قليل. هذا الخطاب يُهاجم أخلاقي الفاضلة. هلَّا تقرؤه إذا سمحت؟»

حملق بها القسيس في رُعب وعدم تصديق، ولأول مرة خانته الكلمات، لم يجد ما يقول.

قال أخيرًا: «لكن ... لكن ... هذا مستحيل.»

مدَّت آنسة أسبري يدَها بالخطاب، وقد سرَت في أصابعها رعشة خفيفة.

كرَّرت طلبَها: «اقرَأْه.»

رفض القسيس، وكان رفضه يستوجِب ثناءً أبديًّا؛ إذ كان الفضول يتملَّكه بقوة.

قال: «لا أريد. ربما ترغبين في أن أقرأه الليلة ثم تُغيِّرين رأيك بالغد.»

هزَّت الآنسة رأسها الأشيب المتلألئ.

وقالت: «لا أخشى على شيءٍ من الغد ولا مِن أحد. لكنْ بعد قراءة الخطاب، أصبحتُ أخاف من نفسي. إنه يثير شكوكي، ويجعلني أتساءل عما إذا كنتُ أعرف قلبي حقَّ المعرفة. لو كنتُ كاثوليكية رومانية، لأبرأتُ نفسي في كرسي الاعتراف. أما وقد تعذَّر ذلك، فلا سبيل أمامي إلا أن أطلب منك أن تقرأ الخطاب، وأن تمنحني الغفران إن أمكنك ذلك.»

قال القسيس: «سأقرؤه إن كان هذا ما تُريدينه حقًّا.»

وتناول الخطاب بخفَّة بعدما أعرب عن اعتراضه. كان الخطاب مكتوبًا بأحرفٍ كبيرة على ورق ذي جودة مُمتازة بلغةٍ سليمة خالية من الأخطاء الإملائية. وبدأ بجملة: «نصَّبتِ نفسكِ حكمًا على النساء التعيسات الحظ اللَّاتي أنقذتِهنَّ من الانحطاط، على غير رغبةٍ منهنَّ على الأرجح، لكن هل ترَينَ نفسك أعلى شأنًا من أحطهنَّ قدرًا؟» واستمر الخطاب على هذا المنوال، واكتسى كل سطرٍ من سطوره بالتلميحات اللزجة، كأن بزاقة زحفت على صفحاته.

انفعل القسيس أكثر من مرة بينما كان يقرأ الخطاب، وعندما انتهى سحَقَه بين أصابعه القوية بغضب، وألقى به على الأرض.

صاح: «ما أحقره! أي خطاب مجهول مِثل طعنة في الظهر، لكن هذا تحديدًا قد بلغ أعلى درجات الشناعة ... أخبريني، يا آنسة أسبري، هل لديكِ أي شكوكٍ بشأن هوية كاتب الخطاب؟»

أجابت: «لا. إلى جانب أن الكاتب لا يُهمني. ما يُهمني حقًّا هو أن أعرف رأيك فيَّ.»

تصرف القسيس دون سابق تفكيرٍ وفقًا لطبيعته المُتسرعة. وفي هذا الموقف تحديدًا، وثَبَتْ عضلاته لتُطيع غريزته، من قبل أن يُعمل عقله، وخرجت منه إيماءة مسرحية غير مُتعمدة. فانحنى متناولًا يد الآنسة النحيلة البيضاء، وقبَّلها في احترام صامت.

وقبل أن يتملَّكه الخجل من فعلتِه، حاز على مكافأته بالدموع المُتلألئة التي ترقرقت في عينَي الآنسة.

قال: «هذا ما أعتقده. لكني أومِن أيضًا أن شخصًا فاسد الطوية يغار منكِ.»

أحدث الباب صريرًا خافتًا وهو ينفرج انفراجةً صغيرة، فرفع القسيس رأسه بحدَّة، وتناول الخطاب من الأرض. وسرعان ما نظر في اتجاه الآنسة ماك، التي كانت تجلس في زاوية الحائط في انتباه، وباغتَها بسؤال.

قال: «كيف تتهجَّين كلمة «حكَمًا» يا آنسة ماك؟»

فتهجت الكلمة كما توقَّع تمامًا.

تمتم قائلًا: «بالضبط! أشكرك.» والتفت إلى الآنسة. وقال: «هذا الخطاب كتبه شخصٌ مُتعلم. والآن ماذا تودِّين منِّي أن أفعل تحديدًا؟ هل أحاول أن أتتبَّعه حتى أصل إلى صاحبه؟»

سألت: «أيُمكنك ذلك؟ فالمُرسِل مجهول.»

أجاب: «ليست لديَّ أدنى فكرة. لكن لديَّ صديق، عاطل عن العمل، ومهووس بالألغاز. وسيستمتع بحلِّ هذا اللُّغز أيما استمتاع.»

كان رد فعل الآنسة أن أعادت الخطاب إلى الصينية، وأشعلت النار في طرفه بعود ثقاب.

قالت: «هذا ما سأفعله بالخطاب. لقد عادت لي راحة البال مرة أخرى.»

وبينما كانت تشاهد الورق يشتعل ويستحيل إلى رمادٍ، سكنت ملامحها واختفى التوتر من عينيها.

لكن القسيس انتابه فجأة شعور غامض بشرٍّ مُحدق مزَّقه شرَّ مُمزَّق. فالتقط الظرف الذي بدأ يحترق بلا تفكير، وأطفأ الرقعة التي اشتعلت فيها النار بإصبعيه.

سألها: «أيُمكنني الاحتفاظ بهذا الخطاب؟ لعلَّه يُفيدنا في المستقبل في حالة إرسال خطاب آخر.»

ترددت الآنسة ثم أومأت برأسها الشامخ.

قالت: «بالطبع. لكني واثقة أن المسألة انتهت ... أشكرك على قدومك. تصبح على خير.»

سارت الآنسة ماك بخطوات سريعة إلى حدٍّ ما إلى باب الغرفة، وفتحته، كي تُفهم القسيس أن عليه المغادرة. تباطأ القسيس لا يدري هل يُعيد إنجازه ويُقبِّل يد السيدة المُغتمَّة مودعًا أم لا. لكنها بدت أنها نسيت وجوده؛ لذا استجاب لتلميح الآنسة ماك، ورحل.

حمل القسيس معه ذكرى وجه الآنسة أسبري، وهو يتلألأ بشحوبٍ وسط الجدران الخشبية القاتمة، وأحسَّ كأنها أُودِعت في ضريح، وبدأت تتلاشى في سرمدية القداسة الباهتة.

جرَّ القسيس ساقيه إلى بيته، وكان مُثقل الفؤاد فزِعًا من مجرد احتمالية أن قريته المثالية تئوي عقلًا خبيثًا مسمومًا. لكنه عندما استدعى إلى ذاكرته كل فردٍ من أفراد دائرته الاجتماعية المحدودة، وجد نفسه يهز رأسه ويشدُّ كتفَيه، كأنه قد نفض عبئًا من عليهما.

لا أحد من معارفه كان يستطيع الإتيان بهذا الفعل. كان يرى أن الخطاب قد كتبه شخص عديم الاتزان كان يعرف الآنسة أسبري في الماضي ويُضمِر لها ضغينة. وبدا أن وجود ختم بريد القرية على الظرف لا يحمِل أي أهمية؛ لأن الحصول عليه بطريق الاحتيال أمر سهل.

عندما دخل القسيس غرفة مكتبه البهيجة، كانت زجاجة الويسكي على الطاولة والراديو مُفتوحًا. كانت الأجزاء الأساسية من كلب سبانيل بدين، يدعى تشارلز، على اسم «تشارلز ديكينز»، مُتكتلة في حجر الطبيب، وبدا من نظرات الكلب الذكية أنه كان يساعد ضيفهما في حلِّ أحجية شطرنج في الجريدة المسائية.

سأل الطبيب بيري بلهفة: «خيرًا؟»

كرَّر القسيس: «خيرًا»، وكان يسير إلى الطاولة، ويتناول العديد من الزجاجات ليقدِّم واجب الضيافة لزائره. «أتريد صودا أم ماءً عاديًّا يا دكتور؟ أخبِرني حين تريد أن أتوقَّف عن الصب.»

عضَّ الطبيب بيري على شفتَيه، وشدَّ أذنَي تشارلز الناعمتَين ليحظى ببعض الدعم المعنوي، قبل أن يُكرر سؤاله.

أجاب: «خيرًا؟ هل كان الأمر مُهمًّا للدرجة؟»

ضحك القسيس وهو يُفتش في إحدى الخزانات عن وعاء البسكويت.

ثم أجاب: «لا شيء. كانت تشعر ببعض الضيق. هذا كل ما في الأمر.»

قال الطبيب بهدوء: «حسنًا. هذا كل ما في الأمر.» وأخذ كأسه. وقال: «أشكرك. في صحتك.»

أسِفَ القسيس لأنه لم يُشبع فضول الطبيب، لكنه كان يحمي سرَّ كرسي الاعتراف. والتفت إلى كلبه الذي أبدى كل علامات الجوع الشديد فور رؤيته للبسكويت.

قال القسيس وهو يقذف له بقطعةٍ من البسكويت الهش: «تفضل يا تشارلز. يا لك من وغدٍ شرِه، لكنكَ تعلم أن سيدك الساذج المسكين لن يُطيق رؤية أنفك يسيل وعينَيك تدمعان. لكن لن يفيد صديقنا الطبيب أن يُحاول إثارة شفقتنا، أليس كذلك يا تشارلز؟ فليس لدينا شيء له. بالمناسبة يا دكتور، فضلًا لا تُخبر أحدًا بأن الآنسة أسبري أرسلت في طلبي هذا المساء.»

ضحك الطبيب بيري بتهكُّم وقال: «أتفهَّم قصدك تمامًا. تجعلني أتذوَّق من نفس الكأس؛ لأن الطبيب يجِب ألا يكشِف أسرار مرضاه ... لن أرغب منك يا أبتِ العزيز أن تخون ثقة أحد مَهما كان الثمن. ليس هناك مَن أحترمه أكثر من الآنسة أسبري وإن كنتُ لا أُحبها كثيرًا. أشعر بالأسف لأنها تعرَّضت للمُضايقة.»

سأل القسيس: «كيف عرفتَ أنها تعرَّضت للمضايقة؟»

أجاب: «لا أعرف؛ لذا من الطبيعي أن ينشغل عقلي بكل الفرضيَّات المُستحيلة السخيفة ... حسنًا، يجدُر بي العودة إلى المنزل، لأتأكد أن زوجتي كما تركتُها.»

تفقد الطبيب بيري الساعة الجدارية، وأفرغ ما تبقَّى من الويسكي في فمه، ونهض من مقعده ليُغادر.

قال وهو يربِّت على رأس تشارلز: «إلى اللقاء يا أبتِ. تروقني سياستك الرائعة في التزام الصمت، ولا أكِنُّ لك أي ضغينة.»

فغر القسيس فاه دهشةً عندما أضاف الطبيب: «لكن أعترف أنني كنتُ سأُحب أن أسمع منكَ كيف دافعتِ الآنسة أسبري القديسة عن شرفِها.»

الفصل الخامس

# الخوف يطرق الأبواب

عندما صرحت الآنسة أسبري بأن المسألة قد انتهت، لم تكن تعلَم أن خادمة الاستقبال كانت تسترق السمع من وراء الباب. فقد تلكَّأت روز في البهو، لا لتُشبع فضولها فحسب، وإنما لتُحذِّر من أي مضايقة قد تُهدد سيدتها.

كان لدى روز شهادة من زوجة أحد الأساقفة، تُثبت وفاءها وكتمانها للأسرار، كما أنها لم تُكرر أي كلمةٍ فعلية مما بلغ مسامعها. لكن، مِثل الذي يحمل الميكروب دون أن يدري، حرَّرت السمَّ الذي في جسمِها بتسريبه رويدًا رويدًا. فبطريقة أو أخرى، نقلت فحوى الكلام للطاهية، التي نقلته بدورها إلى أدا الجميلة، في صورة تلميح. وعلى الفور أضافت أدا إلى هذا التلميح فصار همسة، ثم نقلتها إلى سائق عمدة القرية.

وفي غضون أربع وعشرين ساعة، من خلال التواصُل القروي اللاسلكي، انتشرت شائعة تعرُّض أخلاق الآنسة أسبري للهجوم، عَبر خطابٍ مجهول الهوية، من شخصٍ فاسد الطوية يشعُر بالغيرة منها.

كانت الآنسة كورنر تجلس مُتربعة في مكتبتها، تُدخن السجائر وتقرأ، عندما أخبرتها مدبرة منزلها وطاهيتها بأمر الخطاب. كانت الروائية على علاقة طيبة بالعامِلين لديها؛ إذ كانت تأخذ راحتهم بعين الاعتبار؛ في الحقيقة، كان هناك استياء عام بين أهل القرية من أن حمَّام العامِلين لديها يفوق حمَّام الآنسة أسبري بكثير.

لم تُحقق قصة مدبرة المنزل أثرها المطلوب في نفس الآنسة كورنر؛ إذ كانت لا تزال مسحورة بكتاب «باث» للشاعرة الإنجليزية إديث سيتول. ربما كانت تبيع خمرًا رخيصًا منزليَّ الصُّنع إلى جانب قصصها الرومانسية التافهة وقصصها المُراهقة السخيفة، لكنها تستطيع تمييز التبر من التراب، وأرفُف مكتبتها خيرُ دليل على ذوقها الأدبي الانتقائي.

كانت الآنسة كورنر تنفُث دخان سيجارتها في تجهُّم، وهي تُنصت إلى حكاية مدبرة منزلها دون تركيز، فيما فضح تقلُّص بؤبؤ عينِها أنها لا تزال عالقةً في القرن الثامن عشر، وأن عقلَها لا يزال شِبه مُغيَّب من لذة لُغته البديعة.

«قماش خشن خمري اللون، الشَّلون، الراتين، السَّالبين.» طافت الجُملة في ذهنها مثل نفحةٍ مراوغة من أريج زهرة البليحاء العطرية حملتها نسمةٌ صيفية تلاشت.

فطنت السيدة بايك مدبرة المنزل، أن قصتها لم تنجح في إثارة فضول الآنسة، فطفقت تعتذِر عن ذلك.

قالت: «بالطبع، يا سيدتي، لا نعرف كل ما ورد في الخطاب. ثِقي أن ما وصل إلينا هو غيض من فيض.»

علقت الآنسة كورنر: «في كل حكايةٍ جزء نرويه نحن، وجزء ثانٍ يرويه الآخرون، وجزء ثالث يحمل الحقيقة. ادمجي كل هذا معًا يا سيدة بايك، وانظُري إلامَ ستئول الحكاية.»

أشفقت الآنسة على السيدة بارك لما لاحظَتْه عليها من حيرة، فغيَّرت الموضوع.

قالت: «سأُقيم حفل شاي صغيرًا بعد ظهر اليوم. أعدِّي أفخر أنواع الشاي حفاظًا على المظهر فحسب؛ إذ لن يتناوله أحد. أنتظر قدوم السيدة زوجة العمدة، والسيدة سكودامور، وليدي دارسي.»

علقت السيدة بايك وهي تُخرِج دفتر ملاحظتها: «على أي حال، سيكون لديك موضوع للنقاش، على سبيل التغيير.»

في الواقع، بدا أن واقعة الخطاب المجهول ما جاءت إلا لتُثبت أن شريان حياة هذا المجتمع الصغير لا يزال سليمًا معافًى لا يسمح بدخول أيِّ عدوى. فقد تلقَّى أفراد المجتمع الخطاب إما برفع حواجبهم تعبيرًا عن عدم تصديقِهم بشكلٍ مُهذب، وإما بنوباتٍ من الضحك الشافي. ولكن حتى في هذه المرحلة المبكرة، كانت بعض الأحداث تُشير إلى أن مجتمع القرية ليس مُحصَّنًا ضد السموم الخبيثة، ولكنه فقط يُقاومها.

كان الطبيب بيري يقود سيارته متوجهًا لزيارة مريض بالبلدة، عندما قابل عند مُفترق الطرق فيفيان ابنة عمدة القرية التي كانت تقود «بيبي أوستن». لم يكونا صديقَين مُقرَّبين، لكن كانت سيارتاهما تُصرَّان دائمًا على التعطُّل لتوطيد العلاقات بينهما، فما كان من مالكيهما إلا استغلال الموقف على أفضل نحوٍ مُمكن.

أوضح الطبيب في عجالة: «أنا أبرِّد مُحركي. فلقد تجاوزت حدود السرعة. كيف حال سيارتك الصغيرة؟»

ردَّت فيفيان بتفاخُر: «على أحسن ما يكون. لكن لا يُوجَد بها وقود كافٍ.» وبدأت تُثرثر كأنما ومض في إدراكها أنها تحت رحمة السيارة ولا بدَّ لها من انتظارها حتى ترضى.

سألتْ: «أسمِعتَ عن الخطاب المجهول المرسَل للآنسة أسبري؟»

كان الطبيب لا يعرف شيئًا عن الخطاب؛ لكن بينما كان يُنصت إلى فيفيان لمعت عيناه بالفضول الذي تحوَّل إلى الاستياء. كانت هذه مهمة القسيس السريَّة إذن. لقد كان حاضرًا بنفسه مولد تسلسلٍ غامض من الأحداث البشرية، واستُبعِد وتُرك وحيدًا.

لكن القسيس، حسبما بدا، لم يُضِع الوقت ونشر القصة على الفور. وتبيَّن للطبيب أن سياسة الصمت الرائعة للقسيس ليست سوى محض تظاهر.

حدَّث نفسه في ازدراء، عندما سئمت إحدى السيارتَين من الأخرى فجأةً واتفقتا على الدوران، قائلًا: «هذا الشخص تسمع منه الجعجعة ولا ترى الطحين.»

بعد مرور ساعة، الْتقى الطبيب بيري بالقسيس الذي كان يمشي متثاقلًا بمعدَّات الصيد، وحيَّاه بفتور. كان لا يزال به أثر الاشمئزاز، في حين كان القسيس فزِعًا من شكوكه الحقيرة؛ إذ ظلَّ ذهنه مشغولًا بتعليق الطبيب بيري الأخير. «كيف علم الطبيب أن الخطاب شكَّك في أخلاق الآنسة أسبري الحميدة؟»

تحدث الرجلان عن صيد السمك بذبابة الصيد الصناعيَّة دون أن يتطرَّقا إلى مسألة الخطاب. وعرض الطبيب أن يُقلَّ القسيس في سيارته لكنه رفض. لقد انتشر بعض السمِّ في القرية.

كما أُثير الموضوع في منزل «ذا هول»، حيث كانت الليدي دارسي تتناول الغداء مع عائلة عمدة القرية. كانت زوجة العمدة الشابَّة الشقراء — التي تميل إلى البدانة، ولكنها تمتعت بسماحة نفس وإيثار — ذات طابع إنساني بما يكفي ليُثير الخطاب حماسها بعض الشيء.

فسألت بحماسةِ فتاةٍ مراهقة: «أتساءل عمَّن كتبَه.»

شدَّ زوجها شفتَه السُّفلى في ارتياب، وانساقت ليدي دارسي الغامضة إلى المحادثة بلا تفكير؛ فلم يُبالِغ القسيس حين تفاخر بأن هذه القرية تكاد تكون خاليةً من رذيلة الفضائح.

قالت ليدي دارسي بصوت رقيق جدًّا: «ليس واحدًا منَّا»، وغيَّرت الموضوع.

بدا كلامها بلا شائبة تشوبه، لكن العمدة قطَّب حاجبَيه، وشدَّ شفتَه مرة أخرى، وغرق في التفكير. لم تكن القرية تُرحِّب بأي ساكنٍ لم يقطن بها خمسة عشر عامًا على الأقل. هذا دون حساب المُرافقين والمُربيات بلا شك، بينما تسللت زوجة الطبيب بيري إلى القرية تحت جناح زوجها.

لم يتبقَّ إذن سوى عائلة مارتن، مُلَّاك «ذا تاورز» الأثرياء الغائبون، وروائية القرية.

استفاقت الآنسة جوليا كورنر تمامًا من استغراقها في «باث»، وعادت إلى شخصيتها الودودة المُعتادة، عندما أدَّت دور المُضيفة في حفل الشاي ببيتها. كانت ترتدي بلوزة بيضاء تقليدية من الموسلين، ذات أكمامٍ قصيرة صبيانية وياقة دائرية. وأحاط بعُنقها البدين عقدٌ من حبَّات المرجان، وقصَّت شعر غرَّتها الأشيب حديثًا. حركت الآنسة إبريق الشاي حركة مسرحية خطيرة، وهي تبتسِم مبتهجة لضيفتَيها اللتَين كانتا من جيلٍ أكثر شبابًا.

بسبب سلسلةٍ غريبة من سوء الحظ، أرسلت زوجة عمدة القرية وليدي دارسي نائبتَين عنهما إلى الحفل. فقد ثارت زوجة العمدة الطيبة على زوجها، عندما ادَّعت إصابتها بصداع يكاد يفلق رأسها، وأصرَّت على ذهاب فيفيان مكانها. أما ليدي دارسي الغامضة التي كانت عملية بما يكفي لاستغلال الآخرين، فطلبت من جوان أن تُبلغها اعتذارها عن الحضور.

كانت قدرات جوان الإبداعية على القدْر نفسه من التحدِّي، وتحمَّست للبقاء؛ فهي وإن اكتسبت احترامًا للفن في تشيلسي، إلا أنها كانت ترتد على أعقابها إذا ما تعلق الأمر بمنزل الآنسة كورنر المريح.

امتاز بيت الآنسة بمحطة كهرباء خاصة، مكَّنت الروائية من إشباع شغفها بالإضاءة الساطعة، إلى جانب نظام تدفئة مركزية مثالي. وإن كانت الواجهة الخارجية للبيت قديمة، لتألُّفها من نُتف حظائر على طراز القرن الرابع عشر، لكن تصميمه الداخلي كان عصريًّا تمامًا بالأدراج والخزانات المدمجة والأثاث المعدني غير التقليدي، والستائر المطاطية المُغطاة بالألومنيوم ومصابيح كهربائية على هيئة كواكب. وبدلًا من الصور وُضِعت مرايا كثيرة.

فسَّرت الآنسة كورنر: «أُحب رؤية مَثيلات لي. هؤلاء الفتيات البدينات رفيقاتي. ألا يقول المثل إن الفتاة البدينة تستطيع أن تُحب وإن لم يُحبها أحد؟»

ابتسمت فيفيان ابتسامةً مهذبة مُتكلفة؛ إذ لم تكن على راحتها تمامًا. كانت فيفيان فتاة جميلة، شعرها أشقر وعيناها فيروزيتان، وبشرتها ذات لونٍ جذاب. ومثل غالبية فتيات القرية، كانت رقيقةً بما أوحى أنها نشأت في صندوقٍ زجاجي، حتى إن جوان بدت، مقارنةً بها، مثل ثمرة تفاح وردية طبيعية وضعت بجوار ثمرةٍ من خوخ الدفيئة.

بدا أنهما في العمر نفسه، لكنَّ فيفيان، في واقع الأمر، لم تكن تملك روح الشباب نظرًا لنشأتها الريفية المُنغلقة.

رفعت فيفيان حاجبَيها الرقيقَين عندما بدأت جوان تتحدَّث عن الخطاب المجهول.

سألت جوان: «ما رأيك في الأمر يا آنسة كورنر؟»

أجابت: «إنه مُثير. يقال إن كاتب الخطاب المجهول هو المجرم الوحيد المُثير للفضول حقًّا.»

قالت فيفيان: «أرى الأمر مُثيرًا للاشمئزاز. ولا سيما إرساله للآنسة أسبري من بين كل الناس.»

سألت الآنسة كورنر: «لِمَ يجب استثناؤها؟ هي ليست قدِّيسة، أليس كذلك؟»

ردَّت فيفيان: «لا، ليست قديسة. لكنها كائن في غاية ... في غاية الروحانية. وأنا أُكنُّ لها الكثير من الحُب. لا بد أن هالة زرقاء أو بنفسجية تُحيط بها. على أي حال، أنا واثقة أن لها تأثيرًا إيجابيًّا على الغَير. في كل مرة أذهب إلى قصر «سباوت» أشعر أنني في سلام تام.»

ولَّما كان من الصعب الربط بين فيفيان وبين أي نوعٍ من المشاعر، لم يحرك كلامها أي شيء في نفس جوان أو الآنسة كورنر.

قالت الروائية: «أنتِ محظوظة. ليتني أستطيع قول المِثل بشأنها. فأنا أشعر أنها تفرغ عقلي من الأفكار وتُصيبني بالكآبة والبؤس دائمًا. في الحقيقة، عندما أكون في مرحلة نضوج العمل الأدبي، لا أجرؤ على الاقتراب من منزلها المُتهالك أبدًا.»

كرَّرت فيفيان بنبرة مُعاتبة: «متهالك؟ منزل الآنسة أسبري وأثاثها نموذج مثالي للعصر التيودوري.»

ردَّت الآنسة كورنر: «أتفق معك، وأنا لا أجلس في القرن السادس عشر. صحيح أن الطبيعة قد تكرَّمت وزوَّدتني بالبطانة اللازمة من الشحم واللحم، لكن ليس من العدل أن ننتظِر من الضيوف أن يُحضروا معهم وسائدهم ... لكن الآنسة بروك ليس لدَيها ما تتناوله.»

توقفت الآنسة كورنر عن الكلام لتُقدِّم لجوان مجموعة مختارة من الكعكات.

قالت: «هذه المُعجنات الهشَّة لذيذة، لكن ليس من الآمِن تناولها بلا صحن. فهي من النوع المخادع الذي يقذف القشدة في عينَيك. تفضَّلي الصحن وفوطة المائدة يا عزيزتي. لستُ من الطبقة الراقية الساديَّة التي تُغري الفتيات البريئات بتناول البرتقال على الملأ ... همم. لقد تأخرت السيدة سكودامور.»

نظرت الروائية إلى الساعة الجدارية، وصبَّت لنفسها كوبًا آخر من الشاي، فيما غرقت في التفكير، وضاق بؤبؤ عينَيها حتى صار كأنه ثقب إبرة.

قالت: «لنعُدْ إلى موضوع الآنسة أسبري. هل لاحظت إحداكما أنها قوية على غير العادة مع أنها تبدو كأن هبَّة ريحٍ ستقذفها بعيدًا؟ كما أن عقلها لا يزال حادًّا مثل أسنان حيوان الغرير ... في بعض الأحيان أتساءل عما إذا كانت تستمِدُّ مخزونها الاحتياطي من الطاقة من الآخرين بالنظر إلى أنها تتقدم في العمر. عندما قدمتُ إلى هنا أوَّل مرة، لم ألحَظ تأثيرها عليَّ، ومن الغريب أن قواها لا تضعف بتقدُّمها في السنِّ فيما يبدو. أتعرفان يا فتاتيَّ أن هناك أشخاصًا لديهم القدرة على استنزاف طاقتك؟»

احمرَّ وجه فيفيان الذي يُشبه الوردة وسألت: «أتقصدين مصَّاصي دماء من البشر؟ ما أشنعه من وصفٍ للآنسة أسبري!»

أسرعت جوان تُغيِّر الموضوع.

قالت: «أتساءل لِمَ لا تقتنين حيوانًا أليفًا يا آنسة كورنر. فالقطط والكلاب رفقاء أفضل من المرايا.»

ردَّت الروائية بحُزنٍ: «ليتني أستطيع. لكنني أعيش بمفردي.»

قالت جوان: «هذا سببُ اقتراحي.»

عقَّبت الآنسة: «وهو نفس سبب رفضي. إذا حدث لي شيء، فماذا سيكون مصيرها؟ إن عشقي للحيوانات يمنعني من تعريضها للخطر.»

لم تلحظ جوان لمحة الحزن التي غشَّت عيني الروائية؛ لانشغالها بالتأمُّل في الشريط الأزرق الغامق الصغير جدًّا على صدر الآنسة الأبيض العريض.

سألتها: «أهذا وسام الامتناع عن شُرب الخمر؟»

أجابت الروائية: «أجل. أرتدِيه كي أُعلِم الآخرين أنني لا أشرب الخمر ... في الأماكن العامة.»

ضحكت جوان مع مُضيفتها؛ لأنها تذكَّرت قصة صديقتها السخيفة.

قالت جوان: «أرى أن الخطاب المُرسَل للآنسة أسبري ليس إلا دعابة سمجة سخيفة. ولو أتبعه المرسِل بآخر، فسيكون من نصيبك على الأرجح، وستُتَّهمين بشُرب الخمر في السر.»

ابتسمت الآنسة كورنر ابتسامة عريضة وقالت: «لكنني أشرب الخمر في السِّر. كل ما هنالك أن لا أحد في القرية لدَيه أي حسٍّ فكاهي عدا الطبيب.»

هتفت فيفيان في ذهول: «دكتور بيري؟ إنه صامت دائمًا.»

«بالضبط. احذري من الكلب الذي لا ينبح. أتعلَمين أنه يُحبني في السر؟ هناك مَن يُحب الفتيات البدينات في نهاية المطاف ... هذه هي إشارتنا السرية.»

وتناولت كوبَ شاي فارغًا أسودَ مطليًّا بالذهب، واتجهت نحو إحدى النوافذ الصغيرة، ووضعته على إطارها المفتوح.

كانت جوان ترى الروائية مُثيرة للشفقة من منطلق السفاهة والغطرسة المعهودين للشباب. وكانت الروائية تُشفق عليها من واقع خبرتها التي تمنحها أفضلية مضمونة. حدثت الآنسة كورنر نفسها: «لا جمال ولا مال ولا موهبة. إن فازت بِحُب القسيس فقد نجت. وإن لم تفعلْ فليُعِنْها الرب.»

تهلَّل وجه الروائية في ترحاب كعادتها، عندما أعلنت ماي خادمتها الوفية الغبية، وصول السيدة سكودامور.

دخلت السيدة الرفيعة الشأن بهيبتها المُعتادة، وتركت بصمتها المُميزة على الحاضرين. كانت ترتدي رداءً ومعطفًا قصيرًا من موضة العام السابق من الدانتيل الرمادي، وبدتْ تمامًا كامرأة إنجليزية في منتصف عمرها، وأدقَّ مثالٍ على المرأة الإنجليزية في القارة الأوروبية.

كانت ملامحها الجميلة كبيرة نسبيًّا، وكان شعرها كثيفًا وغير مُصفَّف بشكلٍ عصري أنيق.

لكن الجميع أظهروا احترامًا عفويًّا لروح القرية. فاعتدلت جوان في جلستها على الفور، بعد أن كانت تجلس مُسترخية في مقعدها مُمدِّدة ساقَيها، وتنفَّست فيفيان الصعداء، كأنها تُرحب بوجود داعم أخلاقي، في حين همست الآنسة كورنر إلى ماي قائلة: «أحضري إبريق شايٍ جديدًا.»

كانت السيدة سكودامور في غاية اللطف مع الجميع. وفور أن رشفت الشاي، وأحبطت محاولة إحدى الكعكات الغادرة للسقوط على الأرض — بعدما رفضت أن تحمِل صحنًا — خاطبت جوان مبتسمةً.

سألتها السيدة سكودامور: «ما الذي كان يُضحكك عند وصولي؟ كان صوتك يبدو في غاية البهجة.»

ردَّت جوان: «أظن أننا كنَّا نتحدث عن الخطاب المجهول المرسَل للآنسة أسبري.»

كررت السيدة كلامها: «خطاب مجهول؟ هنا؟ ... يا إلهي.»

ندَّت عن السيدة سكودامور صرخة خافتة. وارتكبت — وهي المِثال على السلوك الرفيع — تلك المُخالفة التي لا تُغتفر وسكبت الشاي على الأرض. كانت الكارثة مُكتملة الأركان؛ إذ أوقعت كلًّا من الكوب والصحن الخزفِيَّين، فتحطَّما وابتلَّت السجادة الفارسية الجميلة ذات اللونَين الذهبي والأزرق.

أظهرت الآنسة كورنر سماحةً بالغة، وأخفت مشاعرها الطبيعية تحت قناعٍ من الضحك مراعاة لشعور السيدة. وفور انتهاء عمليات التنظيف، استعادت السيدة سكودامور رباطة جأشها واستفسرت عن الخطاب المُرسَل إلى الآنسة أسبري.»

علَّقت السيدة: «يا لشناعته! إنه يكشف سوء طويَّة مُرسِله. لكنه غير معقول بالمرَّة. اتهام بالفسوق للآنسة أسبري من بين كلِّ الناس. وفي هذه السن.»

صاحت الآنسة كورنر: «لا دخل للسنِّ في الأمر. أنا في الخامسة والخمسين، ولا أُمانع أن أفعل أي شيءٍ في سبيل تجربةٍ أدبية.»

لاحظت جوان النظرة الخاطفة العفوية التي تبادلتها السيدة سكودامور مع فيفيان.

وقالت في نفسها: «ليتكِ لم تقولي ذلك.»

زادت الآنسة كورنر الطين بلَّة، دون أن تُدرك ضرورة الحذَر في كلامها.

وقالت: «لا أفهم حقًّا سبب كل هذا التقديس السخيف للآنسة أسبري. فقد كنتُ في نفس مدرستها كما تعلمون. بالتأكيد كنتُ أصغر منها سنًّا بكثير؛ لأنها الآن في الرابعة والستين. ومع ذلك، كنت روائيةً صغيرة، باستثناء أن أعمالي كانت أكثر نضجًا من رواية ديزي أشفور «الزوار الصغار». كانت ديسيما إحدى الفتيات البارزات، ذات ضفائر طويلة شقراء، لكني عرفتُ قدْرها الحقيقي.»

تمتمت فيفيان: «جدائل شقراء. لا بد أنها كانت تُشبه مارجريت.»

استطردت الآنسة كورنر: «تُشبه مارجريت في شكلِها لا في شجاعتها. ولا أرى أنها حقَّقت نجاحًا في حياتها. فقد تخلَّت عن وظيفتها وهي لا تزال امرأةً شابة. على الأقل لم أتخلَّ عن وظيفتي مِثلها.»

انزعجت الآنسة من عدم تجاوب ضيوفها معها — إذ بدت جوان نفسها مُستغرقة في التفكير — فطفقت تتباهى بنفسها.

قالت: «ربما أكون شديدة الزهو بعملي، لكني كنت — ولا أزال — أبث البهجة في قلوب الآخرين. أما الآنسة أسبري، فكل ما تفعله هو أن تجرَّ الفتيات البائسات إلى بيوت الشباب التي تُديرها، وتملأ بطونهنَّ بالخبز الناشف والزبد، وتجعلهنَّ يُنظفنَ الأرضيات ويُنشدن التراتيل.»

ولوَّحت بنظارتها بقوة أمام ضيوفها.

وأضافت في تفاخُر: «لا أظن أن أحدًا يُدرك حجم رسائل المُعجبين التي تصِلني. فالفتيان — أُحب الفتيان — يكتبون لي ويتوسَّلون أن أكتب المزيد من مغامرات جوي. «عزيزتي الآنسة كورنر، لا أطيق انتظار الحلقة التالية. أنتِ لا تعلمين مدى إعجابي بشخصية سام الشقي.» أو «من فضلك، من فضلك، عزيزتي الآنسة كورنر، حدِّثيني أكثر عن جيمي. فأنا أُحبه حبًّا جمًّا.» هذه هي مكافأتي، وأدعو الربَّ أن أظلَّ أكتب حتى آخر يوم في حياتي.»

كانت جوان ترى أن الرسائل أشبَهَ بهذيان فتيات مُراهقات وشعرت بالذنب لعدم وفائها لمخدومتها، عندما دوَّى بوق سيارة، فغمزت لها الآنسة كورنر غمزةً تآمُرية. سارت الآنسة إلى النافذة، غير خجِلةٍ من نظرة سكودامور المندهشة، وأزالت الإشارة السرية.

بعد مرور دقيقتَين، دخل الطبيب بيري الغرفة، واستقبلته الآنسة كورنر بكوبٍ مُمتلئ عن آخره بالشاي.

قالت: «تفضَّل شايك الصيني الخفيف. لا عليكَ. إن عشتُ فسأجعلك تحب الشاي الهندي القوي.»

أمعن الطبيب النظر في الآنسة كورنر، قبل أن يتَّخذ مجلسه بجانب جوان التي شعرت بالغبطة في قرارة نفسها. فمع أنها اختارت القسيس زوجًا لها، كانت تَعتبِر الطبيب الرجل الأكثر إثارة للفضول في القرية. ومع أنه كان يبدو رجلًا عاديًّا ليس به شيء مُميز، لكنها كانت تدرك عجزها عن فهمه.

همست جوان: «كنَّا نتحدث بشأنه.»

ندَّت عن الطبيب ضحكة خفيفة وسأل: «بشأنه؟ أتقصدين الخطاب الشهير أو بالأحرى الخطاب السيئ السمعة ... مَن أخبرك بأمره؟»

أجابت: «القسيس.»

هتف: «القسيس بالطبع. حارس الأسرار المُحترف. هل من سخافةٍ أبلغ من هذا؟»

لاحظت جوان أنه لم يُعِرْها سوى النزر اليسير من انتباهه؛ إذ ظلَّت عيناه على الآنسة كورنر. واتضح من ابتسامة الروائية المُتفهمة أنه على علاقة قوية بها. كانت جوان تعلم

من خبرتها الواسعة أن قوانين الجذب غير قابلة للتفسير، ومع ذلك كان وجه الآنسة كورنر، الباسم المُتورد خجلًا، يُذكِّرها بقوةٍ بفخذ الضأن في رواية «أليس عَبر المرآة»، حتى إنها استبعدت احتمالية وجود علاقة عاطفية، ورجَّحت وجود دافع أقبح.

حدَّثت نفسها: «الآنسة كورنر عانس غنية. لنقُل إن الطبيب يتملَّقها لتترك له ما لدَيها من مال. يا إلهي. أنا لا أَقِلُّ سوءًا عن بيرلي.»

لكنها كانت تعلم أن صديقتها ستذهب بافتراضاتها الميلودرامية إلى حدودٍ أبعد، واقشعر بدنها عندما جفل ذهنها من فكرة فظيعة.

«المُسمِّم عذب الابتسامة.»

وانتزعت الفكرة من عقلِها نزعًا.

وفكرت في ندم: «بشِعة أنا. هذا خطأ بيرلي. هي من بدأت الأمر، والآن صارت الشكوك كأنما تنتشِر في الجو.»

عادت جوان إلى رشدها، وأنصتت إلى السيدة سكودامور، التي كانت عيناها الواسعتان الوديعتان كشَّافَين، يسقط ضوءُهما على وجوه أتباعها كي تضمَن انتباههم.

لَمَّحت السيدة في كلامها بلُطف: «بالطبع لن أُشير إلى الخطاب في المرة القادمة التي ألتقي فيها بالآنسة أسبري. سيؤكد لها سكوتي تعاطفي التام معها. ستشعُر بالإهانة لو ظنَّت أنني فكرت في هذا الافتراء الخبيث والسخيف للحظة.»

كانت ابتسامتها المُطمئنَّة تَتِمَّةً غير منطوقة لخطابها القصير. قالت: «أظنكم تعرفون جميعًا كيف تتصرفون.»

تورَّد وجه فيفيان الأبيض وتحدثت بسرعة بالِغة: «أجل. هلا نتعاهد إذا سمع أحدنا شيئًا عن الآخر ألَّا يُصدق ما سمعه؟»

حملق الجميع في وجه فيفيان، مصعوقين من اقتراحها العفوي؛ إذ بدت كلماتها تلميحًا إلى وجود مُستنقعات من الأسرار. ووسط الصمت الذي خيَّم عقب ذلك سرى شعور بالتوجُّس والخوف عبر الغرفة.

كان ذلك أول نذيرٍ باقتراب الخوف.

الفصل السادس

# نزهة في القرية

كان اليوم التالي حارًّا ورطبًا، وسط شمس حارقة وسماء خالية من الغيوم. دائمًا ما كان الجو الحار يملأ جوان بحيوية زائدة؛ لذا بعدما اطمأنَّت على راحة الليدي دارسي في فترة ما بعد الظهيرة، عزمت على السير إلى قمَّة تلال داونز لتتنسَّم النسيم.

خرجت جوان من ممشى كواكرز المعتم، وتراءت لها أكواخ القرية المسقوفة بالقش مثل خلايا النحل الذهبية، وبدت المضخَّة القديمة كأنها تأخذ قيلولةً في ذلك الجو الحار الباعث على النعاس. وكأن كلَّ من في القرية تحت تعويذة الأميرة النائمة، لم تلتقِ جوان بشخصٍ واحد في الشارع المرصوف.

لكنها عندما مرَّت بحديقة «سباوت» البديعة ذات الجدول المائي، رأت الآنسة ماك تختلس النظر عبر البوابة. كان وجهها الهادئ وثغرها الباسِم يعكسان شعورًا بسعادة غامرة؛ لكن الزخارف الحديدية التي كانت تسترق النظر من خلالها تُوحي بأنها مُحتجزة خلف قضبان، ما جعل تلك المرأة القصيرة تبدو مثيرةً للشفقة على نحوٍ غريب.

نادت جوان: «مرحبًا. أليسَ الجوُّ بديعًا؟»

ابتسمت الآنسة ماك وقالت: «أجل. هل أنتِ ذاهبة للتنزُّه؟»

ردَّت جوان: «نوعًا ما. سأصعد إلى قمَّة تلال داونز».

عقَّبت ماك: «رائع. أودُّ أن أكون جوَّالة ... أيضًا.»

استفسرت جوان: «أتقصدين ... ارتداء السراويل القصيرة وحمل حقيبة الظهر؟»

ونظرت إلى المرأة القصيرة البدينة، ومنعت ابتسامةً عريضة قاسية من التسلُّل إلى شفتَيها.

وسألت إذ تذكَّرت الخطاب المجهول: «أين هي الآنسة أسبري؟»

أجابت الآنسة ماك: «تقوم بأعمال البستنة هناك.»

ونظرت الآنسة ماك خلسةً إلى مكان حيث كانت امرأة طويلة نحيفة، في زيٍّ رمادي محبوك، تنحني على سياج الأزهار في الأفق. بعد ذلك، لمست دبوس الزينة الذي ترتديه جوان، كأنها تتلهَّف إلى إبقائها مدة أطول قليلًا.

قالت: «دبوس جميل. لكنه غير مُثبَّت بإحكام. سيضيع منكِ على هذا النحو.»

بينما انشغلت أصابع الآنسة ماك القصيرة البدينة بالدبوس، انتابت جوان رغبة مفاجئة في التضحية، مع أنها لا تُطيق مجتمع الكهول، شأنها في ذلك شأن أي فتاةٍ عادية. سألتها: «لِمَ لا تأتين معي؟»

هتفت الآنسة ماك: «بكل سرور. فليس لديَّ ما أفعله للآنسة أسبري.»

ردَّت جوان: «مُمتاز. يجِب أن أوصل بعض المجلَّات إلى منزل سانت جيمس. استعدِّي — بحذاء متين وعصا — ولا تقلقي بشأن السراويل القصيرة. سأعود في غضون دقائق لاصطحابك.»

وبينما كانت المرأة تسير بخطواتٍ مهرولة في ممرِّ السيارات بحماسة، شعرت جوان بالرِّضا، وإن كانت مُتبرِّمة في قرارة نفسها.

قالت: «حمقاء هي تلك المرأة! لقد أضاعت نهاري.»

حملت جوان كومة المجلات التي كان الطبيب بيري قد أعارها لمريضته الثرية. فقد كانت ليدي دارسي، مثل غالبية سكان القرية، حريصة على شراء كُتب السِّير والرحلات فقط من مكتبة لندن؛ لكنها دأبت على استعارة كل ما تجِده من رواياتٍ ومجلات في منازل أصدقائها.

وما إن أوصدت البوابات خلف جوان مجلجلة، حتى ظهرت ماريان بيري تسير في تؤدة عبر الحديقة الزاخرة بزهور الأقحوان للقائها. كانت ماريان ترتدي منامةً خضراء، وبدت كأن الطبيب قد لكمَها في عينَيها؛ لكنها نجحت في الحفاظ على جاذبيتها العجيبة.

تناولت ماريان المجلات وألقت بها على العشب وهي تهتف: «لِمَ تُزعجين نفسك بهذه المجلات؟ الجوُّ حار جدًّا.»

ردَّت جوان: «تبدين رائعة على أي حال.»

قالت ماريان بنبرة متوسِّلة: «لا تتحدَّثي عن منامتي. إنها نقطة ضعفي. عندما ارتديتها لأول مرة، دفعتني حماقتي إلى اعتقاد أنني سأصدم القرية؛ لكن السيدة سكودامور اكتفت بالقول إن منامتي مُحتشمة ومريحة جدًّا، وإن لم تكن ملائمة بشكلٍ تام.»

أومأت جوان: «هكذا هي. تحرص دائمًا على ألا يتَّهمها أحد بالتزمُّت. لكنها حقًّا امرأة عملية للغاية. أين صغيراك؟»

أجابت: «يتشمَّسان. أترغبين في رؤية حديقة الحيوان الخاصة بي؟ أتُطيقين رؤية التعري الفاحش؟»

قصدت ماريان ركنًا قصيًّا من حديقة البيت على مهلٍ، حيث كان طفلان عاريان، على رأسيهما قُبعتان ضخمتان مخروطيتان من القش، يتهاديان في حظيرةٍ نقالة للعب. طغت عاطفة الأمومة على عينَيها المُحاطتَين بالهالات السوداء لكنها تحدثت بلامبالاة مُصطنعة.

قالت ماريان: «أليس هذان الشقيَّان مُسلِّيَين؟ يبدو جسماهما غير مُتناسقَين، وإن كان نموٌّ ميكي يتمركز في رأسه وبطنه.»

ثم أحاطت خصرها النحيف بيدَيها.

وأضافت: «أنا أيضًا أتشمَّس لأغراضٍ طبية. لديَّ ألَم مُستمر. لا شيء خطير، وسيرى الطبيب أن السبب هو تناول فاكهة غير ناضجة.»

صرحت جوان بتلك النبرة السريعة والواثقة للتشخيص الشعبي: «يبدو أنكِ تُعانين من الْتهاب الزائدة الدودية.»

وافقتها ماريان الرأي قائلة: «ربما. أتهم زوجي بتسميمي بتجاربه، لكن لا أستطيع حمله على الإقرار بجُرمه.»

ومع أن ماريان قصدت بذلك المزاح، فإن جوان لم تجد في كلامها ما يُضحك. كان كلامها لا يتناسب مع ذلك اليوم الصيفي الشديد القيظ، حيث ازداد منزل الملكة آن الأنيق دفئًا ورغدًا مع كل يومٍ ينقضي، وراح الصغيران يلاغيان ويتمدَّدان في ظل شجرة الكستناء الهندي ذات الأزهار الوردية.

شعرت جوان بأن روحها لا تتناغم قليلًا مع بهجة وجمال فصل الصيف، عندما وصلت إلى بوابات «سباوت». وساورتها الدهشة عندما وجدت الآنسة ماك لم تستعِدَّ لجولتهما مع أنها كانت تنتظرها في ممرِّ السيارات. كانت أدا، التي تلألأ شعرها الذهبي الأحمر في ضوء الشمس، تقص العشب، في حين وقفت الآنسة أسبري عند البوابة بكامل عُدَّتها من قبعتها الواقية من الشمس وعصا المشي.

سألت جوان: «هل أنتِ جاهزة يا آنسة ماك؟»

أجابت بهدوء: «لا. اعذريني، يا آنسة، فلديَّ مشاغل كثيرة ولا أستطيع الخروج معك عصر اليوم.»

قالت جوان: «لكني أذكر أنكِ قلتِ إنه ليس لديك عمل في هذا الوقت.» ابتسمت الآنسة أسبري ابتسامة تشجيع ودودة لُمرافقتها.

قالت الآنسة أسبري مفسرة: «لقد نسِيَت الآنسة ماك كتابة العناوين على أظرُف طلبات التبرُّع. تُحبِّين أداء هذه المهمة، أليس كذلك يا عزيزتي؟»

ردَّت الآنسة ماك بلا تفكير: «أجل، أُحبها فعلًا.»

أضافت الآنسة أسبري وهي تلتفِت إلى جوان: «أخبرتني الآنسة ماك أنك تُريدين مرافقًا في جولتك. إن سمحتِ لي بملء هذا الفراغ فسأكون في غاية السرور.»

ورغم ابتسامتها الساحرة الفريدة، انتابت جوان رغبة مفاجئة في التمرُّد ضد ملكة القرية.

قالت جوان بلا حماسة: «هذا لُطف بالغ منكِ يا آنسة! لكني أردتُ تسلُّق التلال. ألن يكون الأمر شاقًّا عليك في هذا الحر؟»

أجابت الآنسة أسبري: «لا أعتقد. هل أنتِ مُستعدَّة؟ أيُمكننا الرحيل؟»

كانت جوان لا تزال تشعر بشعورٍ عدائي تجاه الآنسة أسبري؛ ولم يجتازا سوى بضع ياردات قليلة، عندما حدثت واقعة جعلت جوان تدور حول نفسها مثل دوَّارة الرياح.

كان هناك صبي يجرُّ جروًا صغيرًا برَسَنٍ، فيُطلقه ويجذبه بحركاتٍ طائشة، حتى توقف زائر غريب عن المكان، ووبَّخه. اكتفى الصبي بالتحديق في الزائر بنظراتٍ فارغة، ثم جذب رَسَن الجرو مرة أخرى.

في تلك اللحظة، تدخلت الآنسة أسبري، وسيطرت على الموقف.

قالت بنبرتها الحازمة الحانية: «لا يُمكنك الاحتفاظ بالكلب بعد الآن، بلا تصريح، يا بيرتي. لقد وعدتك بشراء كلبٍ، إذا عاملتَ هذا برفق. لكن نظرًا لقسوتك، سأُعطي الكلب لفتاة طيبة القلب.»

وبإشارة آمِرة بيدها، هرعت أدا خارج الحديقة، وأنصتت إلى تعليماتها. حملت أدا الجرو، بعدما رفعَته عن الأرض، وعادت به إلى قصر «سباوت» وهي تضحك، وتخفض رأسها؛ إذ حاول الكلب لعق وجهها. نظرت الآنسة أسبري إلى شفتَي الصبيِّ المرتعشتَين.

قالت: «الحيوانات ليست دُمًى يا بيرتي، ولا يجوز أن تُعاملها على هذا النحو. لكن سأمنحك كلبًا دُميةً كي تتعلم كيفية الإحسان إلى كلبٍ حقيقي فيما بعد. وإياك وركل الدمية، أو قذفها على الأرض، وإلا أخذتُها منك.»

وانصرفت الآنسة أسبري بعدما أرست قواعد العدل من أجل الصالح العام. تهلَّل وجه بيرتي بسعادة بلهاء، في حين ودَّعت الآنسة ماك سيدتها من خلف البوابات والبسمة على مُحيَّاها. أما أدا فجعلت الجرو يهز أحد أطرافه لسيدتها، في حين ندمت جوان على عدم وفائها.

حدَّثت نفسها: «إنها امرأة طيبة حقًّا، لكنها لا تُهمل في عملِها. لا شك أن الآنسة ماك كانت تعلم بأمر هذه الأظرف. ليتني بقِيتُ لأعد طلب تبرُّع. فنحن في نهاية المطاف نتقاضى رواتبنا للقيام بوظائفنا.»

سرعان ما اجتازت جوان والآنسة أسبري القرية الناعسة — التي كان يغمرها اللون الذهبي لأشعة الشمس مع ظلال زرقاء باهتة — ووصلتا إلى نزل «كينج هيد» حيث ينعطف الطريق ليلتقي بالطريق السريع الذي يقود إلى مدينة لندن. عند تلك النقطة، بدأت الحقول الخضراء الشاسعة المُتموِّجة تصعد، تدريجيًّا وعلى نحوٍ غير ملحوظ، باتجاه التلال المُنخفضة الارتفاع المؤدية إلى تلال داونز. أدركت جوان أنها تتقدَّم الآنسة، فتراجعت إلى الخلف، مُعتذرة لها.

قالت: «آسفة جدًّا. أخشى أن سُرعتي تُجاوز سرعتك.»

سألت الآنسة أسبري: «ما سرعتك المعتادة؟»

«أربعة أميال في الساعة، السرعة المُعتادة.»

عقبَّت الآنسة: «المعتادة؟ أخشى أن الزمن قد عفَّى عليَّ. أنا أحذو حذو الفيلق الروماني. كانوا يسيرون بسرعة ثلاثة أميال في الساعة، سواء فوق المُرتفعات أو على الأراضي المنبسطة، ولا يسرعون أو يبطئون أبدًا.»

قالت جوان، التي كانت تُدرك وجوب رحمة الصغير بالكبير، بتهذيب: «لا بأس. سأحذو حذو الفيلق الروماني أنا أيضًا، اليوم.»

سألت آنسة أسبري: «أتتعهَّدين بذلك؟ أكرَه الوعظ، لكني أومن دائمًا أن في الانضباط خيرًا للجميع. وأنا بالذات.»

حاولت جوان، وهي تكبح حماستها عن المُضيِّ قدمًا إلى قمة تلال داونز، أن تترك نفسها تستلذُّ بمسرَّات القرية. كان هناك طنين الحشرات، وعبق العشب الحار، وشدو القنابر وهي تخفق بأجنحتها في السماء الزرقاء. كما حلقت فراشات صفراء صغيرة في أرجاء الطريق. كانت الحقول ناضجة، يلوح بها ومضات من اللون المرجاني والأبيض لزهور الحماض البستاني وأقحوان المروج، في حين زخرت الأسيجة النباتية بالزعرور البري الذي بدأ يميل إلى اللون البني.

ولكن أحسَّت جوان أن ثمة شيئًا ينقصها. تساءلت: «أيُمكنني التدخين؟»

أجابت الآنسة أسبري: «لِمَ الاستئذان يا فتاتي العزيزة؟ فأنتِ حُرَّة.»

أشعلت جوان سيجارة، لكن لم تتوقف الآنسة أسبري، في أثناء انشغال جوان بإبقاء النار مُشتعلة كعادتها. وعندما رفعت بصرَها كان ظلُّ الآنسة أسبري قد سبقها بالفعل عدة خطوات.

فكَّرت جوان: «الفيلق الروماني ليس ودودًا بالمرَّة.»

دخَّنت جوان سيجارتَين، لكن واصل الطريق صعوده بلا توقُّف، وصبَّت الشمس أشعتها المُستعرة على رأسها المكشوف صبًّا.

قالت جوان: «سأخلع حذائي وجوربي إذا سمحتِ. استمرِّي في السير. وسألحق بك.»

وافقت الآنسة أسبري، وهي تواصِل السير، وقالت: «بالتأكيد.»

لم يُحالف خطة جوان النجاح المتوقَّع؛ إذ تبين أن الطريق وعر، وجُرِحت أصابع قدمَيها. ولَمَّا انتهت من ارتداء حذائها وجوربها مرة أخرى، كان ظلُّ الآنسة أسبري الطويل قد ابتعد.

استمتعت جوان بركضها كي تلحَق برفيقتها؛ إذ هدأت جذوة انزعاجها المكبوح؛ لكن عدوَها فوق التلال جعلها لاهثةً مقطوعة الأنفاس، فاضطرت إلى التوسُّل إلى الظل الرمادي العنيد الذي كان يولِّيها ظهره.

سألت: «أيُمكنك ... التوقف كي ... كي ألتقط أنفاسي؟»

أجابت الآنسة أسبري بلُطف: «بالطبع. أنا آسفة. ظننتُك من الفيلق الروماني.»

كانت هناك لمحة سُخرية في ابتسامتها أشعلت حماسة جوان. فواصلت السير على الفور دون أن تتوقف لترتاح قليلًا. لكن بدت القمَّة بعيدة كما كانت في البداية، فكانت مثل خطٍّ أخضر رفيع وسط السماء الزرقاء الزاهية.

بدت الآنسة أسبري غير متأثرة بالحرارة أو السير. كان واضحًا أنها تحاول العثور على موضوعات تُثير اهتمام جوان؛ إذ توقفت عن التحليل البليغ لمشكلة الدين الدولي، لتتحدث عن المنتجعات السويسرية الشتوية. ولاحظت جوان، بدهشة ممزوجة بالحقد، أن صوت الآنسة أسبري هادئ تمامًا، في حين تُكافح هي لالْتقاط أنفاسها من حينٍ لآخر.

حدَّثت نفسها: «أتُحاول أن تُذكِّرني بأنني من جيل الشباب المُدلَّل لتُثير غيظي؟ إن كان الأمر كذلك، فأنا على قدْر التحدِّي، وسأجعلها تسير إلى النهاية.»

قفزت جوان إلى الأمام قفزةً مُذهلة، لكن الآنسة أسبري واصلت السير بوتيرتها المعتادة، حتى بدأت جوان تتأخَّر مرة أخرى. وفي محاولتها لئلَّا تركِّز على انزعاجها المُتزايد، حاولت أن تحول دفَّة الحوار إلى قضيةٍ أكثر إنسانية.

قالت جوان: «أظن أن عملكِ الإغاثي كان مُمتعًا جدًّا.»

وافقتها آنسة أسبري قائلة: «جدًّا.»

سألت جوان: «هل واجهتِ الكثير من الإخفاقات؟»

أجابت الآنسة: «بلى. لكن نجاحًا واحدًا يعوِّض خمسين إخفاقًا.»

سألت جوان: «هل الفتيات يشعرنَ بالامتنان؟»

ردَّت الآنسة أسبري: «نحن لا ننتظر منهنَّ امتنانًا.»

مسحت جوان على وجهها، واختلست النظر إلى الآنسة أسبري. حدثت نفسها قائلة: «إنها تسير مثل الآلة. إنها روبوت لا أكثر.»

وخانها انزعاجها وتسلَّل جزء منه إلى جُملتها التالية.

قالت جوان: «على المستوى الشخصي أشعر بكثيرٍ من الشفقة تجاه هؤلاء الفتيات البائسات. وأرى أن من البشاعة أن يُجبرنَ على ارتداء ثياب عمل رثة ويُؤمَرن بغسل ملابس الآخرين الفاخرة.»

التفتت إليها الآنسة أسبري برأسها الأشيب، ورمقتها بنظرةٍ مُتسامحة مُبتهجة.

سألتها: «هل تُرسِلين ملابسك الداخلية إلى المغسلة؟»

ردَّت جوان: «لا. أغسلها بنفسي. لكنني فتاة عاملة فقيرة.»

«بالضبط. والنساء الثريَّات يتوقَّعن من خادماتهن تلقائيًّا أن يغسلنَ ملابسهنَّ الداخلية. لذا، كما ترين، لم تُضطَر فتياتنا إلى التعرض لهذا العذاب النفسي الفريد الذي تختلقينه لهن.»

قالت جوان بجرأة: «أظن أنك ترينني مُغفلة.» فقد أدركتْ مرةً أخرى أن مُستودع القرية من التفكير المنطقي الرصين يُستنزَف من قِبل العقول التطهيرية مثل الآنسة أسبري والسيدة سكودامور.

ارتفعت الأرض أمامهما عند مُنحدر حاد، فاضطرت جوان إلى التوقُّف عن الكلام، حتى تدَّخر قوتها للمرحلة الصعبة الأخيرة. وما إن وصلت إلى القمة، ألقت نفسها على العشب القصير لاهثة، بينما نظرت إليها الآنسة أسبري بابتسامةٍ مُشفقة رقيقة.

قالت: «لِمَ لمْ تُخبريني أنك تشعرين بالإنهاك يا صغيرتي؟ كان ينبغي أن ترتاحي.»

قالت جوان: «أنا بخير، شكرًا لكِ. أعجبني الأمر فحسب.»

وأغلقت عينَيها وتمدَّدت بلا حراك، حتى تفقدت الآنسة أسبري ساعتها، وكانت تقف مثل تمثال لقديس نُصب لحماية الريف المُحيط به.

قالت: «حان وقت العودة. لا بد أن نلتزم بالجدول الزمني للفيلق الروماني.»

واصلت الآنسة أسبري السير بمعدل ثلاثة أميال في الساعة، في التزامٍ صارم، في حين ركضت جوان فوق المنحدرات بحُرية ممزوجة بالسعادة. أحسَّت جوان بالراحة؛ لأن كل خطوة كانت تُقرِّبها من بيتها؛ إذ تبيَّن أن التنزُّه في صحبة أحد أفراد فيلق روماني ليس إلا تكفيرًا عن ذنب. وفي خضم شعورها المفاجئ بالدفء، تذكَّرت الآنسة ماك المسكينة.

فقالت: «أتأذنِين للآنسة ماك بالقدوم معي المرة القادمة يا آنسة أسبري؟»

أعقب سؤالها صمت ملحوظ قبل أن تقطعه الآنسة أسبري. لكنها بدلًا من أن تُجيب عن سؤال جوان، وجهت لها سؤالًا آخر بدورها.

قالت: «أتُحبين الآنسة ماك؟»

أجابت جوان: «لا. لكن أشعر أنه لا بد أن يكون هناك رباط مُشترك بيننا». وضحكت ضحكة خفيفة. وأضافت: «فكلتانا من الطبقة العُليا من الخدم. كما أنني محظوظة جدًّا. فليدي دارسي تُعطيني حرية كبيرة.»

«أتقارنين وضع الآنسة ماك المسكينة بوضعك؟»

«بالطبع لا. أنا واثقة من أنك تُحسنين معاملتها للغاية أيضًا.»

«شكرًا لك. أتظنِّين أنها تعيسة؟»

تذكرت جوان وجه الآنسة ماك المُمتلئ الباسم.

صاحت قائلة: «لا.»

قالت الآنسة أسبري بنبرة هادئة: «يُسعدني سماع ذلك. كنت سأحزن لو كنتِ تعتقدين غير ذلك. وسيكون انعكاسًا بشعًا لشخصي ... لكن سأطلب منك ألَّا توجِّهي لها الدعوة لمُرافقتك في أيٍّ من رحلاتك مرة أخرى ... فهي ليست في صالحها.»

شعرت جوان كأنها تلقَّت صفعة على وجهها.

هتفت: «أوه ... لكن لماذا؟»

أجابت الآنسة أسبري بصوتٍ بارد كالثلج: «لأن طباعها مختلفة عن طباعك. لا أريدها أن تتحمَّس أكثر مما ينبغي ... أو تشعر بالاضطراب. صدِّقيني، إن مصلحتها تُهمني للغاية.»

حملقت جوان باستياءٍ في تلك البشرة الشاحبة على خلفية السماء الزرقاء الزاهية. كان وجهها كئيبًا مُجردًا من أي عاطفة بشرية، ما ذكَّرها بقسوة محاكم التفتيش وتجرُّدها من العواطف عندما كانت تعذب الأجساد لتحصد الأرواح.

وقالت ببرود: «حسنًا جدًّا. لن أدعوها.»

ثم شهقت شهقةً خافتة بعدما هبطت بضع ياردات.

قالت: «تبًّا. لقد أضعتُ دبوس الزينة.»

قالت الآنسة: «لا أظن ذلك. لم تكوني ترتدين دبوس زينة.»

ردَّت جوان بإصرار: «لا كنتُ أضع واحدًا. حذَّرتني الآنسة ماك من أن الدبوس كان غير مُثبت بإحكام.»

قالت الآنسة أسبري وقد زمَّت شفتَيها المرسومتَين بصورٍ واضحة: «إن كان الأمر كذلك، فلا بد أنكِ أضعته في رحلة الصعود. قد يكون على قمَّة التلال حيث استلقيتِ على الأرض. سنعود ونبحث عنه.»

أسرعت جوان تقول: «لا. شكرًا لك. لا يُساوي إلا بنسَين.»

ردَّت الآنسة أسبري: «حتى الدبوس الذي يُساوي بنسَين له قيمة. بما أنكِ تشعرين بالتعب، اجلسي، وسأذهب لإحضاره.»

كبحت جوان شعورها بالألَم وهي تترنَّح للوقوف على قدمَيها.

ودار بخلدها: «إنها تريد إذلالي لا أكثر. سأذهب معها مهما تطلَّب الأمر. لقد أدركت امتعاضي من الآنسة ماك وستُلقِّنني درسًا قاسيًا. إنها ليست قديسة. إنها قاسية.»

الفصل السابع

# الضيف الإضافي

كان للآنسة كورنر حديقة مُغطاة، تأتيها الشمس من الجنوب؛ لذا كانت فراولة حديقتها تنضج أسرع من غيرها. وكانت هذه هي الإشارة كي تُقيم حفل افتتاح الحديقة لموسم الصيف. وفور أن تلقَّت التقرير من البستاني، أرسلت دعوات الحفل إلى جيرانها.

لم يردَّ أحد دعوتها حتى عمدة القرية منحَها ذاك الشرف النادر بحضوره. كان العمدة رجلًا ضخم الجثة قوي البِنية، يجمع بين الصلف والمشاعر الفيَّاضة، أعلن عن ولائه في أثناء الحرب من خلال تزيين سيارته بعلَم الاتحاد، ونصب شواهد قبور لحيواناته الأليفة وإن لم يتأثر بموتِها أدنى تأثُّر. وقد نال العمدة الدعم المعنوي من جميع الرجال، فيما حضرت مجموعة كبيرة من النساء.

وقفت جوان بروك بمُفردها في الطريق المجاور لسياج زهور الكيلواي المرتفع، تقصد تأمُّل المشهد؛ إذ كان هذا النمط من التسلية القروية جديدًا عليها، وأرادت أن تُشاهد القرية في ردائها الاحتفالي. كان جميع الحاضرين يرتدون ملابس صيفية مبهرجة احتفظوا بها خصوصًا لهذه المناسبة. وعرضت الطاولات الصغيرة المَنثورة في أرجاء الحديقة أطباق الفراولة التي أضفت «طابعًا خاصًّا» على الحفل. وقدَّمت أوركسترا وَتَرية من الخارج معزوفة «فالس من فيينا»، وكان الجوُّ بديعًا، حيث تدفَّقت سُحب بيضاء مثل الفساقي، في هيئة سماء زرقاء زاهية.

شعرت الآنسة جوليا كورنر بنشوة النجاح كمُضيفة، وهي تبتسِم لضيوفها في ابتهاج، وكانت ترتدي فستانًا ورديًّا فاتحًا من النسيج الحريري، مُزدانًا بورودٍ ضخمة مرسومة بالإستنسل، وقبعة من الكرينولين متدلِّية على رأسها. وبحسب تقديرها لعدد الرءوس، كان الجميع قد وصلوا إلى الحفل تقريبًا. دوَّت ضحكاتها عاليًا، وبدت أزهار ردائها وكأنها تزدهر بوضوح في الجو الدافئ، وهي تُشير للخدم لحمل الشاي إلى الحديقة.

لم تكن تلك الروح المسكينة تعلَم بوجود غريبٍ مُتطفل — يشبه غيمة مُظلمة قبيحة — انسلَّ ووقف خارج البوابة، يتحين الفرصة ليتسلَّل إلى الداخل.

لم تعِ جوان أيضًا وجود شبحٍ أو تهديدٍ ببلاء وشيك، عندما كانت تتسكَّع عند زهور العائق والأنقولية، حيث استحوذت السيدة بيري على جُلِّ انتباهها. فمع أن زوجة الطبيب بدت بقايا امرأة جميلة كعادتها، كان واضحًا أنها تمتلك الجاذبية الفطرية الكافية؛ إذ تجمَّع مُعظم الرجال حولها. حتى عمدة القرية نفسه كان يُفرِط في مغازلتها أشدَّ الإفراط، وهو ما سيجعله يغضب منها أشد الغضب فيما بعد.

اضطربت جوان مع اقتراب الطبيب منها.

سأل بلا اكتراث: «هل نُثير إعجابك؟»

ردَّت: «تروقُني زوجتك.»

قال: «هذا لُطف منك. دائمًا ما تنجح في ترك انطباع المغامرة الساحرة لدى الآخرين، وهذا ذكاء منها. المُحزن في الأمر أنها تصبُّ تركيزها على طفلَيها الرضيعَين.»

ردَّت جوان: «حقًّا؟» وكان صوتها يُوحي بعدم التصديق؛ إذ تذكرت واقعة التشمس، مما جعلها تسارع إلى تصحيح كلامها. فأضافت في عجالة قائلة: «لا عجب في ذلك. إنهما طفلان رائعان. ألستما محظوظَين؟»

ردَّ: «نحن؟ أشكُّ في ذلك. عدم الإحساس بالأمان هو الكابوس الذي يُراوِد كل أبٍ وأم. حتى الأطباء يفقدون شعبيتهم.»

«لكن ليس هنا.»

ابتسم الطبيب: «أتفق معكِ. أعتقد أن لديَّ مكانةً راسخة هنا. فعائلتي تعيش في هذا المكان منذ قرونٍ كما تعلمين ... لكن لِمَ تجلسينَ وحدك على هذا الارتفاع؟»

ردَّت: «أتفرَّج على المشهد.»

قال: «أفهمك. أنا أيضًا أتفرَّج على «الكوميديا الإلهية». ولكن ... يجِب أن أضعك على المسرح.»

انزعجت جوان قليلًا من الطريقة التي نظر بها الطبيب إلى القسيس، الذي كان يندفِع بحماسة بين التجمُّعات المختلفة، برداء القساوسة الرمادي اللون، مثل نسخةٍ مُتحركة من الشمس وهي ساطعة في الفضاء كما جسَّدها مايكل أنجلو.

وعلَّقت: «بما أننا وصلنا إلى هذا الحد، فلا أعتقد أنك سلبي مِثلما يوحِي مظهرك.»

ردَّ الطبيب: «حسنًا. أنا ذكي بما يكفي لآخُذ تعليقك على محمل المدح. أن يكون المرء ممارسًا عامًّا في القرية ملَل ما بعده ملَل. ولا يُثير الاهتمام إلا عندما يقف في قفص الاتهام في جريمةٍ عقوبتها الإعدام.»

كانت لامبالاة الطبيب واضحة وضوح الشمس؛ حتى إن جوان حاولت أن تصدمه لتُثير فضوله.

قالت: «تقصد القتل؟ لا أقصد التباهي بالتأكيد، لكن لي قريبًا ذهب إلى حبل المشنقة. ولم يكن مظلومًا أيضًا. فقد قتل زوجتَه.»

عقَّب الطبيب: «أمر شنيع.»

ضحكت جوان قائلة: «لنكُن عصريين، ونُسمِّي ذلك جرعةً مفرطة من الطبيعة البشرية ... وهو أمر غريب على هذه القرية. فهي تكاد تكون جنَّة على الأرض. لنضرب مثالًا على ذلك. أنا هنا. ومع ذلك لم أحظَ بدعوة من وجهاء القرية من قبل لحضور حفلاتهم.»

قال الطبيب: «يسرُّني أنك تُحبيننا.»

«هذا صحيح. ولكن لديَّ شعورًا مختلفًا تجاه ... تجاه شخصٍ واحد.»

رمقها الطبيب بيري بنظرة اهتمام.

سأل: «عمَّن تتحدثين؟»

مع أن التلقائية كانت عيب جوان المُميز، فقد حذَّرتها غريزتها أن تتعقل ولا تنطق حرفًا يشي بخيانتها لملكة القرية.

لكن عينَي الطبيب اتبَّعتا عينَيها، ولاحظ أنها كانت تنظر إلى مجموعةٍ من السيدات يجتمعنَ بالقرب من البوابات. وكانت الآنسة أسبري قد وصلت لتوِّها.

كرر الطبيب سؤاله: «عمَّن تتحدثين؟»

حاولت جوان تضليل الطبيب فقالت: «لا أحد بعينِه. كنتُ أتحدث بشكلٍ عام فحسب. كل سكان القرية في غاية الطيبة؛ حتى إنني أتساءل أحيانًا إذا كان من المُمكن أن يكون للقسوة وجود لديهم. على سبيل المثال، هناك ... هناك السيدة سكودامور. إنها تنعم بحياة زوجية مثالية. لو أنني بطلة فاسدة، كيف كانت ستُعاملني حينها؟»

أجاب الطبيب: «ستكون في غاية الإنصاف.»

علقت جوان: «لا شك في ذلك. لكن هل «ستتفهم» موقفي؟ هل ستدرك أن كلًّا منَّا امرأة وقعت في حُب رجل، وليس ثمة فارق بيننا، سوى خمس دقائق في مكتب سجلٍّ مدني قذِر؟»

ردَّ الطبيب: «لا أظن. لم تتعاطف مع مَن استسلم لإغراءٍ لم تكن ستستسلِم له هي نفسها؟»

شعرت جوان بالرضا عن نجاح خدعتها رغم نبرة الطبيب الفاترة.

هتفت ببراءة: «عجبًا، ها هي الآنسة أسبري.»

قطعت ملكة القرية الحديقة ببطء، مثل مُمثلة تصعد إلى خشبة المسرح. كانت ترتدي فستانًا رماديًّا غير لامع، ذا ياقة وأساور بيضاء، أوحى للناظرين بأنها من طائفة الكويكرز، حتى تبيَّن أن القماش المصنوع منه الفستان هو الساتان الباهت الناعم والدانتيل الأنيق. وكان ذلك أول ظهور لها منذ واقعة الخطاب، وتحركت بهدوءٍ ووقار، مع أنها كانت تتَّكئ على عصًا ذات مقبضٍ فضي.

أذن ظهورها بمظاهرة من التعاطف الصامت. كان هناك تحرُّك واضح نحو الآنسة أسبري وغُمرت بالتحيَّات. ومَن لم يستطِع الوصول إليها من الحاضرين، حاول أن يجذب انتباهها بابتسامة. وحدَها جوان، بروحها الانتقادية الجديدة، مَن وقفت خارج دائرة مُعجبيها.

سألت جوان الطبيب: «هل انتقاد أخلاق المرء يُصيبه بالعرج؟»

أجاب الطبيب: «عندما تمكُثين هنا مدة طويلة، مثل الآنسة أسبري، ستتعرَّفين على كل قطرة من قطرات حمض البوليك في جسمك. إن قصر «سباوت» رطب، وتُعاني الآنسة أسبري من عرق النسا. شجاعة منها أن تأتي إلى هنا ... ما رأيك في أن نذهب ونتحدث إليها؟»

اتبعت جوان الطبيب على مضض؛ إذ تذكرت الساعات المؤلمة التي أمضتها لاهثة في صحبة هذه الجوَّالة التي لا تعرف التعَب. ولم يظهر على الآنسة أسبري أي مشكلةٍ عضلية في ذلك الموقف. وعادت إلى جوان ذكرى مشوَّشة للنقاش الذي دار في غرفة معيشة الآنسة كورنر.

حدثت نفسها: «كنتُ منهكةً بينما هي منتعشة. هل امتصَّت طاقتي؟ كم أنا حمقاء!»

نفضت جوان هذه الشكوك المبالَغ فيها من عقلها، ومع ذلك ظلَّ دخول الآنسة المتأخر يُشعِرُها وكأنها دبَّرته لتجذب الانتباه إليها.

لكنَّها كلما اقتربت أكثر بما يكفي لترى وجه آنسة أسبري بوضوح، خجلت من أفكارها. كانت ملامح السيدة العجوز صارمة تشعُّ بروحانية كئيبة لشخصٍ تجرَّد من كل الدنيويات وألقاها في نيران الطهارة الروحانية. فقد استجابت للحفاوة العامة التي قوبلت بها بلامبالاة رقيقة؛ حتى إنه ظهر جليًّا أنها لا تكترِث بشُهرتها البتَّة.

لكن — مرة أخرى — حدثت واقعة بسيطة بغيضة. فقد اندفعت الآنسة كورنر عبر الحديقة، مثل زهرة وردية مُتضخمة، لتتحدَّث مع ضيفتها.

قالت: «يا إلهي، ديسيما، لم ألحظ من قبل أنك لم تُحضِري آنسة ماك. أين هي؟»

أجابت بهدوء: «آمُل أنها في الفراش. وقد كنت سأعتذِر لك نيابةً عنها، ولكن أحدًا استدعاك. نحن نعتذر لك بشدة عن عدم حضورها. لكنها تُعاني من الْتهاب حادٍّ بالأعصاب.»

قَبِل جميع الحاضرين تفسيرها باستثناء شخصٍ واحد. ابتعدت جوان، رغم وجود فُرجة في صفوف معجبي آنسة أسبري، ووقفت تتأمَّل المشهد كأنه استحال عبثيًّا مرة واحدة.

كان مشهدًا خلابًا جمع بين الأعشاب المُقلَّمة والأزهار والصفوة. وكان النُّدُل المُستأجَرون يركضون في الأنحاء بأطباق الفراولة وأباريق القشدة. وأضفت العريشة المزدانة بعناقيد الوِسْتارية البنفسجية لمساتٍ رقيقة على اللون الأخضر الناعم الذي ساد المشهد.

كان المشهد كلُّه جميلًا، لكن تُرى ماذا يُخبئ وراءه؟ لقد تحدثت بيرلي الروائية عن الزهور التي تنمو في الوحل. تذكرت جوان الابتسامة ووجدتْها مُتوافقة تمامًا مع شكوكها.

كان هذا لأنها لم تستطِع إيجاد رابطٍ بين عُذر آنسة أسبري وبين ما تعرفه من حقائق.

فقبل خمس عشرة دقيقة فقط، حين مرَّت بحديقة قصر «سباوت» في سيارة ليدي دارسي، لوَّحت بيدها للآنسة ماك التي كانت تقِف خلف البوابة. ولم يكن بوجه المرافقة المسكينة الباسم ما يلمِّح إلى شعورها بالألم أو المرض؛ لكن، بسبب هذه القضبان الحديدية على الأرجح، نجحت مرة أخرى في نقل انطباع السجين المُثير للشفقة.

كانت جوان تَصرُّ على أسنانها — وهي عادة سيئة تبقَّت لها من طفولتها — عندما اتَّجه نحوها القسيس، حاملًا طبقَين من الفراولة في كِلتا يدَيه بحذَر.

سألها: «لِمَ لا تنقضِّين على الفراولة؟ نحن هنا لهذا السبب. تعالَي معي. هذه طاولتنا فيما يبدو. أليست هذه محجوزة لنا يا جون؟»

ابتسم النادل ابتسامةً عريضة؛ إذ كان القسيس اجتماعيًّا بامتياز، وجلست جوان، تستظلُّ بشجرة زان أرجوانية الأوراق، وهي تتنفَّس الصعداء. لقد جاء القسيس لإنعاش جسدِها لا لاستثارة عقلها على عكس الطبيب. كما أنه وافد جديد نسبيًّا، مما جعلها تشعر بالأُلفة نحوه.

علَّق القسيس: «رأيتكِ تتحدثين مع الطبيب. إنه شخص لطيف، لكن به مسحة تكلُّف.»

مع سقوط أول قطرة سُم، تشكَّلت بقعة صغيرة ولكنها مُلتهبة تمامًا؛ إذ اتخذت العلاقة بين الرجلَين مسارًا آخر. فلم يعُد الرجلان يُدخنان في صمتٍ أخوي ك «أخوية البنَّائين الأحرار»، ولكنهما كانا يتحدثان بكياسة رجُلَين حنَّكتهما الحياة.

اعترفت جوان: «لقد سقطت عائلتي من نظره. كل ذلك فقط لأنني حاولتُ إثارة فضوله بإخباره أن لدينا قاتلًا في عائلتنا.»

قال القسيس: «ليتكِ سمَّيتِه قاتلًا سياسيًّا. فهذه التسمية لها وقع تاريخي. وكان سيفخر لو كان هذا القاتل أحد أسلافه.»

كان هذا أقسى تعليقٍ سمعَتْه جوان من القسيس، لكنه جعلها تشعر بنوعٍ من الارتياح، مما أغراها بالتحدث بلا حذَر مرةً أخرى.

قالت: «الحق أن عائلة الطبيب أقدم من طبقة النبلاء، ولا بد أن الدهر أكل عليها وشرب. وقد آن أوان اندثارها كي تدور عجلة التقدم. الإنسان الحداثي الحقُّ سيقترح أن تُجمَع عائلته كلها في الفرن وتُضرَم فيها النيران.»

انتقل صوت جوان الواضح إلى الطاولة المجاورة، حيث كان السيد سكودامور وزوجته يجسدان مشهد داربي وجوان العاشقَين، وهما يتناولان الشاي. نظرت إليها السيدة سكودامور، التي كانت مبهرة بردائها الأرجواني، وحملقت بها بشفتَين مُطبقتَين وعينَين مندهشتَين، كأنها لا تُصدق ما سمعته أُذناها. حتى القسيس شدَّ شفتَه السُّفلى في استياء.

قال: «اسمعيني، يا عزيزتي، أفهم لهجتك الحداثية وإن كنتُ لا أستطيع استخدامها، لكن لا تنسي أن هؤلاء الأشخاص لا يفهمون إلا الإنجليزية الرسمية.»

ردَّت: «لن أنسى ذلك. آسفة.»

حدَّقت جوان في وجه القسيس، وكانت هذه أول مرةٍ تُصدق فيها قصة انهياره. عادة كان يبدو أن من الأفضل له أن يخضع للفصد من أجل تفريغ طاقته الفائضة، لكن اليوم كانت عينا القسيس مُتعبتَين وشفتاه غائرتَين.

علَّقت: «تبدو عيناك مُنهكتَين.»

سأل القسيس: «أهما شاحبتان؟ هذا بسبب قلة النوم. يحصل لي ذلك في بعض الأحيان. تناولت العشاء ليلة أمس مع عائلة جيمس، في مركز الشرطة، وزوجة السيد

جيمس طاهية رائعة. لقد أعدَّت لنا النقانق والبطاطس المهروسة، وكانت وجبة رائعة. أفرطتُ في تناول الطعام؛ لذا عندما خلدت للنوم، زارني حلم مُتكرر، ونال مني ما نال.»

«أهو حلم مُحرج؟»

«لا. حلمت أنني في نزال مع شخصٍ ما — لقد كنتُ ملاكمًا هاويًا في الوزن الثقيل — وأتلقى ضربًا مبرحًا. تملَّكني غضب شديد لأنَّ أنفي تَمرَّغ في التراب، لكن ما أفقدني صوابي حقًّا أنني لم أستطِع بطريقةٍ ما رؤية وجه خصمي. فقد كان يخفض رأسه، ويتفادى الضربات، كي يُخفي وجهه. ومع ذلك، راودني شعور بأنه شخص أعرفه، مما جعل الأمر يبدو مريعًا. على أي حال، شعرت بالاضطراب الشديد، واستيقظت في حالة يُرثى لها.»

قالت جوان بحُزن: «وما زلتَ كذلك. فأنتَ تُمسك صحنك مائلًا.»

مسح القسيس قطرات القشدة عن معطفه بذهن شارد، وهو يتفقَّد المكان من حوله.

وسأل: «هل أنا أتخيَّل؟ أم أن هذا الحفل يفتقر إلى المتعة؟»

لم يكن يعلم حينها أن الكتلة المُعتمة خارج البوابة قد اقتحمت الحفل. كانت تتحيَّن إشارة المُضيفة، من مكانها الخفي، كي تنضمَّ إلى ضيوفها.

لكن أحسَّ القسيس بمسحة تحفُّظ عامة في الجو. لقد ذكَّرت الآنسة أسبري الحاضرين بالخطاب المجهول. وبينما كان صاحب الخطاب لا يزال مجهولًا، كان الشعور ببعض القلق أمرًا محتومًا. لهذا سادت تلك الفترات الصامتة القليلة المشحونة بالتوتر في الحديث، التي كانت تُنذر بالمأزِق المُدمر الوشيك.

غير أن الآنسة كورنر لم تكن تعي أي كوارث. فكانت مُضيفة نشيطة، تنتقل من مجموعة إلى أخرى، بنوباتٍ من الضحك يُصاحبها انتفاخ أهداب فستانها الوردية كالبالون، فتُنظم مسابقات، وتُجبر الضيوف على لعب الكروكيت، وتشعل السجائر بلا توقُّف.

أخذ الطبيب بيري يُراقبها، بينما الحفل يمضي على قدَم وساق، والكئوس وقطع الثلج تعقب أكواب الشاي. طلبت الآنسة كورنر من الأوركسترا عزف مقطوعة الفالس من فيلم «كونجرس دانسيس» (رقصات الكونجرس)، وأدَّت بعض الرقصات المُنفردة، وهي تحثُّ ضيوفها على العيش والحُب والضحك.

وأخيرًا، ألقت نفسها على أحد كراسي الحديقة، مقطوعة الأنفاس. كانت هذه هي المرة الأولى التي تجلس فيها، في ذلك المساء، فانتهز الطبيب الفرصة كي يحضر لها قدحًا من نبيذ التفاح المثلج.

تهلَّل وجه الآنسة وهي تمسح وجهها الساخن.

هتفت: «ها قد قدم بطلي. أتعلم أن الطبيب هو البطل في كل روايةٍ من رواياتي؟»

لم يكن بوسع أحدٍ أن يعرف ذلك؛ إذ لم يطَّلع أحد في القرية على رواياتها، لكنها استطردت.

قالت: «كتبتُ اثنتي عشرة رواية، وانتقيتُ لكل واحدة منها بطلًا مختلفًا عن الأخرى. لكنه يكون طبيبًا دائمًا. فالطبيب في الحقيقة يُجسد عشرات الرجال المُختلفين ويُمثل عدة شخصيات في شخص واحد.»

ضحك الجميع بأدب، في حين ابتسم الطبيب باستهجان.

قال: «يجعلني ذلك مُثيرًا للاهتمام، حتى لزوجتي.»

عندما سمعت ماريان اسمَها، نكزت العمدة بالدبوس فجأة، إذ كانت تُثبِّت عروة معطفه، وانصرفت من المكان فجأةً لتنضمَّ إلى مجموعة أخرى. كانت شفتاها النحيفتان القرمزيتان ترتعشان، وعيناها تتَّقدان غضبًا، وهي تهمس لزوجة عمدة القرية بصوتٍ مبحوح.

سألت: «كيف تجرؤ على قول هذا الكلام عن زوجي؟»

اندهشت زوجة العمدة الطيبة من ثورتها.

قالت مُفسرة: «لكنها كانت تمزح فحسب يا عزيزتي.»

قالت ماريان: «هذا مزاح يتجاوز كل الحدود. يجب أن يُوحي شخص الطبيب بالثقة؛ لأنه مُستأمَن على مرضاه. ولا أرى التلميح بأن زوجي يُخفي شخصيةً أخرى وراء ما يُبديه للآخرين مزاحًا. لدَينا ... لدَينا طفلان رضيعان يجب أن نُفكِّر في مستقبلهما.»

وأضافت: «لا سيما الآن.»

سألت زوجة العمدة: «لماذا ... الآن بالذات؟»

أجابت: «أوه، كما تعلمين.»

حين عضَّت ماريان على شفتَيها لتستعيد رباطة جأشها، أشعلت الآنسة كورنر المسكينة، بغير وعيٍ، عود الثقاب الذي فجَّر حفلها. جالت الآنسة كورنر ببصرِها في الحديقة، ثم اتجهت نحو الآنسة أسبري، وتحدثت إليها بأُلفة عفوية كأنهما زميلتان من أيام الدراسة.

سألت: «حسنًا يا ديسيما، أهناك أي جديدٍ عن خطابك المجهول؟»

رفعت الآنسة أسبري جفنَيها الشاحبَين الثقيلَين.

وأجابت: «لا. من الأفضل نسيانه.»

استطردت آنسة كورنر بلا حياء: «هل لديك أدنى فكرة عمَّن كتبَه؟»

ردَّت الآنسة أسبري: «لا.»

انفجرت آنسة كورنر فجأةً في نوبةٍ من الضحك. وقالت: «أظنُّني أستطيع تخمين كاتب الرسالة.»

وكأن كلماتها كانت بمثابة إشارة، تحركت تلك الكتلة الداكنة المتكومة في زاوية الحديقة، وصارت نشطةً على نحوٍ مُخيف، وانضمت إلى الضيوف الآخرين.

بدخول الخوف، انتهى حفل الآنسة كورنر عمليًّا؛ إذ تعكَّرت روحُه وماتت. فتخللت همهمة الأحاديث المُتواصلة فترات صمتٍ مباغتة ومُربكة. ووقف الرجال المهندمون والسيدات الأنيقات في تجمُّعاتهم الصغيرة المعتادة، لكن مظهر كلَّ واحدٍ منهم يُوحي بأنه يهمس إلى صديقه، وهو في الحقيقة يُحاول استراق السمع إلى جاره. فقد كانت هناك فكرة واحدة شغلت أذهان الجميع.

«يوجَد شخصٌ ما هنا قذف امرأةً صالحة بالبُهتان. ربما أكون أنا الضحية التالية.»

جرت العادة أن عمدة القرية أوَّل مَن يُغادر أي حدثٍ اجتماعي؛ إذ كانت السيدة سكودامور نفسها تنتظِر إشارته. لكن في هذه المناسبة، بادرت الآنسة أسبري بالرحيل. ونهضت من مقعدها دون أن تلفت الأنظار إليها، وهمست للآنسة كورنر.

«شكرًا لك يا عزيزتي جوليا. اسمحي لي أن أنصرف بهدوء. لا أريد أن أُفسد حفلك، لكن أشعر بأن عليَّ العودة إلى الآنسة ماك المسكينة.»

ولكن ما كان لملكة القرية أن تُغادر الحفل دون ملاحظة رعاياها. كان عمدة القرية هو ثاني شخصٍ يردُّ على هذا الانحلال الأخلاقي. فنظر إلى ساعته، والتقت عيناه بعيني زوجته، وطلب منها إحضار فيفيان التي كانت تلعب الجولف مع الميجور بلير المُكتمل الرجولة.

فور أن ابتعدت سيارة العمدة، حدث رحيلٌ جماعي بصورة سريعة ومُكثفة. وقفت الآنسة كورنر تصافح الحاضرين، وكان وجهها الأحمر مُرتبكًا لكن دون أن تُفارقه الابتسامة، في حين أنصتت إلى مجموعة من المُجاملات والأعذار المتنوِّعة. وفي غضون عشر دقائق، تُركت وحيدة في حديقتها، وسط صحراء قاحلة من المقاعد الفارغة وأكواب الشاي المُستهلكة وأقماع الفراولة.

علقت الآنسة كورنر، وهي تشعل سيجارة جديدة، وقعدت لتتأمَّل ما حدث: «حسنًا، أنا ملعونة.»

سرعان ما خرجت الآنسة بايك إلى الحديقة، وإن كانت لا تثِق في كيفية استقبال سيدتها لها.

سألت في شك: «أظنُّ أن الحفل قد انتهى مبكرًا يا سيدتي، أليس كذلك؟»

أجابت الآنسة كورنر بسرعة: «حسنًا، لا بأس في ذلك. يُمكنك البدء في تنظيف المكان. أما أنا فسأعود إلى صديقي الرائع السيد ستريتشي. أوصيك بشدة أن تقرئي أعماله يا سيدة بايك.»

ولكن السيدة بايك كانت تعرف أنه حتى أكثر المُضيفين لامبالاةً لا بد أن يشعر بفشَل حفلٍ ترفيهي تكلَّف تلك التكلفة الباهظة، فأعربت عن شفقتِها.

قالت: «أمر مُخجل ... أتساءل لِمَ حدث ذلك.»

طرفت الآنسة كورنر بعينها ناحية حوضٍ من زهور القرنفل ذات اللون الأحمر الوردي كلون طائر البشروش.

وقالت: «قد يكون ما حدث، يا سيدة بايك، هو النصف الآخر من قصَّتك التي لا نعرفها.»

الفصل الثامن

# تسديد الفاتورة

بحلول اليوم التالي، كان الخوف قد تسلَّل عائدًا إلى عرينه، وعادت حياة القرية الاجتماعية تنساب في هدوء. كان موكب عائلة سكودامور المسائي مُنضبطًا في مواعيده ورقيقًا كعادته. لكن كان هناك فارق واحد.

لم يكن من السهل مصادفة الآنسة كورنر في أي غرفة استقبال. صحيح أن اسمها لم يُحذف من قوائم الدعوات عمدًا؛ لكنه لم يكن يُدرَج أيضًا. ولا يعلم أحد السبب تحديدًا أو يمكن أن يقتنع بضرورة مناقشة هذا الأمر. فاللبيب بالإشارة يفهم.

لم تتأثر الآنسة كورنر بهذا الإخفاق الاجتماعي؛ إذ منحها مزيدًا من الوقت لكتابة حلقاتها القصصية المدرسية الجديدة، التي تدور كلها حول صبيٍّ فاز بالمركز الأول في الاختبارات رغم غش منافسه، ما عُدَّ اتهامًا نوعًا ما لدقة الكتب المدرسية التي نقل منها.

ولكنها اضطرَّت إلى التوقُّف، عندما وصلت إليها فواتير حفل الحديقة. قطَّبت حاجبَيها وهي تكتب الشيكات للأوركسترا والنُّدل والمقاعد المستأجرة والقشدة والثلج. لكن عندما داهمتها قسوة الموقف وأثرت في طبيعتها العملية، انفجرت في نوبة من السِّباب الحار.

وعلى الفور تناولت دفتر مواعيد فارغًا.

وتمتمت: «دعوة إلى منزل ليدي دارسي. لا أريد تضييع هذا اليوم الجميل على عقولٍ ضحلة في حين يُمكنني لقاء موروا. لكن التمشية ستُساعدني في خسارة وزني الزائد.»

أبغضت جوان بروك هي الأخرى أيضًا فكرة التخلِّي عن وقت فراغها الثمين، في فترة ما بعد الظهيرة، بينما كانت ليدي دارسي مُكتئبة بالدرجة نفسها.

حدثت جوان نفسها قائلة: «يجب أن تبقَي بالمنزل يا بروكي. تلك تضحية جسيمة. إنها دعوة إلى الملل، وحديقتي تُناديني.»

لم تكن تلك السيدة الطيبة تعلَم أن الملل لن يكون من قِسمتها، أو أنها مُقدَّر لها صناعة تاريخ القرية. وبينما كانت تجلس أمام صينيَّة الشاي، تُتمتم بكلمات الضيافة المعتادة، تعلقت عيناها الكبيرتان الرماديتان المائلتان إلى الأخضر بحُزن بزهور السوسن المُمتدة على مدِّ البصر، ورفرفت أفكارها مثل الفراشات فوق أزهارها.

كان المشهد بالنسبة إلى جوان، أيضًا، ضبابيًّا كالحلم. فقد بدت غرفة الاستقبال الواسعة بأسطحها المصقولة الداكنة وانعكاسات النباتات الخضراء المُتموجة مثل مغارةٍ وارفة، تنظر منها أيضًا بلهفةٍ إلى الهواء الساخن المُتحرك. كانت تسمع طنين النحلات وهي تضرب بأجنحتها في الهواء الساخن، مثل مجموعةٍ من عجلات المِغزل غير المرئية، في حين ركَّزت بصرَها على خطٍّ أصفر زاهٍ بعيد، عكس الْتقاء الحدائق بمروج زهور الحوزان.

كان حفل الشاي نفس الحفل المنزلي المُعتاد بضيوفه المألوفين وأطقُم الشاي والوجبات الخفيفة؛ وكانت الأجواء كعادتها؛ ملَلًا مشوبًا بالتهذيب، وفضيَّات ضخمة، وكثيرًا من القشدة. تحدثت جوان، بتهذيب، بصوتٍ عالٍ في سمَّاعة أذن أرملةٍ من النبيلات، وأنصتت إلى تبادُل للآراء السياسية، المُستقاة من نفس المصدر؛ وهو مدير الصحيفة الوحيدة التي تقرؤها الصفوة.

رفعت جوان رأسها ولاحت في عينَيها نظرة ارتياح، حين أعلن الخادم عن وصول السيدة بيري؛ إذ كانت زوجة الطبيب من النوع الذي يُثير الإزعاج دائمًا. وفي هذا الموقف، لم تُخيب ماريان أمل جوان. انقضَّت ماريان على الغرفة، بفستانٍ برتقالي اللون، تضوع منه رائحة زهرة الغرنوقي الشرقية. وسرعان ما ألقت قنبلة دخان، دون سابق إنذار، في غرفة الاستقبال الناعسة.

سألت ماريان مُزيحةً السياسات من المشهد: «حسنًا، ما رأيكم في اعتراف الآنسة كورنر؟»

ردَّدت ليدي دارسي سؤالها: «اعتراف؟ ما الذي اعترفت به الآنسة كورنر؟»

أجابت ماريان: «بأنها كتبت الخطاب المجهول الموجَّه للآنسة أسبري. لقد اعترفت بذلك تقريبًا في حفل الحديقة الذي أقامته.»

علقت الليدي دارسي: «لكنه كان مجرد هراء ولغو منها لا أكثر. لِمَ تفضح نفسها؟»

أجابت ماريان: «لتضليلنا بلا شك. وهل هناك مَن يقدِر على كتابة الرسالة غيرها؟ دائمًا ما كانت تغار من الآنسة أسبري. كما أنها تعيش بمُفردها، وأغلب الظن أن الأفكار

السيئة تسيطر على عقلها. يقول زوجي إن كلَّ من يكتب خطابًا مجهولًا هو مريض نفسيًّا.»

أعقب ذلك صمت مُربك؛ إذ كانت كل الحاضرات طيبات المعشر، والفضائح أمر يكاد يكون غريبًا عليهن. ومع إدراكهن أن الفضول ينبض تحت السطح، تنفَّسنَ الصعداء حين أضافت الليدي دارسي، إن جاز التعبير، طبقة القشدة إلى المحادثة.

قالت بفتور: «ليس لدَينا دليل ملموس.»

قالت ماريان في إصرار: «مِن أين لكِ بهذا الدليل؟ لا يوجَد شهود على الخطابات المجهولة مثل الوثائق القانونية.»

أسهبت ليدي دارسي الثرثارة في الحديث أكثر وتحرَّكت إلى موضعٍ آخر من الغرفة بعد أن كانت منزويةً في أحد الأركان.

قالت: «لكن هل مِن شِيَم الإنجليز اتهام شخصٍ لم تثبت إدانته بعد؟»

رفعت زوجة الطبيب زاوية شفتها القرمزية، كاشفة عن أحد أسنانها، فيما يُشبه الزمجرة.

قالت: «المسألة شخصية نوعًا ما بالنسبة إليَّ؛ لأنني اعترضتُ بحكم الطبيعة، على تعليقٍ أبدته بشأن زوجي. هل لي أن أسألك، يا ليدي دارسي، هل من شِيَم الإنجليز التفوه بكلامٍ قد يُسيء إلى سمعة شخص مِهني يعول طفلَين رضيعَين؟»

كانت جوان قد توقفت عن الصياح في سمَّاعة الأذن؛ لأن هذا الحفل ليس بالعادي. وفي خضم حماستها، جالت بنظرها في الضيوف، من السيدة سكودامور المُتَّشحة بالهدوء المتحفظ لآداب السلوك الاجتماعي، إلى فيفيان ابنة العمدة الجالسة في النافذة.

بدا وجه فيفيان، من تحت حافة قبعتها التي كانت على هيئة فطر، طفوليًّا مشربًا بحمرة، وكان فستانها مزركشًا باللون الأزرق السماوي. لكن لاح في عينيها توتر شديد وهي تتحدَّث.

«ربما يكون من الحكمة أن نتوخَّى الحذر.»

تحدثت السيدة سكودامور للمرة الأولى وسألت: «ممَّ نتوخَّى الحذَر؟ لم يحدُث أي ضرر.»

عقَّبت فيفيان: «ليس بعد. لكن قد تكون هذه هي البداية فقط.»

وبينما كانت فيفيان تتحدَّث، سرى وميض أسود مُرتعش، مرة أخرى، عبر الحديقة المغمورة بأشعة الشمس.

كانت ماريان أوَّل من تجاوب مع طبيعة الخوف السامَّة. فجاء صوتها حادًّا حينما انفجرت في هجوم لفظي عصبي.

قالت: «أظن أن مَن يكتب خطابًا مجهولًا هو خطر حقيقي. أينما وقعت جريمة شنعاء — ذهب ضحيتها طفل صغير — وُجِدت خطابات سامَّة كتلك دومًا. أظنُّها نابعة من حسٍّ فكاهي مشوَّه — فليحفظنا الرب — لكنها كلها تزيد من عذاب الأبوَين النفسي. أنا ... أنا أتحدث كأُم. هذا إلى جانب أنها تفسد الخيوط الحقيقية في الجريمة، وتُعرقل عمل الشرطة. عن نفسي لن تأخُذني أي شفقةٍ بأي شخصٍ يكتب خطابات مجهولة.»

عقَّبت السيدة سكودامور بصوتٍ يكاد لا يكون مسموعًا: «أتفق معك. إن أي نوعٍ من أنواع القسوة يُصيبني بالنفور. لكن، في حالةٍ كهذه، سأتصرَّف بقسوة في سبيل الخير.»

شهقت كل الحاضرات لأن مَنبع الحكمة الاجتماعية خرجت عن صمتِها. قطعت فيفيان الصمت بقهقهة عصبية.

قالت: «الآنسة كورنر قادمة من ناحية ممرِّ السيارات.»

على الفور، أعطت الليدي دارسي جوان أول أمرٍ مباشر تتلقَّاه في حياتها.

قالت: «هلا أخبرتِ وليام، إذا سمحتِ يا آنسة بروك، أنني لستُ بالمنزل؟»

لم تُصدق جوان أذنَيها، وانسلَّت إلى الرَّدهة المكسوَّة بالرخام الأبيض والأسود، مثل رقعة شطرنج. ولسوء الحظ، كان الباب الأمامي مفتوحًا، لذا استطاعت رؤية الآنسة كورنر — التي كانت متورِّدة الخدَّين مُتهللة الوجه — وهي تمسح وجهها الذي يتفصَّد عرقًا بينما كانت تنتظِر في مدخل البيت. لكنها كانت قصيرة النظر، لذا لم تتعرَّف على الفتاة، التي احتمت بظل الجدار بينما كانت ليدي دارسي تُملي أوامرها على الخادم همسًا.

عادت جوان إلى غرفة الاستقبال، في الوقت الذي دوَّى فيه الجرس في الرَّدهة. وسمعت همهمة أصوات، أعقبها صمتٌ مُنذر بالشؤم. وفي غضون وقتٍ قصير، سُحِق حصى الممر مرةً أخرى، تحت وطأة خطوات الآنسة كورنر.

تطلَّعت جوان من النافذة، ورأت ظهر الآنسة العريض، وهي تمشي بخُطًى مُتثاقلة عبر ممرِّ السيارات.

ربما لو تمكَّنت جوان من النظر إلى وجه الآنسة، لسكن عقلُها المُضطرِب؛ إذ كان لا يزال متوردًا ومشرقًا.

تحدثت جوان لنحلةٍ طنَّانة عابرة قائلة: «يا لهم من حمقى! لكن هذا ليس بغريبٍ من عقليات تتقبل شخصيتها تلك.»

كانت أشعة الشمس تنهمر بقوة، لكن الآنسة كورنر أعرضت عن الحديقة الظليلة المُرقَّشة بأشعة الشمس، في سبيل نزهةٍ طويلة عَبر الحقول. طفقت تضرب بقدمَيها الطريق المُمتدَّ الوعر، وهي تؤرجِح ذراعَيها، وتتنسَّم روائح حبوب اللقاح الحارة وورود النسرين. تجمَّعت حبَّات من العرَق على جبهتها، وسالت على رقبتِها ووجنتَيها، لكنها لم تمسحها، عندما وصلت إلى النفَق المُظلم بممشى كواكرز.

أصابتها برودة المكان برعشةٍ خفيفة، فأخذت تستحثُّ الخُطى، حتى أوقفها صوت مألوف قادم من ورائها.

سأل الصوت: «أهذا طريق تُرابي؟ لقد اضطررتُ إلى الركض للحاق بكِ.»

ورغم تصريحه هذا، بدا الطبيب بيري هادئًا رابط الجأش، كعادته، في حلَّته الصيفية الخفيفة. وحين علَّق على حالة آنسة كورنر الحزينة، حملت تعابير وجهِه مزيجًا من الألَم والسرور؛ إذ امتزج بطبيعته الرحيمة حماسة جامع تُحَف وجد ضالَّته المنشودة.

قال الطبيب بنبرة لوم: «أنتِ تتصبَّبين عرقًا.»

فسَّرت الآنسة: «كنتُ أحاول بعثرة ذراتي. لكنها وفيَّة للأبد. أفقدها ثم أجِدها في مكانٍ آخر. قيل لي إن جسدي يتألَّف من رطل من الغبار الكيميائي وبرميلٍ من الماء. حسنًا، أجد صعوبةً في تصديق ذلك.»

أصرَّ الطبيب: «ولكن ينبغي عليكِ البقاء في الظل.»

ردَّت: «أكره الظل. تُصيبني هذه الجادَّة بقُشَعريرة كقشعريرة مدفن الكنيسة. وأنا أكره التفكير في الموت.»

وتردَّدت ضحكتها العالية في جنبات الجادَّة.

وقالت: «يَعتبر أهل القرية ذلك دليلًا على أنني لستُ واثقة من مُستقرِّي الأخير. لكني لا أذهب إلى الكنيسة؛ لأني لا أُطيق المواعظ التافهة لذلك الشاب. كل ما يُحسنه هو الإلقاء؛ أما أفكاره، فليست بها روح الأصالة.»

لم يُخفِ الطبيب بيري سروره.

وابتسم قائلًا: «أنتِ وأنا من الأقلية.»

أجابت: «أجل. يتغنَّى به أهل القرية بالطبع. ومع ذلك، عندما يذهبون لحجز أفضل المقاعد في الجنة، أظنهم سيندهشون إلى حدٍّ ما عندما لا يجدون شباك تذاكر هناك. عليهم اللعنة.»

سأل الطبيب بفضول: «أهناك ما يُزعجك؟»

أجابت: «لا. احكِ لي حكايةً طريفة. احكِ لي قصةً طبيَّة تخوض في تلك الأمور التي يتجنَّب المجتمع الراقي الحديث عنها.»

علَّق الطبيب: «الحقائق الطبية لا تكون بذيئةً أبدًا يا جوليا. لكنك تبدين وكأنك تعاطيتِ جرعةً زائدة من التهذيب. تشتكي زوجتي ماريان من الشيء نفسه. وأخذت تتذمَّر بشأن ذلك طيلة الغداء. أظن أنكِ قدمتِ للتوِّ من حفل ليدي دارسي المنزلي؟»

ردَّت الآنسة كورنر: «أجل، أنا قادمة من هناك، لكنني لم أحضرها. أُبلِغتُ، وأنا على الباب، أن ليدي دارسي غير موجودة بالمنزل.»

ولأول مرةٍ يخرج الطبيب عن هدوئه.

قال وهو يربِّت على كتفها العريضة في حنان: «حسنًا، حسنًا يا جوليا، هذا من حُسْن حظك.»

قالت: «أتظن أنني لا أعلم ذلك؟ ... أنتَ نِعم الصديق يا هوريشيو. أُريدك أن تعلم شيئًا ... لقد تركتُ لك جميع أموالي.»

الفصل التاسع

# كوفنتري

رغم غياب سمة الخطر عنه، كان هناك دليل جديد على أن سُم الخطاب المجهول قد انتشر في الأرجاء، حين قرَّر الطبيب بيري وزوجته إقامة حفل التنس الذي يُقيمانه مرَّة كل سنتَين. كان هذا الحدث هو الثاني في برنامج القرية الاجتماعي دائمًا، وفقًا للعرف.

عندما ناقش الطبيب وزوجته قائمة أسماء المدعوِّين، ثارت ماريان ضد فكرة إدراج اسم الآنسة كورنر، لكن لدهشتها، لم يُعارض الطبيب بيري.

قال: «لا تَضمِّيها إلى القائمة قطعًا، إن كنتِ ترين الصواب في ذلك.»

وفي أثناء حديثه، نظر الطبيب إلى الشعر الأشقر الفاتح لميكي ابنه البكري، الذي كان يقفز مثل العلجوم في أنحاء غرفة الطعام. حتى رداؤه السروالي الأزرق حمل آثارًا لأمومة ماريان المُتفانية التي تمثَّلت في التطريز اليدوي الخفيف؛ وبينما كانت تتبعه بعينَيها المُحاطتَين بالهالات السوداء، وهو يسير في مسارٍ مُتعرج كمُخطَّطات درجات الحرارة، تغيَّر تعبير وجهها.

قالت: «لا. إنها بمنزلة دخلٍ سنوي بالنسبة إلينا. لا يُمكننا المجازفة بالإساءة إليها.»

ردَّ الطبيب بهدوء: «لا أرى خطرًا في ذلك. فجوليا أنضج من أن تُضمِر ضغينةً لأحد.»

أُرسِلت الدعوات أخيرًا، بعد شطب كثير من الأسماء غير المُهمة من القائمة؛ إذ كانت زوجة الطبيب انتقائية، وغريبة على القرية في الوقت نفسه؛ لذا لم تكتسب روح الطيبة التي تَسَع العالم كلَّه، التي كانت تُحرك كرم الضيافة في القرية.

لكن، عندما جاءت الموافقات، صُعِقت ماريان برفض إحدى الشخصيات المُهمة. لقد اعتذرت الآنسة أسبري عن الحضور؛ إذ كانت قد أعدَّت نزهةً لتناول الطعام على تلال داونز مكافأة للآنسة ماك.

قالت ماريان: «إنها تُسيء لي شخصيًّا فقط لأنني لم أدعُ مُرافِقتَها إلى الحفل. تبًّا، لماذا يجب أن أفعل ذلك؟ فالآنسة ماك لا تلعب التنس. ولا مجال للدخول المجَّاني إلى حفلي.»

واصل الطبيب ربط ذباب الصيد في صمتٍ، لكن زوجته كانت تعلم بما يدور في ذهنه. سيكون غياب الآنسة أسبري ملحوظًا.

قالت: «سيعتقد الحاضرون أن الآنسة أسبري لم تحضُر بسبب الآنسة كورنر. وسيبدو الأمر كأننا ننحاز لجانب الآنسة كورنر، وموقف الطبيب ينبغي أن يكون حياديًّا. والحق أن المكان هنا لا يتَّسع لهاتَين السيدتَين الوقورتَين معًا. لا بدَّ من إزاحة إحداهما عن المشهد بهدوء.»

وجاء الرفض الثاني بصدمةٍ أكبر؛ لأن زوجة العمدة اعتذرت عن حضور جميع أفراد منزل «ذا هول» بسبب وعكةٍ صحية. حتى الطبيب نفسه انفعل لذلك.

وسأل بحدة: «مَن مرِض منهم؟»

أجابت ماريان: «لم تذكر. حسنًا، لقد دُمِّرنا. سيفشل الحفل.»

تمتم الطبيب وهو يقرأ الرسالة التي كتبَتْها السيدة: «هذا جد غريب. لا يبدو أن زوجة العمدة تُدرك أن التذرع بمرضٍ ليس لي به علم يزيد الطين بلة. تُرى مَن الطبيب الذي استدعوه؟»

لاح الضجر في صوت ماريان وهي تقول: «أوه، لا يُوجَد مريض في العائلة يا عزيزي. هذه حُجة لا أكثر؛ لأنهم لا يريدون مقابلة صديقتك العزيزة، المؤلِّفة المشهورة التي لم يسمع بها أحد من قبل.»

في حقيقة الأمر كان رفض عمدة القرية دليلًا على احترامه لنفسه. فلم يُرِد أن يتذكَّر أنه حطَّ من قدره مع امرأةٍ غريبة الشكل مثل السيدة بيري.

عندما وصلت بطاقة الدعوة إلى منزل «ذا هول» صاح العمدة قائلًا: «أنا لا ألعب التنس.»

اقترحت زوجته: «يُمكنك مشاهدة المباراة.»

سأل العمدة مُستنكرًا: «أأشاهد حفنةً من الحمقى؟ إذا أردتُ مشاهدة التنس، فسأذهب إلى ويمبلدون.»

سألت زوجته: «أأعتذر إذن عن حضورك وأذهب أنا وفيفيان؟»

أجاب العمدة: «لا. اعتذري عن حضورنا جميعًا ... هناك شائعة بشأن خطابٍ ما. ولا أريد أن يرتبط اسمي بفضيحةٍ في القرية.»

حزنت الزوجة إذ تقلَّصت فُرَص فيفيان في لقاء الميجور بلير؛ أما عمدة القرية فسَعِد لأنه وضع السيدة بيري في مكانها. ستفهم من رفضه أنه ليس كلبها ليأتي إليها عندما تُطلِق صفارتها. لا بد أن يحترس الرجل عندما يتعامل مع امرأةٍ مِثلها؛ لا يزال يتذكَّر كيف تلألأت عيناها تحت رموشها، وتحرك شعرُها على خدِّه، عندما همست في أذنَيه.

ومثلما توقَّعت ماريان، لم يُحقق حفلها النجاح المأمول، مع أن جزءًا من الذنب في ذلك يقع عليها. فقد حال انشغالها الزائد بنفسها واضطرابها دون إجادة دور المُضيف جيدًا؛ فكانت إذا تحدثت إلى ضيف شردت عيناها إلى مكانٍ آخر، وكانت نادرًا ما تُصغي إلى ما يُقال لها.

كان الجو، أيضًا، حارًّا خانقًا، مع سماء زرقاء مائلة إلى الرمادي بفعل ارتفاع درجة الحرارة، مما أدى إلى ذوبان المُثلجات في صحونها قبل تقديمها. لكن السبب الحقيقي وراء هذا الإخفاق الاجتماعي كان غياب الآنسة أسبري وجماعة منزل «ذا هول» عن الحفل.

كان ازدواج الواقعتَين يتعذَّر على التفسير ما جعل الضيوف يبدون حائرين يُفكرون في تفسير. ولم يكن هناك مفرٌّ من البحث عن إجابة سؤالهم بأنفسهم، وتوصَّلوا إلى النتيجة نفسها فيما يبدو؛ إذ عندما وصلت الآنسة كورنر لم يكن هناك ذلك التهافت المُعتاد لتأمين شريك لها في اللعب.

كانت الروائية أفضل لاعبة تنسٍ في المنطقة، رغم قصر نظرها، ولها ضربة أمامية قوية مثل ركلة الفرس. قدِمت الآنسة كورنر وهي تحمِل أربعة مضارب تحت ذراعها، وترتدي زيَّ التنس الأبيض الذي كان قصيرًا بلا أكمام، وواقيًا للعينَين.

تهلل وجهها الأحمر المرح، وهي تتأمَّل الملعب، في أثناء انتظارها لصفارة البدء.

قالت وهي تنحني إلى دائرة الجلوس في احترام: «ها قد وصلَت هيلين. أتساءل كيف تبدو مهاراتي. حسنًا، على أي حال، ستعلمون أنني لن أحاول ضرب كرتَين في المرة الواحدة.»

ودوت ضحكتها في أرجاء الملاعب، عندما أشارت إلى الشريط الأزرق الغامق الرفيع المُثبَّت إلى صدرها الأبيض كالثلج. لكنها سرعان ما سئمت التأخير.

وسألت: «هل نحن بانتظار قدوم الملكة؟ ما الذي يمنعنا من البدء؟ هل نقترع على مَن سيلعب في الظل؟ أين شريكي؟»

قبل أن يغدو الصمت مُحرجًا، أسرعت جوان بروك لإنقاذ الموقف.

وسألت: «هل تُمانعين اللعب مع شخصٍ جاهل يا آنسة كورنر؟ أنا لا أجيد لعب التنس على الإطلاق.»

هتفت الآنسة كورنر: «لستُ بالمهارة التي يمكن أن تؤرِّقني. فأنا أحب القتال حتى النهاية، مع تكالب كل الظروف ضدِّي. هيَّا يا ماكدوف.»

لم يبدُ على الروائية أي تأثر بخسارة شعبيتها، لكن كانت هناك لمعة في عينَيها خلف نظارتها، أنبأت عن استعدادها لِفعل أي شيءٍ من أجل الفوز. كانت هذه أول مباراة لها في الموسم، ومع ذلك أظهرت قوةً وسرعة مُنقطعتَي النظير. ولم تحظَ جوان بأي فرصةٍ لإظهار ما يُمكنها فعله؛ إذ كانت الآنسة كورنر تصدُّ كل الكرات.

سارت الآنسة كورنر إلى الشبكة وسدَّدت بقوة، مثل هوراشيوس وهو يُدافع عن الجسر، وراحت ترقص وتقفز فرحًا مثل فقمةٍ حانقة. وحين فازت بالمجموعة — بفضل براعتها فحسب — صافحت خصومها، ثم هنَّأت نفسها.

وعلقت: «سأعطيكِ الفرصة لتأخُذي بثأرك لاحقًا يا آنسة بروك. ما رأيك؟»

وابتسمت لجوان ابتسامةً مُشرقة، لكن القسيس لاحظ روحها القتالية، وتلهف ليُثبت لها أنه مقاتل.

توسَّل إليها قائلًا: «أُريدك أن تلعبي معي لاحقًا يا آنسة.»

ردَّت الآنسة كورنر: «ستتعلَّم الكثير باللعب ضدِّي يا أبتِ. ضعني في زاوية ضيِّقة، مُولِّية ظهري للحائط، وستَجِدني على قدْر التحدي.»

ومع أن الطبيب بيري وجوان والقسيس لم يتركوا جانب الآنسة كورنر مثل الحراس الشخصيِّين كأنهم قد اتفقوا ضمنيًّا على حمايتها من تلك المقاطعة المُبهمة لها التي عكست شعورًا عامًّا نحوها، لم تطلُب الآنسة خدماتهم.

همست الآنسة كورنر للطبيب بيري: «الحفل يفتقر إلى الإثارة قليلًا. دعِ الأمر لي يا هوريشيو. سأشعل الأجواء.»

كان الضعف المُثير للشفقة لحسِّها الفكاهي واضحًا، في أثناء تناول الشاي، حيث نفَّذت مقالب سخيفة، وطرحت ألغازًا عتيقة، وأطلقت دعاباتٍ تقليدية. كما اعتبرت أن عدم استمتاع الحاضرين بما فعلَتْه يعود إلى خللٍ لدَيهم.

والحق أن أغلب الحاضرين كانوا يشعرون بالارتباك وعدم الراحة. كان خبر امتناع الليدي دارسي عن استقبال الروائية في بيتها، قد انتشر في القرية، وشعر الجميع بالدهشة والصدمة؛ إذ كان في ذلك انتهاك لروح الكرم السائدة.

نسِيَت السيدة سكودامور الرقيقة — بسبب خداعها لنفسها الذي هو جزء من الطبيعة البشرية — أنها هي نفسها من بدأت هذا الاضطهاد، وانزعجت من المناخ العدائي

للحفل. وفي وقتٍ لاحق، حين استرجعت ما جرى في الحفل، هنَّأت نفسها على حظِّها السعيد الذي حماها، فيما يبدو، من أي تواصل مباشر مع آنسة كورنر.

وفي المرة الوحيدة التي أخطأت فيها الآنسة كورنر وجلست بجوارها، كانت تُعطي وصفتها الشهيرة لجيلي النعناع لأحد الضيوف؛ لذا اضطرَّت بطبيعة الحال إلى التحديق في الفراغ حتى تركز في المقادير.

أما ليدي دارسي، فقد أومأت للآنسة كورنر إيماءةً مقتضبة، مُتجنِّبة بذلك تجاهلها بشكلٍ فظٍّ ومباشر؛ ولكنها ظلَّت تتجول بلا هدف، مثل بالون مربوط يترجرج على العشب لتتجنَّب اقتراب الآنسة كورنر منها.

بذلت الآنسة كورنر جهدًا جبارًا في مباراة العودة، ولعبت بطاقةٍ حماسية، وكانت تبدو كأنها محصنة ضد الفتور الاجتماعي والطقس الحار على حدٍّ سواء. لكن كان واضحًا من طبيعة تعليقاتها، حين تضرب الكرة خارج الملعب، أنها كانت تلعب من أجل الاستعراض.

هتفت: «اذهبي إلى ... باث. أقصد ... «اذهبي إلى كوفنتري». هذا أقرب.»

حرص المتفرِّجون على عدم تبادل النظرات فيما بينهم، وهم يُصفقون في أدب، احتفاءً بضربتها البارعة التالية.

وعندما فازت الآنسة كورنر بالمجموعة، هنَّأ الطبيب البطلة المُتقطعة الأنفاس.

قال: «ولا ضربة ثانية. لقد أفرطتِ في اللعب كالعادة.»

فخبطته في كتِفه، بتلك الأُلفة التي دائمًا ما كانت تُثير حنق زوجته.

قالت: «لا تقلق بشأني يا هوريشيو. ستنتهي مشاكلي قبل أن تبدأ مشاكلك.»

لم يبتسِم ونظر إليها بإمعان.

سأل الطبيب: «متى سترحلِين؟»

«أتطلُب مني الانصراف؟»

«بالطبع لا. لكن متى ستُسافرين في تلك العطلة؟»

ردَّت: «بعد غدٍ يا جدي.»

سألتها جوان في حسد: «إلى أين ستذهبين؟»

أجابت الآنسة كورنر: «إلى ولاية تيرول النمساوية. سأرتدي سراويل قصيرة، وقبعة مُزينة بالريش، وأنفخ بوقًا، وأذرع الجبال جيئةً وذهابًا طوال اليوم.»

سألت جوان: «هل ستُغلقين منزلك؟»

ردَّت: «بلى. إنه رحيل جماعي. ستذهب السيدة بايك في رحلة سياحية منظمة إلى بلجيكا، وماي إلى بلدة رامزجيت. سأصطحبهما بالحافلة إلى بلدة شلتنهام في الغد، وأتأكد من ركوبهما القطار الصحيح. وبعدها سأعود إلى القرية، وأنعم بليلةٍ هانئة وحدي. وفي عصر اليوم التالي، سأغلق المنزل، وأستقل قطار السفينة المسائي من محطة فيكتوريا.»

مسح الطبيب العرَق عن وجهه كأنه بدأ يشعر بالحرارة فجأة.

وقال: «جيد. التزمي بذلك البرنامج.»

وعدت الآنسة وهي تجمع مضاربها: «سأفعل. أين حقيبتي؟ مَن منكم سرقها؟»

وجد القسيس الحقيبة، تحت أحد المقاعد، فرفعتها الآنسة عاليًا وراحت تنشد:

«مَن يسرق محفظتي لن يضرَّني …

لكن مَن يسلُبني سُمعتي الطيبة، ينتزع مني ما لا يُغنيه ويُفقرني.»

لم تتوقف الآنسة عن الدعابة حتى النهاية، فانتزعت قُبعة القسيس، ومرَّرتها للحاضرين، وهي تُقهقه بصوتٍ عالٍ.

عندما قارن الطبيب تحرُّرها من القيود ومعنوياتها المُرتفعة بالضيوف المُهذَّبين وما أظهروه من انضباطٍ جبان، بدت له أنها الشخص الحي الوحيد وسط رفقة من الأشباح.

لكن الطبيب رآها ظلًّا، ينحسِر عن مسرح فارغ، بعدما أُسدِلت الستارة وتلاشى صوت نغمة عزَفَتها الأوركسترا في الصمت.

الفصل العاشر

# الخطاب الثاني

كان اليوم التالي ملبدًا بالغيوم وحارًّا ورطبًا، مع أصوات قرقعة وهدير لعاصفة رعدية بعيدة توشك على الهبوب. كان يبدو أن الطقس قد أثَّر على مزاج الطبيب بيري؛ إذ كان صامتًا ومشغولَ البال، في أثناء تناول العشاء. وبعد قليل، تحدث إلى زوجته، التي كانت تتناول ملفوفًا وجزرًا نيئَين.

قال الطبيب: «ستمرضين يا ماري آن.»

ردَّت ماريان: «تتحدث مثل الأطباء. أفكاركم رجعية بشأن الطعام. الخضراوات غير المطهية رائعة للبشرة.»

عقب الطبيب: «هذا إن كانت معدتكِ تقدِر على هضمها. لكنك لستِ نعامة.»

قالت ماريان بنبرةٍ ذات مغزًى: «بالطبع لا. فأنا لا أتهرَّب من رؤية الحقيقة.»

رفع الطبيب بيري وجهه الشاحب عن الصحن.

وقال: «على ذكر ذلك، هل رأيتِ الآنسة كورنر اليوم؟»

أجابت: «أجل ... بعد الظهيرة ... بالقُرب من نزل «كينج هيد» ... كانت مترجِّلة لتوِّها من الحافلة.»

أخذ الطبيب ينقر على غطاء المائدة بأصبعه.

قال: «كنتُ قلقًا بشأنها. خشيتُ أن تُنهك نفسها بالركض إلى بلدة شلتنهام في النهار، ولديها رحلة طويلة ومبيت ليلة في القطار. إنها تبحث عن المتاعب. لكنها عنيدة مثل الثور. بالإضافة إلى أنها لم تنَمْ هذا الأسبوع تقريبًا.»

سألت ماريان: «كيف عرفت ذلك؟»

أجاب الدكتور: «من مصابيح منزلها. ليتني أستطيع إقناعها بتناول منوِّم الليلة.»

هبَّت ماريان واقفةً متلهِّفة للتخلُّص من طاقتها العصبية.

سألت: «الدواء المعتاد؟ سأعدُّ واحدًا على سبيل الاحتياط. سيجهز عندما تجهز.»

تأمل الطبيب بيري وعاء زهور الثالوث العائمة بحاجبَين مقطَّبَين، وقال: «لا. سأعدُّه بنفسي. لا أعلم على وجه التحديد المادة التي سيستجيب لها جسدُها، كما أنني أريدها أن تأتي بالتأثير المطلوب.»

في وقتٍ متأخر من الليل، حين كانت ماريان في غرفة الأطفال غارقةً في نشوة حُبها المُفرط لصغيرَيها، خرج الطبيب من الصيدلية وفي يده قنينة زرقاء داكنة صغيرة. وبينما كان يقطع ساحة القرية، كان الظلام يزحف على القرية رويدًا رويدًا؛ ولم يتبقَّ من لوحة الغروب المُذهلة سوى خطٍّ أحمر يسفع السماء. وكانت عائلة سكودامور قد عادت إلى منزل «ذا كلوك»، وبات الشارع مقفرًا مهجورًا.

دوَّت في الأفق البعيد طَرقة ساعي البريد المزدوجة الخافتة. كانت الآنسة كورنر تتَّكئ على بوابة حديقتها. وكانت ترتدي معطفًا من قماش الدَّريل، وتفوح منها رائحة التربة الحمراء الخصبة التي كانت آثارها تُلطخ ثيابها.

صاحت الآنسة: «حسنًا يا هوريشيو. لا أزال أحاول التخلُّص من آثار حفلك.»

قال الطبيب بنبرة لوم: «كان من المُفترض أن تلتزمي الراحة.»

قالت: «كنتُ أعرف أنه أنتَ. عتابُكَ كشفَ هويتك. لقد كسرت نظارتي للتو، لكن لا جدوى من ارتداء فراء زوجتك والتظاهر بأنك عيسو. فصوتك صوتُ هوريشيو بيري.»

سأل الطبيب بنبرة مُشفقة: «هل كُسِرت نظارتكِ؟ لكن لديك واحدة أخرى بالتأكيد، أليس كذلك؟»

أجابت: «تركتُها في محل النظارات عندما كنتُ في شلتنهام في الصباح. لكن اتصلتُ بهم هاتفيًّا، وتعهدوا بإرسالها في أقرب وقتٍ مُمكن، مع عامل توصيل خاص، قبل أن أنطلق في رحلتي. ليباركهم الرب ... وأنت أيضًا يا صديقي.»

مدَّ الطبيب يده بزجاجةٍ صغيرة، وقال بنبرة إقناعية: «سأقبل دعاءكِ إن أخذتِ شيئًا منِّي في المقابل. أعلم أنكِ تكرهين الأدوية، لكن أريدكِ أن تتناولي هذا المُنوِّم تحديدًا الليلة.»

عقَّبت الآنسة كورنر بعبوس: «أدوية قذِرة. أُفضِّل تجربة العلاج بالقبعة لآلام الأسنان على هذا المنوم. أتعرفه؟ تذهب إلى الفراش ومعك قُبعة وزجاجة ويسكي. تُعلِّق القبعة على مقبض فراشك وتشرع في شُرب الويسكي. عندما ترى القبعة ثلاثًا، فقد شُفِيَت آلام أسنانك.»

أنصت الطبيب إلى الدعابة المشهورة في أناةٍ، وتظاهر بالانضمام إليها في الضحك قدْر الإمكان. لكنه عاد إلى الموضوع.

قال: «البستنة مع لعب التنس، بالأمس، مُرهق جدًّا لمريض الضغط المُرتفع. أنا قلق عليكِ يا جوليا. أُحدثك كصديق. وأريدك أن تُنصتي لي مرة واحدة على سبيل التغيير. استعيني بالنوم الكافي على الغد. عِدِيني أنكِ ستأخُذين المنوم.»

قالت الآنسة كورنر: «حسنًا، ناوِلني الزجاجة. أهو السُّمُّ المعتاد؟»

أجاب الطبيب: «لا. أكثر قوة؛ لذا انتبهي للجرعات. أتأذنين لي بالدخول وسكب الجرعة المضبوطة؟»

قالت: «لا. لا يزال لديَّ يدان. ولديَّ عينان أيضًا. ربما أكون عمياءَ مثل الخفاش، لكني رأيتُ كل ما كان يجب رؤيته بالأمس ... إن كان النقد في محلِّه فسأقبله طالما كان بنَّاءً.»

وضحكت ضحكةً عالية، لكن وجهها تحول إلى اللون القرمزي، فبدا القلق واضحًا على ملامح الطبيب.

وألح قائلًا: «لا تدعي هذه المسألة السخيفة تحرمك من النوم الليلة.»

وعدَت الآنسة كورنر قائلة: «لن يحدُث وأتعهَّد لك بذلك يا هوريشيو. بصراحة، إن الأمر لا يُهمني في شيء. أنا لا أجني شيئًا من الناس هنا. عقولهم جامدة مثل الخردل المُجفَّف ... ألديك خطابات لي يا ساعي البريد؟»

توقفَت عن الكلام بغتة، لتبتسِم لساعي البريد البدين الضئيل، الذي كان قد وصل عند البوابة لتوِّه.

أجاب ساعي البريد: «أجل، خطاب واحد، يا سيدتي.»

ألقت الآنسة كورنر نظرةً سريعة على الظرف ثم رفعت حاجبَيها الكثَّين.

قالت: «العنوان مطبوع. لا بدَّ أنه خطاب من أحد المُعجبين اليافعين. أُحب فتياني الصغار حقًّا ... أتسمح لي؟»

رغم هذا التوضيح، لمعت عينا الطبيب بيري خلف نظارته، وراح يُراقب الآنسة كورنر وهي تفحص الخطاب. بعد ذلك، زمَّت شفتَيها، وتغضن وجهها المرح، واهتز جسمها في نوبة من الضحك.

شهقت قائلة: «حسنًا. حسنًا. هذا خطاب مجهول، يتَّهمني بشُرب الخمر سرًّا. أنا، أحد أعمدة حركة الامتناع عن شُرب الخمر، أحتفظ بزجاجة ويسكي في خزانة ملابسي ... يا إلهي، يا إلهي ... انظر، اقرأه بنفسك.»

ولأن الآنسة كورنر أخبرته بفحوى الخطاب، شعر الطبيب أن اعتراضه غير ضروري. وأحس بقليل من نشوة الانتصار عندما خطر القسيس ببالِه. لقد حظي هذه المرة بثقة سيدةٍ.

لاحظ الطبيب أن الخطاب الموجز مكتوب بأحرُف رومانية كبيرة، على ورقٍ من نوعية جيدة. واحتوى على كلمة «متناقص»، وكانت مكتوبة بلُغة سليمة.

سألها: «أمِن المُفترض أن أتعامل مع هذا الخطاب بجدية؟ إنه في غاية السُّخف حقًّا. لا شك أنه مزحة.»

وافقته الآنسة كورنر: «هذا بديهي. لا بد أن مُرسِله هو المُعجب السري للآنسة أسبري. لقد حذَّرتني جوان بروك أنني سأكون الضحية القادمة على الأرجح.»

لاح الفضول في صوت الطبيب: «أقالت ذلك حقًّا؟ إنها شابة ذكية ... حسنًا، ماذا ستفعلين به؟»

قالت: «أهناك أفضل من الاقتداء بالآنسة أسبري؟ سأحرقه.»

سأل: «لكن ... أترين ذلك تصرُّفًا حكيمًا؟»

أجابت: «ولِمَ لا؟ الحالتان مُتطابقتان. لم يُلحِق الخطاب أدنى ضررٍ بالآنسة أسبري؛ لأنه اتَّهمها بالشيء الذي لا يمكن أن يُصدقه أحد لا في الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل. وهذا الخطاب مثله.»

بدا الارتياب على وجه الطبيب بيري؛ إذ تذكَّر التعاطُف الذي غُمرت به الضحية الأولى، وقارنه بشعبية الآنسة كورنر المُتدنية الحالية.

سأل: «إذن ... تريدين منِّي التكتُّم على الأمر؟»

قالت: «الآنسة أسبري فعلتْ ذلك. يبدو أن هذه أكثر طريقة فعالة لنشر الخطاب على نطاق واسع.»

قال الطبيب: «بالضبط. لن أُخبر أحدًا. لكن ... أيمكنني إخبار زوجتي؟»

أجابت: «يمكنك ذلك يا دكتور. نبِّهها أن تُبقي الأمر سرًّا فحسب.»

وعلا صوت الآنسة كورنر بالضحك. وبعد أن ودَّعت الطبيب، ظلَّت كتفاها العريضتان تهتزان، واهتز جسدُها طربًا، في أثناء عودتها إلى الطريق المبلَّط. وعند عتبة بابها، التفتت لتلوِّح للطبيب بيدِها، وطاف صوتها في سكون الليل.

قالت: «اضحك، أيها المُهرج، اضحك.»

أخبر الطبيب بيري زوجته بمسألة الخطاب المجهول، فشعرت بالإثارة من هذه المُستجدَّات المشوِّقة. ولأنها أسرع إلى الشفقة، وأمْيَل إلى الرقة والسماحة، مع اندفاعٍ حارق في القول والفعل، ساورها الندم على شكوكها السابقة، وودَّت لو تُكفِّر عن ذنبها في التوِّ واللحظة.

قالت ماريان وهي تقفِز من فوق الأريكة: «سأذهب مباشرةً إلى السيدة سكودامور، وأُخبرها أننا أخطأنا بشدَّةٍ في الحُكم على الآنسة كورنر. وسأطلب منها أن تأتي معي إلى منزل الآنسة ونصلح الموقف.»

قال زوجها ملحًّا: «اجلسي. لستِ مُنادي البلدة. لقد تأخر الوقت كثيرًا للذهاب إلى منزل «ذا كلوك».»

ردَّت ماريان: «لكن النوم سيهرب من عيني. سأبيت ليلتي أفكر في هذه الروح الجسورة المسكينة، التي يذوب قلبُها كمدًا، وتتظاهر أن الأمر مُزحة لا أكثر. «اضحك، أيها المهرج، اضحك.» مأساة ما بعدها مأساة.»

غطَّت ماريان في النوم، رغم نبوءتها الكئيبة، قبل زوجها بفترةٍ طويلة. وظلَّ هو يتقلب في الفراش لساعات، يُضيء المشعل مرةً تلوَ الأخرى ليتفقَّد ساعته. وعند الساعة الثانية صباحًا تقريبًا، نهض من الفراش، وتسلَّل إلى غرفة النوم الخاصة بالضيوف، التي كانت نوافذها تطلُّ على منزل الآنسة كورنر.

ولأول مرة منذ ما يقرُب من أسبوع، لم يخترق أي ضوءٍ ظلامَ الليل، ليُبلغه أن الروائية لا تزال جالسة إلى الآلة الكاتبة. أخذ الطبيب بيري نفَسًا عميقًا، وسرت بجسده رعشة خفيفة، وعاد إلى غرفته.

كانت الآنسة كورنر لا تزال في فراشها حين أوصل بيَّاع الحليب أول طلبية. وترك زجاجة الحليب على عتبة الباب الخلفي لعدَم وجود خادمة لتفتح له الباب.

ظلَّت الزجاجة في مكانها، غير مفتوحة، عندما قدِمَ صبي الخبَّاز عند الظهيرة تقريبًا. كانت السيدة بايك قد ألغت الطلبات اليومية، لكنه أطاع نداءه الداخلي، ووضع رغيف خبزٍ كبيرًا بجانب زجاجة الحليب، على عتبة الباب، كي يؤنس وحدتَها.

كان مِن المُفترض أن تستقل الآنسة كورنر حافلة الثانية والنصف، ولكن ظلَّ الصمت يُخيم على المنزل حتى انقضى الصباح وحلَّ العصر. ولم يصدُر أي صوت عن البيت باستثناء دقات الساعة، وفي بعض الأحيان، كانت نحلة تطير داخل المنزل، عبر نوافذ بسطة السُّلم المفتوحة.

وفي الواحدة والنصف تقريبًا، دقَّ مساعد النظاراتي، القادم من شلتنهام، جرس الباب الأمامي، لكن لم يُجِبْه أحد، رغم أنه دقَّ الجرس وطرَق الباب مرةً بعد مرة. ولأن لدَيه تعليمات واضحة بشأن تسليم النظارة للآنسة كورنر شخصيًّا، قرَّر أن يستعلِم عن تحركات الآنسة كورنر.

ولم يكد يُغلق بوابة الحديقة، حتى قابل السيدة سكودامور، ومعها ماريان بيري، وأفضى إليهما بمشكلته.

قالت السيدة سكودامور: «ربما استغرقت في النوم.»

وافقتها ماريان قائلة: «أجل. أعطاها زوجي منومًا ليلة أمس.»

علَّق الشابُّ وهو يتفقَّد ساعته: «بهذه الطريقة ستفوتها الحافلة، وأنا كذلك.»

قالت السيدة سكودامور: «أعطِني النظارة. لا داعي لانتظارك. سأتولَّى مسئولية تسليم هذه الطلبية.»

ووقَّعَت على الاستمارة، ثم انضمَّت إلى ماريان، التي كانت تطرق باب منزل الآنسة كورنر الأبيض المصنوع من خشب البلوط بقوة.

وهتفت لاهثة من فرط إثارتها: «قرعت الجرس مرارًا وتكرارًا دون جدوى.»

قالت السيدة سكودامور: «لنذهب إلى الباب الخلفي.»

عندما رأت السيدتان زجاجة الحليب ورغيف الخبز على عتبة الباب، تبادَلَتا النظرات، وفي أعيُنهما سؤال مكتوم. لكن السيدة سكودامور ظلت سيدة الموقف.

وسألت: «ما رأيك أن نبحث عن طريقةٍ ندخل بها إلى المنزل؟»

فدارتا حول المنزل، وإذا بجميع الأبواب والنوافذ مُغلقة بإحكام، مع أن النوافذ البابية العلوية كانت مفتوحة. نظرت ماريان إلى الطريق المُبلَّط، علَّها تعثر على حصًى، لكن دون جدوى. بعد قليل ملأت يدَها بحفنة من التراب، وحزمته في منديلها، ثم قذفته عبر نافذة غرفة نوم الآنسة كورنر.

ونادت بصوتٍ عالٍ: «آنسة كور-نر.»

لم ينبثق الوجه المُتورِّد المألوف، بعينَيه المرحتَين ولا غُرته الشيباء، من بين الستائر. كان الصمت يُخيم على المكان، وبدا كأنه ينتشِر في أرجاء الحديقة.

تمتمت السيدة سكودامور: «إنها نائمة مثل القتيل.»

لم تُعلق ماريان بشيء، لكن تسلَّل إلى ذهنها نفس الفكرة السامة.

وسألت: «أيمكن أن تكون ... أهي ... ثملة؟»

لكن ماريان نفضت الفكرة عن عقلها في جزع.

وهتفت: «لنفعل شيئًا. لنُحطِّم زجاج إحدى النوافذ.»

لكن السيدة سكودامور كانت تعلم بالإجراء اللازم باعتبارها زوجة محامٍ.

قالت: «هذا مُخالف للقانون. يجب أن نُحضر شرطيًّا ليقوم بهذا. زوجك طبيبها. أعتقد أن من الأفضل أن نستشيره في الأمر.»

كان الطبيب يقف في ممرِّ السيارات الخاص بمنزل «سانت جيمس»؛ إذ كان قد رجع لتوِّه من زيارة لأحد المرضى في القرية. لم يسعد كثيرًا برؤية السيدة سكودامور لأنه كان يريد تناول غدائه؛ لكنه فور أن استوعب جوهر حكاية زوجته، قفز عائدًا إلى سيارته، التي غطَّتها طبقة رقيقة من التراب.

قال: «سأُحضر الشرطي جيمس على الفور. سأتولى الأمر من الآن، لا تشغلي بالك يا سيدة سكودامور. سأمرُّ بمنزل «ذا كلوك» وأبلغهم بالخبر. من الأفضل أن تتناولي غداءك يا ماري آن.»

لكن ذهبت جهود الطبيب سُدًى، حين حاول إيقاف فضول زوجته الذي كان يُشبه تيَّار المد الجارف. وعندما عاد من مركز شرطة القرية — والضابط جيمس جالس بجواره — وجد زوجته تنتظره خارج باب منزل الآنسة كورنر المُوصَد.

قالت ماريان: «المنزل صامت صمت القبور.»

وبينما كان الحاضرون يشاهدون الشرطي، وهو يُحطم زجاج نافذة صغيرة على شكل ألماسة حتى يفتح مزلاج النافذة البابية، جاءت أدا، خادمة الآنسة أسبري، بزيِّها الرمادي الأبيض الجذَّاب، تركض عبر الحديقة.

قالت بأنفاسٍ متقطعة: «تريد سيدتي الاطمئنان على صحة الآنسة كورنر.»

كانت الرسالة من وحي خيالها بلا شك؛ إذ بعدما أُمِرت بالعودة إلى سيدتها، ظلَّت تتسكع عبر الحديقة. ولكنهم نالوا استحسانها؛ إذ عندما نظر رجل الشرطة إلى النافذة التيودورية الصغيرة بارتياب، تطوَّعت بفتح الباب.

اكتسب المشهد مسحةً هزلية، عندما غاصت أدا عبر الفرجة الضيقة مثل البهلوان، وركلت ساقاها الهواء. ندت عن ماريان ضحكة هستيرية عالية، دفعت الطبيب إلى إسكاتها بحدة.

همست: «إنه التوتر. أنا مرعوبة.»

كان الثلاثة يُشاركونها رُعبها، في أثناء انتظارهم خارج الباب المهترئ. تذكر الطبيب المرة الأخيرة التي رأى فيها الباب يُغلَق بواسطة سيدة المنزل وشخصيتها النشيطة المُفعمة بالحياة إلى حدٍّ يُهدِّد سلامتها، مثل محرك يعمل بسرعة مضاعفة. ودوى في أذنَيه صوت ضحكتها، وصياحها وهي تودعه: «اضحك، أيها المهرج، اضحك» قبل أن تُسدل الستائر.

عندما فتحت أدا الباب، بزيِّها الرسمي، كان لهذه المسحة الرسمية وقعٌ مُستغرَب، مما زاد الحاضرين رُعبًا فوق رعبهم بطريقةٍ ما.

كان الضابط جيمس أول من دخل إلى المنزل، لكن الطبيب تولى قيادة الجميع عبر السُّلَّم البلوطي المنخفض العريض. أحس الجميع بالصمت المخيم على المنزل، حتى بعد أن كسروه بتحطيم النافذة ليتمكنوا من الدخول.

لقد سُدَّ الجوُّ سدًّا مُحكمًا.

كانت شمس ما بعد الظهيرة تتدفَّق في غرفة النوم الكبيرة المُريحة بما احتوت من أثاث غير مصقول من خشب الجوز الإيطالي. وبالقُرب من النافذة قبعت الآلة الكاتبة التي طالما تحدثت إليها الآنسة، وعلى الجدران عُلقت المرايا التي آنست وحشتها.

كانت الروائية في الفراش، وجهها إزاء الحائط؛ ولذا لم يظهر منها سوى شعرها الأبيض. وحملت الطاولة، التي كانت بجوارها، زجاجة صغيرة زرقاء غامقة وقدحًا فارغًا. كان هناك أيضًا شمعدان فضي قديم، امتلأ طبقُه برقائق الرماد وأعواد الثقاب المستهلكة.

نظر الضابط جيمس إلى المصباح الكهربائي المجاور للفراش نظرةً ذات مغزًى، في حين انحنى الطبيب بيري على الوسادة، ليتمكن من رؤية وجه الآنسة كورنر. وعندما رفع رأسه مرةً أخرى، جعل تعبير وجهه طرح السؤال المُفترض طرحه بلا داعٍ.

سأل الضابط: «هل المُتوفَّاة باردة؟»

أجاب الطبيب: «أجل. لقد مرَّت ساعات على وفاتها.» بعد ذلك، تناول الزجاجة وشم الكأس، وأضاف: «يبدو أنها تناولت جرعةً زائدة من الفيرونال بالخطأ.»

سأل الضابط: «كيف تعلم أن ما حدث كان خطأً؟»

أجاب الطبيب: «لأنها تُعاني من قصر النظر، وقد كُسِرت نظارتها في الليلة السابقة. ها هي على طاولة الزينة.»

أومأ الضابط جيمس برأسه، وهو يلتقِط النظارة المكسورة. لكن اتَّسعت عيناه وهو يوجِّه للطبيب سؤالًا آخر.

سأل: «ما هذا الخطاب الذي كانت تُحرقه؟ يبدو أنه أُحرِق حديثًا.» وأمسك ببقايا الظرف المحروق الذي كان لا يزال يحتفظ بأثر الحبر. وقال: «العنوان مطبوع.»

صاحت ماريان باندفاع: «لا بدَّ أنه الخطاب المجهول الذي اتسلَّمته أمس.»

شهدت شفتاها البيضاوان على شدة صدمتها، لكن كانت سيطرتها على أعصابها مثالية، فعلم الطبيب أنه سيتعيَّن عليه لاحقًا التعامُل مع انهيارٍ عاطفي سيُلِمُّ بها.

نقل الضابط جيمس نظره من الزوج إلى الزوجة، ثم أسرع يحجب مرمى بصر الزوجة، حتى لا تتأثر بأي إشارةٍ تحذيرية من زوجها.

وسأل: «هل تناهى إلى عِلمك، بطريقةٍ ما، يا سيدتي أن بالخطاب ما يزعجها؟»

صاحت ماريان: «لا. أوه، لا. كان الخطاب غير معقول بالمرة؛ تعجز الكلمات عن وصف عبثيته. لقد اتهمها بشُرب الخمر، في حين أنها مُمتنعة عن الخمر تمامًا. وقد اعتبرت الأمر مزحةً لا أكثر.»

«أهناك شيء آخر يا سيدتي؟»

أجابت: «أجل. ذكر الخطاب أنها تحتفظ بزجاجة ويسكي في خزانة ثيابها.»

وقبل أن يستطيع الطبيب إيقافه، اتَّجه الضابط إلى خزانة الملابس، وفتحها على مصراعيها، فكشفت عن صفٍّ من فساتين السهرة مُعلقة على المشاجب.

بعد ذلك، ندَّت عن ماريان شهقة رُعب واتسعت عينا أدا فزعًا، عندما أزاح الضابط الثياب، وأخرج زجاجة ويسكي من خزانة الملابس.

الفصل الحادي عشر

# التحقيق

الانتحار كلمة قبيحة. كان الجميع يتجنَّب ذكرها فظلَّتْ حبيسة النفس. لكن، قبل حلول الليل، امتلأت القرية بالشائعات المتناقضة. فأُشيع أن الآنسة كورنر سقطت ضحية شكوكٍ لا أساس لها من الصحة؛ إذ أثبت كاتب الخطابات المجهولة براءتها — بطريقةٍ بدائية — بوخزةٍ قاتلة من السُّم.

تملك الجميع شعور بالحسرة والندم. قال الطبيب إنها تناولت جرعة زائدة من دواءٍ منوم بطريق الخطأ. وقَبِل الجميع بهذه الرواية لأنها صادرة عن مصدرٍ رسمي موثوق فيه؛ لا سيما أن أساليب الآنسة كورنر العشوائية لم تكن تخفى على أحد، بالإضافة إلى أن واقعة النظارة المكسورة حقيقية.

علاوة على أن الجميع كانوا يميلون إلى تصديق هذه الرواية. ولأن القرية خشيت أن تكون الآنسة قد دُفِعت إلى الانتحار دفعًا، ازدادت إصرارًا على أن تُثبت لنفسها أن اتخاذ مثل هذا المسار المتطرِّف مُستحيل.

لكن، تحت الإثارة التي كانت مثل غثاء السيل، انسلَّ التيار المسموم في خفاء. كانت أدا قد تلقَّت تحذيرًا من كلٍّ من الضابط جيمس والطبيب بيري من أن تتحدَّث عن زجاجة الويسكي. لكنها، وللأسف، لم تكن تهاب الشرطة تمامًا؛ إذ تصادف أن تعاملت معها عن قُرب، وشهدت انحرافها بنفسها. كما أنها كانت ماهرةً في التلميح، ولدَيها دائرة واسعة من الأصدقاء.

سرت الشائعة، من منزلٍ لآخر، بشأن سر خزانة الثياب؛ وفي كل مرة تتكرَّر فيها الرواية كانت تكتسي بصبغة رُعب فريدة. وفي حين أن الشراب الكحولي نفسه له ما يُبرره من أغراض طبية، راود الجميع نفس السؤال.

«مَن هو العدو المجهول، المُطَّلع على دقائق حياة السيدة الخاصة، واستخدم تلك المعرفة، سلاحًا، ليطعنَها في ظهرها؟»

طارد الخوف — الذي لم يعُدْ كومةً مشوهة أو وميضًا أسود — القرية في تلك الليلة؛ فكان مثل خانقٍ يتربص بضحيته في الظلام، وينتقيها بعناية قبل أن ينقضَّ عليها. فأُسدلت الستائر في وقتٍ أبكر من المعتاد، في سابقة لم تحدُث من قبل، وسمعت جدران البيوت الأربعة تداول الفضيحة.

حينما زار الطبيب بيري منزل «ذا كلوك» — وفاءً بوعده — طربت نفسه بالجو العقلاني السوي.

لقد أثبتت السيدة سكودامور رُقيَّها عندما ظلت سيدة الموقف. فلم ينعكس الاضطراب الاجتماعي على سكينة غرفة جلوسها وهدوئها، بألوانها الحيادية الناعمة، ومجموعتها الفريدة من المُنمنمات، وخزاناتها الضخمة المقوَّسة من مُقدمتها التي تحمل أواني العائلة الزجاجية والفضيات. وتضوَّع الجو برائحة أصص البازلاء العطرية المزروعة في غير موسمها، ورائحة الخشب المشتعِل الخفيفة في مصبع الموقد الفولاذي العتيق.

كانت السيدة سكودامور ترتدي ثوب سهرةٍ ذا رقبة طويلة، من الدانتيل الأسود، مُزين بالفضة القديمة وأحجار اليشم. وتلألأ شعرُها الذي صففته بعنايةٍ ورفعته على رأسها، في ضوء المصباح المُظلل، وهي تقرأ بصوتٍ عالٍ لزوجها الذي كان يلصق طوابع البريد في ألبومه. كان مشهدًا يجسد السعادة الزوجية، وكان بمنزلة مُهدِّئ لأعصاب الطبيب.

شكرت السيدة سكودامور الطبيب على زيارته، وقال المحامي إن الحادثة برمَّتها مُزعجة. قَبِل الاثنان تفسير الطبيب لها بأنها نتيجة جرعة زائدة من منوم، أخذتها الآنسة كورنر بسبيل الخطأ، وتمنَّيا أن تذهب الحادثة الحزينة في طيِّ النسيان في المُستقبل القريب.

لكن السيد سكودامور كشف عن أن الخوف قد أثَّر فيه تأثيرًا طفيفًا، كتأثير نقضِ غُرزةٍ واحدة في سترة السهرة الخاصة به، عندما طرح سؤالًا حذرًا.

قال: «ماذا عن الخطاب المجهول؟ أتعتقِد أن الكاتب شخصٌ نعرفه؟»

لكن كلمات الطبيب المُطمئنة أعادت داربي وجوان إلى سكينتهما التي ينعمان بها بجوار الموقد.

قال الطبيب: «بحُكم عملي طبيبًا أرى أن الكاتب مريض نفسيًّا. وأُرجِّح أنها امرأة مصابة بالهستيريا، تحاول التنفيس عن غضبٍ مكتوم. قد يعود ذلك بالنفع عليها لكنه لن يضرَّنا. أما عن إصابتها للهدف، فتلك مجرد ضربة حظٍّ جاءت بطريق الصدفة.»

لكن حين وصل الطبيب بيري إلى منزله، كان عليه مواجهة مهمة أصعب. كانت الرَّدهة الأنيقة القديمة مُظلمة، وبدت كئيبةً وتعجُّ بالفوضى بما تناثر فيها من لعب منسية. ووجد ماريان في غرفة الأطفال مثلما توقَّع. لم تكن قد أبدلت ملابسها لتناول العشاء، وكان لا يزال عليها الطقم الحريري المُتغضِّن الأحمر كالفراولة، الذي كانت ترتديه في غرفة نوم الآنسة كورنر.

بدت على وجهها أمارات القلق البالِغ، وهي تتحدَّث إلى الطبيب بصوتٍ خافت مبحوح.

قالت: «لقد ماتت يا هوريشيو ... لم أستوعب الأمر حينئذٍ.»

أومأ الطبيب وقال: «أجل. وأنا أيضًا أشعر بذلك.»

أعلنت ماريان بعاطفةٍ جياشة: «لا، لن أكون منافقة. أنا أفكر بهما.»

ونظرت إلى الطفلَين النائمَين في سريريهما الفاخرَين. وسألت: «أتعلم ماذا كنت أفعل؟ لقد أخرجتُ دفتر حسابك المصرفي، وأحصيتُ كل الشيكات التي حصَّلناها منها هذا العام ... الأمر في غاية البشاعة ... لقد خسرنا أفضل مريضةٍ لدَينا.»

قال الطبيب: «هذا هراء. نحن لا نعتمِد في دخلنا على الآنسة كورنر وحدَها. ما يؤرِّقني حقًّا هو أنني خسرتُ أحد أصدقائي.»

لم تلحظْ ماريان وجه زوجها المُنهك عندما بدأت تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا.

ثم هتفت: «أعلم، أعلم. لقد كان يومًا مُريعًا، وأشعر بالرعب الليلة. أشعر — بطريقةٍ ما — أن هذه بداية النهاية. لقد تشبَّث طفلي بأصبعي بقبضته الصغيرة. شعرت كأنه يطلُب منِّي أن أعتني به.»

وبينما كان الطبيب بيري يُنصت إليها، فقدَ صبرَه حتى ودَّ لو أنه يضرب امرأة؛ رغم أنه لو فعل ذلك لشكرته ماريان على هذه البادرة الكريمة؛ لأنها تظهر تفهُّمه لطبيعتها الخاصة. لكنه كان مهذبًا لدرجة أعيَتْه عن فهم هذه الدقائق فضيَّع فرصته.

قال ببرود: «تُبالِغين لدرجةٍ عبثية. إنكِ إن قارنتِ ظروفنا المعيشية الرغيدة بنظيرتها بالخارج» — كانت إنجلترا كلها هي «الخارج» بالنسبة إلى القرية — «فستجدين قلقَك محض كفران بالنعمة. أشعر بالخجل منكِ يا ماريان. لو أن الجميع مثلك ما أقدم أحد على إنجاب الأطفال.»

ونظر إلى عينَيها المعذبتَين، وأدرك أنها تكتوي بنيران جحيمها الخاص. ولأنه كان لا يقدر على تحمل فكرة عذاب ليلتها الأرقة، اندفع إلى تصرُّف أحمق.

قال: «لا تقلقي يا ماريان. أنا لا أشعُر بالقلق. لكني أعلم أن وفاة جوليا لن تؤثر علينا ماديًّا. لا تُخبري أحدًا، لكنها تركت كل أموالها لي.»

غمر ماريان شعور بالراحة، أخذ شكلَ عاصفةٍ من الدموع، في حين عانقت زوجها وطفلَيها النائمَين. وبعدما أيقظتهما من نومِهما، تركها الطبيب لتتولَّى مهمة تنويمهما مرةً أخرى، وذهب إلى الطابق السُّفلي لقراءة روايته.

لم يكن قد أمضى وقتًا طويلًا في القراءة، عندما فُتح الباب ووقفت ماريان أمامه تنظر إليه نظرةً غريبة مُتحفِّظة.

سألها: «ما خطبك؟»

«لا شيء.» وأغلقت الباب. ثم قالت: «لقد كنتُ في الصيدلية يا هوريشيو. وحسبت المقادير ... كانت الجرعة التي أعطيتَها للآنسة كورنر قوية جدًّا!»

ردَّ بعدم اكتراث: «بالطبع. لقد تناولت الكثير من المُهدئات حتى صارت تشتكي من أنها لم تعد تُجدي نفعًا معها. أردتُ أن تحظى بقسطٍ وافر من النوم. وكما رأيتِ بنفسكِ، لقد صبَّت جرعةً مضاعفة.»

سألتْ: «أعلم ... هل سيُجرى تشريح للجثة؟»

حملق الطبيب في زوجته.

قال: «ستُغني شهادتي عن التشريح الجنائي؛ لأنني كنتُ أتولى علاجها بصفةٍ مُستمرة. كما أن السيد سكودامور، الذي سيتولى التحقيق في أسباب الوفاة، لن يرغب في إثارة البلبلة.»

«بالتأكيد. سيتكتَّم على الأمر بكل ما أوتي من قوة.»

واصل الطبيب: «لكن، لمصلحتي، سأصرُّ على إجراء تشريح جنائي.»

أطلقت ماريان زفرةً حادة تكاد تُشبه النشيج وقالت: «آه! أستُجريه بنفسك؟»

أجاب: «في ظلِّ هذه الظروف، لا. سأطلب من الطبيب رولينجز القيام به. إنه جرَّاح تابع للشرطة، وهذه وظيفته الطبيعية.»

عانقتْهُ ماريان بقوة حتى كادت تخنقه، وقالت: «أوه، عزيزي، عزيزي. الرب وحدَه يعلم كم أُحب طفليَّ ... وأنتَ. سأنام ملء جفنيَّ الليلة.»

وكان — خلف الستائر المُسدلة — شخصٌ آخر يُحدق عَبر الظلام، كأنه شبكة مضيئة، وكسر سكون الليل بضحكته ... شخص آخر — شخص مجهول — أمضى ليلةً سعيدة، مبتهجًا بفكرة وجود تطوُّرات مستقبلية وافرة في الطريق ...

وكما توقَّع الطبيب، أُدير التحقيق في واقعة وفاة الآنسة كورنر بفطنةٍ وحذَر. ولعدم وجود مؤسسة حكومية مخصَّصة لهذه الأمور الكريهة، أُجري التشريح في مبنى «حظائر تخزين الأعشار» القديم، وهو مبنًى جميل مُشيَّد على الطراز الإليزابيثي. وتولى السيد سكودامور شئون الآنسة كورنر القانونية، بصفته مُحاميها؛ وأعرب اثنان من أبناء عمومتها — لم يكن لها سواهما — عن أسفِهما لوفاتها، وأعلنا حضورهما الجنازة، تمهيدًا لقراءة وصيَّتها على ما يبدو.

عادت السيدة بايك إلى منزل الآنسة كورنر، بعد استدعائها من عطلتها الأولى في القارة الأوروبية، كي تُرتِّب أمور الجنازة وإجراءات بيع المنزل فيما بعد. وحزنت حزنًا بالِغًا على وفاة سيدتها، ولكنها كانت سعيدةً بعودتها إلى إنجلترا، رغم أنها لم تذهب إلى أبعدَ من مدينة أوستند البلجيكية التي كرهتها بشدة.

لم تذهب السيدة بايك إلى أوروبا مرةً أخرى، لكنها واصلت الحُكم على القارة بأكملها، من واقع حنينها إلى الوطن، الذي دام ثماني ساعاتٍ في أحد موانى بلجيكا البحرية. وبهذه الطريقة تُغرس التحيُّزات العرقية في النفوس.

أدلت هي وماي بشهادتهما في التحقيق. أثبتت ماي وفاءها وغباءها البالغ حدَّ البله؛ لكن المُحقق صاغ أسئلته بطريقةٍ تسمح لها بالإجابة بـ «نعم» أو «لا» كما هو مطلوب، ما أشعر الجميع بالارتياح.

أتبع عملية التحقُّق من الهوية الرسمية إفادة الطبيب بيري. قال إنه يشرف على علاج الآنسة كورنر، التي كانت تعيش منذ عرفها فعليًّا تحت حُكم بالموت؛ لأنها مصابة بمرَض في القلب، في مرحلةٍ متقدمة، وارتفاع في ضغط الدم. وأضاف أنها لم تكن تستجيب للنصائح الطبية وتمادت في إجهاد نفسها بصورةٍ خطيرة. فقد انغمست في أعمال بستنةٍ شاقة عشية وفاتها؛ لذا كانت مهيَّأة مسبقًا للاستسلام لجرعةٍ زائدة من الفيرونال، التي سكبتها بسبيل الخطأ.

أَولى المُحقق اهتمامه لواقعة النظارة المكسورة، ولم يُعِر اهتمامًا كبيرًا لأمر الخطاب المجهول. ودعم الطبيب رولينجز، جراح الشرطة القادم من البلدة المجاورة، شهادة الطبيب بيري فيما يتعلق بالحالة الصحية للآنسة كورنر، وسأل أحد المُحلَّفين عن الاتهام المجهول بالإفراط في شرب الخمر المُوجه لقائدة حركة الامتناع عن شُرب الخمر في القرية.

وعندما انتهى كل شيء تقريبًا، أعلن الطبيب رولينجز، عند استدعائه، أن التشريح الجنائي كشف عن امتناع الراحلة عن شُرب الخمر تمامًا. ودعم الطبيب بيري هذه الشهادة، في حين أقسمت السيدة مايك أن سيدتها كانت تشرَب الماء فحسب، لكنها كانت تشرب الشاي بشراهة.

وأعلنت هي وماي أن الآنسة لم تكن تحتفظ بقطرة كحولٍ واحدة في منزلها ولا حتى للضيوف. وقالت السيدة بايك إن زجاجة الويسكي، التي كانت مُخبَّأة في خزانة الملابس، قد تكون الآنسة اشترتها من شلتنهام لتجربتها في علاج الأرق؛ لأنها كانت تكرَه العقاقير وكانت تُفرغ غالبية أدوية الطبيب في البالوعة.

لم يُثِرْ أحد أي وقائع مُحرجة، أو يطرح أسئلةً غير لائقة، وأصدرت هيئة المُحلَّفين الحكم بأن الوفاة «قتل خطأ».

أقيمت الجنازة في اليوم التالي، واقتصرت على الدائرة المُقربة من الآنسة. تولى الطبيب بيري والسيد سكودامور والسيدة بايك وابنا عمومة الآنسة، فحسب، مسئولية تلقِّي العزاء، رغم امتلاء الكنيسة والمقبرة بالمُعزِّين. وأرسل الكثيرون سياراتهم وتكدَّست أكاليل الزهور.

حضر أحد ابنَي عمومتها، من باب الاحترام لا أكثر على ما يظهر، لذا لم يُحضر معه أي زهور؛ لكن الآخر، الذي كان متفائلًا بالوصية، جاء بإكليلٍ من الزهور، وعلَّق بأن «الدم لا يمكن أن يُصبح ماءً»، في إشارة ساخرة غير لبِقة لحملة الآنسة كورنر المُفضَّلة.

لكن أمل المتفائل تحطَّم، بعد عودته إلى المنزل مباشرة، وسماعه وصية الآنسة كورنر في المكتبة. كانت وصيتها قصيرةً ومباشِرة. فقد أوصت بأن تُعطى السيدة بايك راتبًا تقاعديًّا مقداره جنيهان في الأسبوع، وتركت ميراثًا لماي مقدارُه مائة جنيه. وأوصت ببقية التركة، بعد سداد جميع الديون، للدكتور هوريشيو بيري.

أبقى الطبيب عينَيه مُثبَّتتَين على مُكعب أزرق غامق في السجادة الفارسية لئلَّا يقرأ أحد تعابير وجهه. فمع أنه كان يرفع معنويات ماريان، كان هو نفسه يشكُّ في وفاء الآنسة كورنر بوعدها.

تنفَّس الطبيب الصعداء عندما سمع الوصية؛ لذا لم يسأل أي سؤالٍ عن مقدار الأموال المتوقَّع أن يحصل عليها؛ لكن السيد سكودامور أدرك حساسية موقفه وقال بصوتٍ خافت: «سأُزوِّدك بالتفاصيل لاحقًا».

تفقد القريبان ساعتهما، وقدَّمت السيدة بايك نبيذ ماديرا والبسكويت الغني المذاق، لملاءمتهما للمناسبة بحسب رأيها. وبعد فترةٍ قصيرة، غادر القريبان ليلحقا بالقطار فَرَكِبا الحافلة.

وبعد مغادرتهما، أشعل المحامي سيجاره، وأطلع الطبيب بيري على الوضع المالي للآنسة كورنر ببطءٍ وتأنٍّ. فأشار إلى أنها كانت تتحرى الحذَر وعدم المخاطرة؛ لذا استثمرت ثروتها الصغيرة في معاشٍ تقاعدي. وبالإضافة إلى هذا الدخل، كانت تجني مبالِغ مالية كبيرة من كتاباتها، مما أتاح لها العيش في ترَف وبذخ. كذلك كانت تُقدم تبرعات كبيرة للجمعيات الخيرية ومنحت الكثيرين معاشًا تقاعديًّا. صحيح أن هناك رهنًا عقاريًّا على المنزل الذي كلَّف بناؤه آلاف الجنيهات، إلا أن أصولها تتجاوز التزاماتها المادية.

قال المحامي: «بعد حصر كل شيء، ستُغادر الدنيا وهي جديرة بالثناء والإكبار. لقد أنفقت مالها باعتدال ولن يُفقَر أحد بوفاتها. لا شك أن الوفاة، بالنسبة لك، حدثت مبكرًا عن المتوقَّع بضع سنوات. عندما حرَّرت هذه الوصية لصالحك، منذ أربعة أشهر فحسب، أخبرتني أنها ستُسدِّد رهن المنزل من دخلها الخاص، حتى تترك العقار بلا ديون. ومع ذلك، سترِث باقي التركة.»

ابتسم الطبيب بيري وشكر المحامي على معلوماته الدقيقة.

قال: «سأُغادر هذا المنزل أغنى مما دخلته. أنا في غاية الامتنان لصديقتي.»

في طريق العودة إلى منزله، بدا مكتئبًا حزينًا؛ لكن، في النهاية، غلبه هدوءُه. صحيح أنه خسر أغنى مرضاه، لكن لا تزال عيادته أفضل عيادة في المنطقة.

كان أكثر ما يخشاه هو استقبال ماريان للخبر. فمنذ أيام وهي تُحلِّق في فضاء خيالها الواسع. ولم تكن وفاة الآنسة كورنر تعنيها على الإطلاق؛ لأنها لم تُحبها أبدًا. كانت تراها أرومة عتيقة لا بد من اقتلاعها حتى تُفسح مكانًا لشجرتَيها الصغيرتَين.

وجد الطبيب ماريان في الصيدلية، تُحصي أقراص الكبد، وتضعها في صندوق كرتون صغير من أجل روز خادمة الاستقبال لدى الآنسة أسبري.

التفتت ماريان بحدَّة مثل مُذنَّب ملتهب.

هتفت: «كم؟ بسرعة، بسرعة.»

أجاب: «يعتقد السيد سكودامور أنني قد أحصل على ما يقرُب من مائتي جنيه. لا شك أن هذا المبلغ قد يكون قابلًا للزيادة قليلًا. الأمر كلُّه يتوقَّف على ثمن بيع المنزل، وعلى حقوق الملكية الفكرية القليلة المُتبقية.»

فغرت ماريان فاها، وحملقت في زوجها في صمتٍ شديد.

في تلك الأثناء، ومن نافذة غرفة الطعام، رأت الخادمة سيدتَين قادمتَين من ممرِّ السيارات. واستقبلتهما عند الباب الأمامي المفتوح. أفصحت السيدتان عن سبب زيارتهما، وبِناءً على طلبهما، قادتهما عَبر الرَّدهة إلى الصيدلية.

رأى الطبيب بيري الباب يُفتَح، وكان الأوان قد فات لاحتواء إحباط زوجته الجارف.

صرخت زوجته: «مائتان فحسب. كان بقاؤها على قيد الحياة خيرًا لك من موتها.»

همس الطبيب، حين دخلت الآنسة أسبري، تتبعُها الآنسة ماك الوفية: «اصمتي.»

الفصل الثاني عشر

# تحت الأرض

تلا التحقيق في موت الآنسة كورنر تفكُّكٌ تام لنسيج القرية الاجتماعي. كان من المُفترَض ألا تعيق وفاتها سيرَ الحياة بهذا الشكل بالنظر إلى أنها لم تتمتَّع بشعبيةٍ كبيرة في القرية، إلى جانب أنها كانت تُعتبَر وافدةً جديدة على القرية بحسب المعايير المحلية. لكن لم يشأ أحد توزيع أي دعواتٍ خشية الرفض؛ لذا نضجت الفراولة لتتحوَّل إلى مربَّى، وتفتحت الأزهار ليستمتع أصحابها فحسب بجمالها.

حين أدركت الآنسة أسبري تقلُّص الصداقة الرحبة إلى اثنَين أو ثلاثة يجتمعون حول موائد الشاي الخاصة، اتخذت زمام المبادرة من أجل الصالح العام. وعندما التقت بالسيدة سكودامور في ساحة القرية، وجَّهت لها سؤالًا مباشرًا بشأن حديقتها. أظهرت إجابة السيدة سكودامور فهمها لمغزى سؤالها؛ لأنه حين تبلُغ الحدائق أَوْجَ تفتُّحها تُفتَح أبوابها للعامة، إن جاز التعبير.

قالت: «ستكون مثالية الأسبوع القادم. أظنُّ أن حديقتك ستبلغ أَوْجها قريبًا يا آنسة أسبري؟»

ردَّت الآنسة: «أجل، ستكون أفضل ما يكون في القريب العاجل. لديَّ مجموعة جديدة من سوسن الماء آمُل أن ترَيها عندما تتفتح.»

اتخذت السيدة سكودامور قرارها بحسم، وقالت: «أتمنَّى ذلك. لا بد أن تستمرَّ الحياة.» ثم أضافت: «أنوي إقامة حفلٍ في الحديقة الأسبوع القادم.»

علَّقت الآنسة بابتسامة: «إذن لا بدَّ أن نتناقش في التواريخ حتى لا يحدث تعارُض. أنا أتفق معكِ. لا بدَّ للحياة أن تستمر.»

رحَّب القسيس ببطاقة الدعوة التي وصلته لحفل الآنسة أسبري، ورآها علامةً مبشِّرةً على أن الحياة الاجتماعية في القرية بدأت تعود إلى مسارها الطبيعي. كان القلق ينهشه

بشأن مسألة الخطاب الثاني، وبدأت تظهر عليه علامات خصمِه القديم، وهو التوتُّر العصبي. كان القسيس رجلًا لا يأبَهُ بصحَّته على الإطلاق، ولا يُميز المرَض من الصحة؛ لكن الانهيار الذي ألمَّ به كان كارثيًّا حتى صار يفزع من ظهور أي أعراضٍ مألوفة له.

بدا حفل الآنسة أسبري بشيرًا بأيامٍ أسعد في انتظار القرية. فلم يرفض أحد دعوتها، وحتى قُبعة عمدة القرية الطويلة البيضاء، التي لاحت من خلف البوابات، اعتُبرت الختم المُميز لنجاح الحفل. كان الطقس حارًّا في هذا اليوم، مما جعل رطوبة الحديقة الناتجة عن نباتات السرخس مستساغة إلى حدٍّ كبير. عبَّر الجميع عن إعجابهم بزهور سوسن الماء الجديدة، التي كانت بضع شُجيرات قليلة، وهنَّئوا الآنسة على زراعتها.

كانت معنويات جوان بروك المُنفتحة على كل أنواع الترفيه، في أفضل حال وهي تسير بخطواتٍ حذرة على الحواف الضيِّقة للمتاهة المائية الصغيرة. لقد خضع الينبوع البدائي الأصلي الذي يعود إلى العصر التيودوري لكثيرٍ من التعديلات، لكنه ظلَّ وفيًّا للحديقة، إما في صورة الجداول الطبيعية الصغيرة، أو في انحصاره في مجارٍ حجرية ضحلة.

رفعت الآنسة جوان عينَيها مع اقتراب الآنسة ماك، وهي ترتدي أجمل ثيابها، وكان فستانًا من حرير الفولار المطبوع، ذا لونٍ أخضر ضاربٍ إلى الرمادي.

سألت الآنسة ماك: «متى سنخرج في نزهةٍ إلى تلال داونز يا آنسة بروك؟»

تذكَّرت جوان وعدَها للآنسة أسبري وهي تنظر إلى وجه الآنسة المترقِّب.

قالت بعد صمتٍ محرج: «لا أعلم متى سأكون متفرِّغة. يجب ألا تنسَي أننا «خدم للأعيان» يا آنسة ماك.»

لم تُبدِ الآنسة ماك أي أمارات إحباط.

وسألت: «أتُسمِّينها «عبودية» حين تُحبِّين مخدومتك؟»

قالت جوان: «لكني لا أُحب ليدي دارسي.»

عقَّبت الآنسة: «حقًّا؟ إنها تُحسِن معاملتك للغاية.»

ردَّت جوان: «وماذا في ذلك؟ أنا أيضًا أُحسِن معاملتها.»

تحدثت الآنسة ماك ببراءة الأطفال: «حقًّا؟»

وأضافت: «الآنسة أسبري تُحسِن معاملتي كثيرًا، لكني لا أُحسِن إليها دائمًا ... ومع ذلك أُحبها حبًّا جمًّا.»

خطر ببال جوان أن الآنسة ماك ربما مُصابة بتأخُّر عقلي، لكنها سرعان ما نبذت تلك الفكرة، حين نظرت إليها مرة أخرى. فقد كانت المسئولة عن إدارة الحفل حسبما بدا، وأظهرت في ذلك مهارةً فائقة، بما لا يحتمِل الربط بينها وبين القصور العقلي.

اكتفت الآنسة أسبري بجِلستها المُتكلفة على كنبةٍ حجرية، تحت شجر التوت الوارف العتيق، فكانت مثل تمثالٍ أثري عتيق وإن كان لا يزال جميلًا. ومع ذلك، لم تكن منفصلةً عن الواقع تمامًا، مما سمح لها بمراقبة مرافقتها بصفةٍ مستمرة. وقد لاحظت جوان، التي كانت تترقَّب حدوث أي تطوُّرات مشئومة منذ نزهتها، هذه الحقيقة بعدم ارتياح.

فحدَّثت نفسها قائلة: «ثمة شيء غريب بين هاتَين السيدتَين.»

لاحظت جوان — التي كانت لا تزال تؤدي دور المتفرج المُحبب إلى قلبها — أن الحفل حقق نجاحًا تامًّا على ما يبدو، وإن كان مستواه أبسط مقارنةً بحفل الآنسة كورنر. استولت فيفيان ابنة العمدة، بفستانها الوردي الفاتح، على اهتمام الميجور بلير، الذي فرح بذلك على ما يظهر. وشكَّل الطبيب بيري وزوجته رباعيةً دافئة مع المحامي وزوجته، في أثناء احتسائهم الشاي على الطاولة نفسها. حتى وجه القسيس تبدَّد توتُّره بعض الشيء.

عندما أحضرت أدا شطائر الخيار، رحَّبت بها جوان بابتسامةٍ ودودة؛ إذ كان من حُسن حظها أنها لا تكترث بالمعايير والطبقات الاجتماعية.

قالت: «أتحداكِ أن تُقلدي فستاني الجديد يا أدا. لا أريد أن تسرقي منِّي الأضواء مرة أخرى.»

لم تُحاول أدا معارضة الحقيقة الواضحة بأنها تفوق جوان جمالًا، لكنها بذلت أقصى جهدها كي تجعل نبرة صوتها مُقنعة.

وردَّت: «يقولون، آنستي، إن هناك من تروقه الفتيات الداكنات البشرة.»

قالت جوان: «لا أعُدُّ نفسي واحدةً من هؤلاء. لو كنت مكانك لذهبت إلى هوليوود مباشرة.»

قالت أدا: «هذا ما يقوله لي جميع الضيوف؛ لكن صديقتي تقول إن تلك الأجور المرتفعة لها جانبها السلبي. فكثيرٌ من النجوم السينمائيين يعملون أسبوعًا واحدًا في السنة، ويُجبَرون على دفع أقساط الضمان الاجتماعي لبقيَّة السنة.»

سألت جوان التي كانت تعرف كل شيءٍ عن سائق العمدة: «هل نشأت صديقتك هذه في لندن؟»

أجابت: «بلى، آنستي، في حي بيملكو.» ثم خفضت صوتها وقالت: «أعلمتِ أن الطبيب ورث كل أموال آنسة كورنر؟ آلاف وآلاف الجنيهات. تقول صديقتي إنه محظوظ في كِلتا الحالتَين.»

سألت جوان: «كلتا الحالتَين؟ ماذا تقصدين بذلك؟»

ردَّت أدا: «كان محظوظًا عندما أفرغت تلك الجرعة الزائدة الكبيرة. تقول صديقتي إن الجرعة «الصحيحة» كانت ستقتُلها. لقد كانت الآنسة كورنر تسكب أدويته في البالوعة بدلًا من تناولها كما تعلَمين، وقال الطبيب في التحقيق إنه جعل هذا المنوِّم أقوى مفعولًا عن المعتاد.»

بدت جوان غارقةً في التفكير حين رحلت عنها الآنسة حاملةً صينيَّتَها.

حدثت جوان نفسها: «هذا ما تتناقله الألسن في القرية إذن. هؤلاء القرويون أذكياء. أتساءل عن رأي جماعتنا فيما يحدث ... مسكينة آنسة كورنر.»

استغربت جوان افتقادها لتلك المرأة الصاخبة الطيبة وأسفها لوفاتها. فقد كانت مُنعشة مثل الرياح الشرقية في احتقارها الجسور لتحيُّزات أهل القرية، رغم إفراطها في المزاح ودعاباتها القديمة المُملَّة.

ووجدت نفسها تمتعِض من أهداب فستان فيفيان الوردية الفاتحة؛ لأنها ذكَّرتها بالفستان الذي ارتدته الآنسة كورنر في حفلها. كانت تُحملق بحزنٍ بالغ في الحاجز الشبكي حيث يتدفَّق ماء الغدير البُني تحت قوسٍ منخفض مُزيَّن بأوراق سرخس تتقطَّر منها حبَّات الماء، عندما تحدث القسيس إليها.

وسأل: «ماذا يُثير اهتمامك لهذه الدرجة؟»

أجابت: «لا شيء. منبهرة فقط بفكرة وجود جدول جوفي يجري يقينًا في مكانٍ ما تحت الحديقة. يختفي الماء عبر هذا الحاجز الشبكي كما ترى، ولا يصعد إلى السطح مرةً أخرى حتى يبلغ البركة. الأمور المُستترة مُثيرة جدًّا للفضول. أتساءل أين مكان الجدول تحديدًا؟»

«بوسعك أن تسألي الطبيب. إنه يدَّعي قدرته على التكهُّن بمواضع الماء.»

قالت جوان: «سيروقه الأمر.»

علق القسيس بازدراء: «أما أنا فلا يروقني. أكره كل الأمور المُستترة.»

لاحظت جوان أن أنف القسيس أصبح أكثر حدَّة، وفتحتيه أكثر تغطرسًا، بعدما نحل وجهه ورقَّ. صارت ملامحه، مع ظهور أولى علامات المرَض، أشبَهَ بملامح تلوح بها غطرسة إمبراطور روماني، في حين تراجعت ملامح التواضُع والطيبة إلى الخلفية.

علَّقت جوان بنبرةٍ بريطانية مُخففة: «رأيتك من قبل وكنت تبدو أكثر صحَّة. هل عادت تلك الأحلام تراودك مرةً أخرى؟»

أجابت: «لم أزعجكِ بأحلامي من قبل، أليس كذلك؟ ما أقبح رجلًا يستهدف فتاةً مسكينة بائسة بهمومه!»

أصرَّت جوان: «أكنتَ تُحارب رجُلك المجهول مرة أخرى؟»

اعترف القسيس: «أجل. حاربتُه مرات عديدة في الحقيقة. كل ما في الأمر ... أنني لست متأكدًا أنني أحارب إنسانًا.»

شجَّعه الاهتمام البادي في عينَي جوان على الاستفاضة.

قال: «لا شكَّ أن لكلِّ حلم تفسيرًا ما. استيقظت الليلة الماضية لأجد نفسي ملفوفًا بأغطية الفراش مثل شرنقة. إذن لا غرابة حين حلمتُ أنني أصارع السيدة أو السيد غير المرئي، أن أحسَّ بضغطٍ خانق، كأن لفائف تلتفُّ حولي تدريجيًّا حتى الموت.»

انفجرت جوان ضاحكة.

وقالت: «لا تسمح لهذه الأحلام بأن تُصيبك بالكآبة. أنتَ بحاجةٍ إلى تفسير أحلامك بطريقة علمية لا أكثر. لِمَ لا تطلب من القديسة الآنسة أسبري القيام بهذه المهمة؟»

أعرض القسيس عنها، فشعرت بالدهشة والانزعاج، في آنٍ واحد.

وقال: «سأذهب للتحدُّث إليها إذا لم يكن لديك مانع.»

عضَّت جوان شفتيها وهي تشاهد جسد القسيس الطويل ينحني أمام مقعد آنسة أسبري تكريمًا لها. بدا الأمر بعيدًا عن التصديق، لكن خُيِّل إليها أنها لمحت في عينَي الآنسة المُتصوفتَين ذلك البريق الذي يحضر دائمًا عندما تستولي امرأة على رجلِ امرأةٍ أخرى.

لقد أدرك القسيس، مثل غالبية الدبلوماسيين الناجحين في التاريخ، أن أي ملكةٍ تُحب أن تعامَل كامرأة؛ فحمل صوته نبرةَ تبجيل، لكن كانت عيناه أكثر حيادية، وهو يغوص في مقعده بجوار الآنسة.

قال: «أخيرًا. كنتُ أتحيَّن فرصة للانفراد بك.»

قبِلت الآنسة أسبري مدحه، وحين تحدَّثت إليه عن زهور السوسن المائي، وهيلين ويلز مودي، وقاعدة الذهب، وأرواح الحيوانات، وطريقة طهي البازلاء بالبخار في أوراق الخس، نسِيَ القسيس كآبته دون أن يشعر. وبعد قليلٍ علقت الآنسة أسبري على مظهره بتعاطف، أنكرته عليه جوان.

قالت: «تبدو قلقًا. لماذا؟»

تحدَّث الرجل الضخم مثل تلميذ: «أشعر بالخوف. تخيَّلي رجلًا في مثل حجمي يشعر بالخوف. الخجل يتملَّكني. ولكن أخشى ما أخشاه، في واقع الأمر، أن يكون هناك خطاب مجهول آخر.»

كانت الآنسة أسبري تُحدِّق في البقعة التي عاود الينبوع الظهور فيها بعد الإمعان في ظلمة قناته الجوفية القابعة تحت الأرض. كان الينبوع لا يزال ذلك التيار البُني الغامق الذي تسلل من الحاجز الشبكي، رغم انبثاقه، في هيئة رذاذٍ فضي، في بركة ضحلة محاطة بالأزهار.

على عكس جوان التي وجدت في مسار الينبوع المجهول ما أثار فضولها، رحبت الآنسة بعودة الينبوع إلى النور. ورأى القسيس ثمة دلالة رمزية في التوجُّهات العقلية المختلفة.

قالت الآنسة أسبري: «لا داعي للخوف بشأن وصول خطابٍ مجهول آخر. أنا واثقة أن ذلك لن يحدث.»

سأل القسيس بلهفة: «ما الذي دفعك إلى هذا الاعتقاد؟»

أجابت: «لأن ... الكاتب قد مات.»

شعر القسيس بالصدمة من إجابتها.

سأل: «أتقصدين أن الآنسة كورنر كتبت ذلك الخطاب لنفسها؟»

«هذا اعتقادي.»

«لكن لماذا؟ لماذا؟»

أجابت: «لأنها أدركت أن أصابع الاتهام تُشير إليها في مسألة الخطاب الأول. ذلك الخطاب الحقير الذي تلقَّيتُه ... من المؤسِف للغاية أن السرَّ تسرب إلى العلن. ليس لديَّ أدنى شك في أمانتك بالطبع، لكن شخصًا ما استرق السمع إلى حديثنا ... كانت العواقب وخيمةً بالنسبة إليها. لكن الأمر برمَّته مسألة حظٍّ عاثر. فلو لم تسكب تلك الجرعة الزائدة، لذهب الخطاب طيَّ النسيان مع الوقت.»

شعر القسيس بنفاد الصبر بسبب تحول دفَّة الحديث عنه.

وقال: «أتظنين أنها فكرت أنها لو ادَّعت وقوعها ضحيةً لذلك الشقي المجهول هي الأخرى، فستُبعد الشكوك عن نفسها؟»

«نعم. كانت تستهين بذكاء أهل القرية.»

«ولكن ألديكِ دليل على اعتقادك هذا؟»

«بالطبع. لقد ارتدْتُ المدرسة نفسها مع جوليا كورنر. كانت فتاة ذكية، ترتدي ثياب الرياضة لا تنزعها، وتُغطي ساقيها البدينتَين بجوارب لاصقة سوداء. آنذاك، كانت تفخر باستخدام كلماتٍ غير متداولة. كانت كلمة «مُتناقص» من كلماتها المفضلة، وظلت كذلك منذ ذلك الحين.»

«فهمت». ثم خفض القسيس صوته ورفع ذراعه عفويًّا ليمنع عنكبوت «مال» كانت تركض على كمِّه من الابتعاد عنه لكي تجلب له الحظ. ثم أضاف: «لكن ما الذي دفعها إلى ذِكر ... الويسكي؟»

لاحت الشفقة في صوت الآنسة أسبري: «آه، جوليا المسكينة. إنَّ حسَّها الفكاهي هو ما أوردها موارد التهلكة. كِلانا يعلم أنها لا تتناول المشروبات الروحية. لقد اشترت هذه الزجاجة سرًّا لعلاج الأرق لا أكثر. لكني أتخيَّل كيف راق ذلك لحسِّها التهكُّمي حين أخفَتْها في خزانة ثيابها. لا شك أنها لم يخطر ببالها أن أمر الزجاجة سيُكتشَف بعد وفاتها. لأنها ... لم تتوقَّع الموت.»

قال القسيس: «أنا على يقينٍ من ذلك. لقد أحبَّت الآنسة كورنر الحياة حبًّا يمنعها من الإقدام على الانتحار.»

أطبق كلاهما فمَه خشية أن تستدعي الأفكار بعضها؛ إذ على الرغم من أن ميراث الطبيب بيري، المجهول القيمة، كان حديث القرية، لم يشأ أيٌّ منهما التطرُّق إليه؛ إذ اعتراهما شيء من الخوف أن يبدو وثيقَ الصِّلة بوفاتها.

كان هذا لأن حديثهما أقرب لاحتكاكٍ بين عقلَين مستنيرَين — المفهوم فيه أكثر أهميةً من المنطوق — من مجرد حديث مُمل عادي أوجبته الأعراف الاجتماعية. ركضت عنكبوت المال إلى فستان الآنسة أسبري، وتركها القسيس ترحَل دون أن يفطن إلى ذلك؛ إذ كان ينظر إلى الحديقة مُقطب الحاجبَين.

سألت الآنسة أسبري: «ألم تقتنِع بما قلتُه؟»

أجاب القسيس: «بل أزِنه على ميزان العقل. أريد التسليم بفرضيتك كما تعلمين. لذا فالحذر واجب.»

ابتسمت الآنسة أسبري ببرودٍ وقالت: «أفهم ما تعنيه. هناك أمر آخر. قد تراني، بطبيعة الحال، امرأةً عجوزًا أصاب عقلها الخمول، بعد انزوائها عن الحياة الصاخبة. لكني، مِثلك، كنتُ في وسط المعمعة عندما تعاملتُ مع كل أنواع الشخصيات؛ الضعفاء والمنحرفين والسَّفلة. كان لزامًا عليَّ الاستعداد للطوارئ واتخاذ قرارات سريعة. لذا كان

عقلي يسبق مَن أتعامل معه بخطوة. قد لا تُصدق، يا صديقي، لكني لا أزال محتفظة بهذه العادة العقلية.»

طرح القسيس عنه ذلك الشكَّ الذي اعتراه في البداية، وهو يُنصت إلى تفاخُرها الراقي؛ إذ أدرك في أثناء محادثتهما أنها توقعت حقًّا ما كان يُفكر فيه. لو أنها استقبلته في البداية بإبداء التعاطف والشفقة، لادَّعى أنه ينعم بموفور الصحة والعافية، ولغيَّر دفَّة الحديث. غير أن ثرثرتها التافهة جعلته يُفضي لها بمكنون صدره.

غير أنه لم يشأ الاستسلام لها على نحوٍ تام.

قال: «فرضيتك بها خللٌ واحد. لو كانت الآنسة كورنر مشهورة بولعِها بكلمة «مُتناقص»، للاحظ آخرون غيرك هذه الحقيقة.»

اندهش القسيس من ردِّ فعل الآنسة أسبري إزاء فرضيته. فقد ظهرت خيوطٌ مشوهة غير مألوفة بدَّدت صفاء وجهها، واصطبغت بشرتُها الشاحبة بحُمرة قاتمة.

قالت: «لا.» وتردَّد في صوتها صدى غضب مكتوم. «سيكون هذا احتمالًا في غاية البشاعة. فسيعني ذلك أن أحد أصدقائنا مثل ... مثل الدودة في عقولنا يقتات على أفكارِنا ... ويغوص في أخصِّ أسرارنا ليكشفها للآخرين من باب الإساءة النفسية المحضة.»

ردَّ القسيس متوسلًا: «أرجوك، أرجوك. لم أقصد شيئًا من هذا القبيل بالتأكيد.»

خفَّض صوته عندما رأى جوان بروك تتجوَّل في الحديقة. لم تكن جوان على مسمع منهما على ما ظهر، لكنها امتازت بحاسَّة سمع قوية؛ لذا الْتقطت أذناها جُملة من كلام الآنسة أسبري.

«أعني أن بيننا ساديًّا مُتخفيًا.»

أشرق وجه جوان بالفضول؛ إذ أيقظت هذه الكلمات ذكرى قريةٍ حالمة من زمن تيودور تتوهَّج بلون المغيب الوردي، وقصة متسلسلة بعيدة عن التصديق، تُحكى بأسلوب مُثير على ساحة عشبية خضراء عبر شرائح متوهِّجة تُعرَض بفانوسٍ سحري خلف ستائر مسدلة.

الفصل الثالث عشر

# زهور الكتمان المريضة

نجح حفل الحديقة الذي أقامته الآنسة أسبري نجاحًا ساحقًا، مما زاد من دهشة السيدة سكودامور واستيائها، عندما بدأت الردود على دعواتها تفِد إلى منزل «ذا كلوك». فقد قَبِلَ البعض دعواتها في حين رفضَها كثير من الشخصيات المُهمة، فطلبت المشورة من مُحاميها، الذي تصادف أن كان زوجها.

أخبرَها السيد سكودامور، الذي شعر بخطورة الموقف مثلها، بكيفية التصرُّف.

قالت: «ولكن يا عزيزي، نحن لم نؤجِّل حفلًا من قبل.»

قال: «لتكُن هذه الأولى إذن يا حبيبتي. إن لم نفعل، فقد نُخاطر بفشلِها. وستكون هذه أولى تجاربنا مع الفشل أيضًا.»

ردَّت: «أنتَ مُحق، كالعادة، يا عزيزي. لكني أصرُّ على أمرٍ واحد. لا بد من طباعة بطاقات الاعتذار.»

وهكذا صاغت السيدة سكودامور خطة للتعامُل مع ما ألمَّ بها من هلع، عندما أرسلت بطاقات الاعتذار المطبوعة، مُعلنةً عن إلغاء حفلِها بسبب حالة وفاةٍ في العائلة.

لم يحزن القسيس عندما تلقَّى الاعتذار؛ إذ كانت حفلات منزل «ذا كلوك» ذات طابعٍ رسمي إلى حدٍّ ما. ولم يعلم أن البطاقة التي قذفها بفرحٍ شديد في سلة المُهملات، كانت المسمار الأخير في نعش حفاوة القرية؛ لأنه كان قد استعاد معنوياته المُرتفعة السابقة.

لم يعُدْ يرى ذلك الكابوس المقيت؛ إذ كان عقله اللاواعي قد توقَّف عن تعذيبه. كما تقَبل نظرية الآنسة أسبري بعد أن قلَّبها في عقله من جميع الاتجاهات. فهي وإن اضطرَّت إلى قبول الهالة التي أحاطتها بها القرية، فقد ظلَّت نفس المرأة التي شغلت منصبًا منحها سلطات إدارية وتنفيذية لسنوات. ولم يشوش الزمن عقلها أو يُنقِصْ من عزيمتها.

بات في حكم المؤكد أن الآنسة كورنر المسكينة مَن كتبت خطابها المجهول؛ لذا انتهت المِحنة بوفاتها. كان ما حدث، في أسوأ الأحوال، ليس إلا هفوة عقلٍ مسَّه خلل. ومع ذلك، أحسَّ القسيس وكأن شيئًا قذرًا دُفن في اللحظة الحاسِمة بعد إصابته في مقتل.

ظل الطقس مثاليًّا، لذا أفرغ القسيس طاقته الزائدة في ممارسة الجولف، ومساعدة أحد أبناء الأبرشية المُقعَدِين في زراعة حديقته. وبعدما قضى عصرًا شاقًّا لم يخلُ من السعادة في أعمال الزراعة، راح يقطع الحقول المتموِّجة الشاسعة وسط نسيم المساء العليل، في طريقه لتناول العشاء في «ذا هول».

بدت الحياة آنذاك تبتسِم له، وكانت معنوياته مرتفعةً في أثناء تناول الطعام؛ لأنه كان يُحب عمدة القرية وعائلته وضيوفه الذين كانوا يقصُّون قصصًا ودعابات بذيئة أمامه دون أن يخطر ببالهم أنه قد يشعر بالملل. مارس القسيس الجولف كثيرًا مع الميجور بلير، الذي امتاز بقوام رياضي نموذجي، وكان يوصف بالوسامة عادةً بفضل رشاقته.

كانت عينا الميجور الصغيرتان الودودتان تُشبهان عينَي الخنزير قليلًا، وكلما ضحك ضاقت حدقتاهما ليُصبحا كشقَّين صغيرَين. عندما قارب العشاء مُنتصفه، بدأت عيناه تلمعان في بهجة.

قال: «أريد أن أسألكم، قبل أن أنسى، هل تلقَّى أحد منكم خطاباتٍ أيضًا؟»

دقَّ قلب القسيس بعُنف في حين استطرد الميجور بلير يوضح الأمر.

«أعني خطابًا مجهولًا. استلمتُ واحدًا أمس، كان مكتوبًا بحروفٍ كبيرة، كأن كاتبه طفل صغير، وحذَّرني من أنه مُطَّلع على ماضيَّ الشنيع، وأنني سأتلقَّى ما أستحقُّه في القريب العاجل.»

صاح عمدة القرية في حدة: «يا إلهي. ماذا ستفعل بشأنه؟»

أجاب: «لا شيء. لقد مزَّقته. اتخذتُ كل الإجراءات المعتادة بلا شك. هذا ما آمُله في الواقع. لكن لن أدع أحدًا يبتزُّني ويُفلت بفعلته. لستُ أحمقَ لهذه الدرجة!»

علَّق عمدة القرية: «صحيح. عامل تلك الحشرات بازدراء.»

وقالت سيدة تدَّعي أن آراءها لم يأتِ بها أحد قبلها: «لطالما أرى أنه إذا لم يفكر المرء في الأمور السيئة، فبإمكانه أن يُقنع نفسه بأنها لم تحدث. وبالتالي فهي لم تحدث.»

قال زوجها: «ستحصُلين على الخمسة الجنيهات التي رفضتُ إعطاءك إيَّاها اليوم.»

سرَت موجة ضحك حول المائدة. لدى وصول حلوى عنب الثعلب تذكَّرت زوجة العمدة امرأة قروية كانت ترتدي فستانًا بلون عنب الثعلب الأخضر الزاهي في أحد

الأعراس، وسألت إذا كان أحد قد قرأ الصفحة الاجتماعية في جريدةٍ بعينِها. ثم انتهى الأمر عند ذلك وتغيَّرت دفة الحديث.

لكن النقاش ترك القسيس في حالة اضطراب شديدة. لقد ماتت الآنسة كورنر. ووارى جسدها في التراب بنفسه. ومع ذلك لا يزال الشرُّ باقيًا.

فجأة، تذكَّر القسيس حفل السيدة سكودامور المُلغى، وتساءل ما إذا كان له صِلة بالخطاب المجهول المُرسَل إلى الميجور بلير. وخفق قلبه بعُنف وبدأ رأسه يتَّجه إلى احتمالية جديدة مريعة.

تساءل عما إذا كان هناك آخرون من سكان القرية تلقَّوا خطابات مسمومة أيضًا لكنهم تكتَّموا على الأمر. وجال ببصره بين الجالسين حول مائدة العشاء، وخُيل إليه أن بعضهم يَبدون مُرتبكين، أو هادئين بشكلٍ مُبالغ فيه، كأنهم يلتزمون الحذَر.

نفض ظنَّه عن رأسه. وحدَّث نفسه بأن هذا حفل عشاء نموذجي يغلب عليه طابع المرح. بعد الانتهاء من العشاء، مارس الحاضرون ألعاب التوازن السخيفة في غرفة الاستقبال، حتى وجد القسيس الخلاص من خيالاته السوداوية في انبطاحه المُهين والآخرين على السجادة.

سار القسيس إلى منزله تحت ضوء النجوم، وهو يُدخِّن سيجار عمدة القرية الفاخر وشعر بسلامٍ مع العالم، حتى مرَّ بمدفن الكنيسة، حيث يتربَّص الخوف بضحاياه من وراء شهود القبور. وذكَّرته لسعة الهواء الباردة على وجنتَيه أن مِن سِمات القرية ألا تُجاهر بأي متاعب شخصية.

حدَّث نفسه قائلًا: «السبيل الوحيد لمحاربة هذا الشر هو مواجهته في العلن. لكنهم لو رفضوا الحديث فقد انتهى أمرنا.»

كانت مُدبرة منزله قد أضاءت المصابيح في مكتبه، وأعدَّت المشروبات استعدادًا لعودته. وكان كلبه الوفي تشارلز، يحرس وعاء البسكويت، لآخر قطرةٍ من دمه. أطعمه القسيس، وتبادل معه النمائم، ثم مدَّ يدَه لتناول خطابٍ من فوق رفِّ المدفأة.

في اللحظة التالية، شعر القسيس بضِيق في التنفُّس، كأنه تلقَّى ضربة قوية تحت الحزام. كان عنوان الخطاب مكتوبًا بالأحرف الرومانية المألوفة، وعندما فتح الظرف لاحظ نوعيَّة الورق الفاخرة المُميزة للخطابات المجهولة. كان الخطاب مؤلفًا من جملتَين قصيرتَين.

«سيحين دورك. أعرف ماضيك كلَّه.»

عاد القسيس يغوص في مقعده، وسكب لنفسه مشروبًا قويًّا. فلم يُدرك التأثير المُثبط للهمَّة للخطابات المجهولة حتى اختبرَه بنفسه.

ولأن بيوت أهل القرية ليست من زجاج، فلا تكاد تخلو كل حياةٍ من بعض الوقائع المُظلمة، من حماقات أو هفوات مؤسِفة، في غياب الخطايا الحقيقية. لمرةٍ واحدة في العمر، ستشتعل نفس أطهر عمَّال الأبرشية بنيران شهوةٍ غريزية، وستفضح عينا زوجة كاهنها، أكثر النساء حياءً، ذكرياتها الخليعة.

أثار الخطاب انزعاج القسيس لأقصى درجة، ودفعه أيضًا إلى أن يعصرَ ذهنَه وهو يُفتش في ركام ماضيه. كان قد دخل الكنيسة بعد اهتدائه إلى المسيحية الذي سار فيه على خُطى القديس بولس. وفي خلال مرحلة مجونه، استمتع بوقته، ذاهبًا في ذلك كل مذهب، وهو ما ساعده لاحقًا في التعامُل مع العاهرات والسكارى بنجاحٍ وتفهُّم تام.

وبينما كان يسترجع جميع سلوكياته المُشينة، واسترجع ذكرى الكدح الذي تجشمه في حفر طريق محفوف بالمسرَّات يقوده إلى الجحيم مباشرة، كان يبتسِم تارة ويتصبَّب عرقًا تارة أخرى، لكنه في النهاية مسح وجهه وتنفَّس الصعداء.

لقد فعل «الأمور المعتادة» مثل الميجور بلير؛ لذا لم يخشَ الابتزاز. وحذا حذو الميجور ومزَّق الخطاب وطرح بقاياه في المدفأة.

أمضى القسيس الأيام القليلة التالية في جولةٍ من الزيارات الأبرشية. لم يزُرْ فقراء الأبرشية، الذين كان يستمتِع بصحبتهم، بل اقتصر على دقِّ جرس المنازل الكبيرة فقط. وفي كل مرة تقريبًا، كانت مُضيفة المنزل في استقباله؛ ولكن أسوأ شكوكه تحقَّق.

لقد حلَّ جمود تامٌّ على كل مناحي الحياة الاجتماعية في القرية. فلم يلتقِ بأي زائر عادي آخر في أيٍّ من غرف الاستقبال التي دخلها. كانت القرية هامدة، من الشلل الذي يتبع انتشار السُّم.

وفي غضون فترة وجيزة للغاية، وجد القسيس أنه هو نفسه بدأ يتأثر بحالة التشكُّك العامة التي سادت القرية. ففي منتصف حديثٍ ودِّي، خطر بباله فجأة الخطاب المجهول الذي وصل إليه، فراح ينظر عن كثبٍ في وجهٍ باسم لشخصٍ أمامه ويتساءل: «أهذا أنت؟»

حانت له الفرصة يوم الأحد، حين أخذ يرعد ويهدر، بالمعنى الحرفي للكلمة، من فوق منبره. ولا بدَّ من الاعتراف بأنه كان مُستمتعًا، وهو يشجُب ويندِّد بالعدو السري، الذي ينشر السمَّ خصوصًا، والرعية عمومًا لمشاركتهم في الجريمة بعدما حدثت.

كان صوت القسيس يرتفع حتى يمسَّ عنان الأقواس النورماندية وينخفِض حتى يصل إلى أعماق الأقبية؛ راح يتوسَّل إلى الحاضرين لزيارته بشكلٍ خاص، في غرفة القساوسة، أو إرسال خطابٍ حال تعرضهم لاعتداء شخصي.

لم تُثمر خطبته عن أي شيء، باستثناء مجموعةٍ وافرة من الخطابات الداعمة لقضيةٍ مُعينة، والتي كانت مُزينة بكثيرٍ من الحروف المختصرة. وعلى ذلك المنوال، ظل التخثر الذي أصاب الدورة الدموية للقرية يتصدَّى لأي محاولاتٍ لإخراجه.

استبد اليأس بالقسيس، فقرَّر زيارة عمدة القرية باعتباره الأعلى شأنًا من بين أفراد الرعية، ويطلُب منه المشورة. وصل إلى «ذا هول»؛ وإذا بالرجل العظيم جالس في المكتبة، يرثي نفسه، وعلى خدِّه بقعة زرقاء برَّاقة.

قال العمدة: «نحلة»، ثم كرَّر تفسيره آسفًا: «نحلة، نحلة. لسعتْني حينَ كانت زوجتي تنقل سِرب النحل. كنتُ أتفرج فحسب أيضًا. أمر عجيب. زوجتي، التي تَركض فزعًا إذا رأت أرنبًا صغيرًا، تَستطيع ترويض ذلك النحل اللَّعين.»

كان يتحدَّث عن شجاعة زوجته النادرة، عندما دخلت السيدة الضئيلة الشقراء، للسؤال عن وجنة زوجها الملسوعة.

حيَّت السيدة القسيس، وفي عينَيها الزرقاوين الباهتتين قدر من الخوف إذ سمعت عظته الأخيرة.

سألت: «أَوَقعت مشكلة جديدة؟»

دوَّى صوت العمدة: «أي مشكلة؟»

شرح القسيس الوضع العام وطلب مساعدة العمدة.

وقال: «برأيي لا بد من إيقاف هذا الشيء. لذا أتيتُك طلبًا للمشورة.»

أعلن العمدة: «أنت مُحق تمامًا. هذه مهمة الشرطة. سأُكلف الضابط جيمس بهذه المهمة. سيراقب صناديق البريد العمودية وما شابَه.»

ردَّ القسيس: «أجل، فالشرطة على درايةٍ تامَّةٍ بكل الحيل والسُّبل للوصول إلى الهدف. لكنَّ هناك أمرًا يشغلني. ماذا لو كان الكاتب امرأة؟»

قال العمدة: «هذه احتمالية قائمة. فالقرية تكتظُّ بالنساء.»

كانت أمارات الشك لا تزال باديةً على وجه القسيس، فقال: «بالضبط. لكن أتُعجبك فكرة القبض على امرأة؟ لا يروقني ذلك. أتسمح لي باقتراحٍ بديل؟»

قال العمدة: «هاتِ ما لديك.»

قال القسيس: «لديَّ صديق، اسمُه إيجناتيوس براون، من الأغنياء العاطلين. إنه يرى نفسه شارلوك هولمز. وليس ماهرًا كما يظنُّ نفسه، لكنه يتمتع بالفراسة، ولا أحد هنا يستطيع أن يُضاهيه حذقًا. سوف أدعوه للحضور.»

قال العمدة: «لا. لا نريد هواة. سأُكلف جيمس بمباشرة هذا الأمر.»

وبينما كان يتحدث، التقت عيناه بعينَي زوجته. كانت شفتاها مضمومتَين، وأومأت برأسها بقوة علامة الموافقة في البداية، ثم هزَّت رأسها بعُنف علامة الرفض.

كانت الخبرة قد علَّمت العمدة كيفية ترجمة هذه الإشارات المتعارِضة لأنه غيَّر رأيه فجأة.

وقال: «حسنًا. ما رأيك في إرسال خطابٍ لصديقك؟»

بعدما رحل القسيس، التفت العمدة إلى زوجته. كان يستأسِد عليها في العادة، لكنه كان يتبع نصيحتها في بعض الأحيان؛ فهو وإن لم يكن يحظى بفضائل إيجابية، فلا يزال لدَيه بعض المثالب الجيدة.

قال بنبرة رقيقة: «لِمَ تدخَّلتِ في حديثنا يا كاتي؟»

أمسكت السيدة بتلابيب زوجها الضخم بفظاظةٍ كما تفعل مع نحلاتها.

وقالت: «أيًّا كان ما تنوي فعله يا أوسبرت، فلا تستدعِ الشرطة.»

«لماذا؟»

أجابت: «لأنني يا عزيزي، لا أعلم إن كان هذا الرأي صائبًا أم لا ... عن نفسي لا أفهم هذه الأمور، لكن كانت الآنسة كورنر المسكينة تُحدثني عن الكبت النفسي. في بعض الأحيان قد يأخذ الكبت أشكالًا غريبة للغاية.»

بدت البُقعة الزرقاء على وجنة العمدة، أرجوانية اللون؛ إذ احمرَّ وجهه من الغضب.

صرخ قائلًا: «ما الذي تقصدينه بحقِّ السماء؟ من يُعاني من الكبت؟»

«لست ... لست متأكدة، لا أدري.»

قال: «بل تعلمين. أنت تُخفين أمرًا. أهو من أفراد منزلنا؟»

أجابت: «لا أحد. لا أحد.»

فاضت عينا السيدة بالدموع، وكادت أن تصيح نافيةً اتهامات زوجها. لكنَّ سُمَّ الخطابات كان قد انتشر؛ إذ راحت تنظر حولها، ثم خفضت صوتها.

وقالت: «أشكُّ أحيانًا يا أوسبرت في حكمة قرارنا عندما لم نسمح لفيفيان بالزواج من الشاب بيلسون. لقد قُتل في الحرب على أيِّ حال؛ لذا كان من الأفضل ألا نتورَّط مع عائلته.»

زأر العمدة قائلًا: «كفاكِ تلميحًا وأخبريني بما يدور في ذهنك حقًّا.»

واندهش حين انحنت زوجتُه على عنقه الأحمر، ولثمت طيَّةً من طياته.

وهمست: «لا أعرف فيمَ أفكر يا عزيزي. لكن، أرجوك، أرجوك، لا تُقحم الشرطة. أخشى مما قد تُثيره تحقيقات الشرطة من فضائح ومتاعب.»

الفصل الرابع عشر

# اهتزاز الغصن

كما توقَّع القسيس، قَبِل إيجناتيوس دعوته بلا تردُّد. ووصل بسيارته اللانشيستر، عند الظهيرة تقريبًا، حيث كانت الأكواخ المسقوفة بالقش تتوهَّج تحت أشعة الشمس، والنحل ينهل من القرنفل الوردي وزهور المسك. تأمَّل إيجناتيوس المعمار التيودوري من نافذة غرفة مكتب القسيس مُبديًا استحسانه.

وقال: «مكان جميل. ربما آتي للاستقرار هنا بعدما أستقيل من وظيفتي المُعقدة في فعل اللاشيء ... في الحقيقة، بمجرد النظر من النافذة، أراني قد حللتُ جزءًا من مشكلتك الصغيرة.»

ابتسم القسيس عندما سمع تلك الصفة المألوفة، «الصغيرة»، التي يستخدِمها إيجناتيوس دائمًا في وصف مخاوف الآخرين.

كان صديقه قصيرًا ونحيفًا جدًّا؛ يُوحي قوامه الضئيل من بعيدٍ أنه تلميذ، لكن ما إن تقع العين على وجهه تتَّضح الحقيقة؛ إذ كان مليئًا بالتجاعيد ويشعُّ ذكاءً. كما أنه — بعيدًا عن المبالغة — لم يُعانِ من أي عُقد نقص.

وافقه القسيس في ثنائه على القرية حتى وهو يتنهَّد.

وقال: «أجل، إنها رائعة. لا أحد يغادر القرية إلا للموت.»

ألقى إيجناتيوس نظرة سريعة على وجه صديقه المُضطرب. وناداه باسمه القديم الذي كان يستخدمه في الكلية، بينما يربِّت على كتفه العريضة بمزيج من الإشفاق والدعم.

قال: «هوِّن عليك يا تيجر. حدثني عن مشكلتك الصغيرة.»

انفجر الطبيب: «صغيرة؟ ليست بالصغيرة يا رجل. إنها مثل سرطان يتغذَّى على جذور نبتة صحية.»

ردَّ إيجناتيوس: «بالضبط ... كيف؟»

قال القسيس: «إنه الخوف. الجار يشكُّ في جاره. العلاقات الاجتماعية في انهيار.»

علَّق إيجناتيوس: «لحُسن الحظ. هذا مجرد اسم آخر للفضيحة.»

ردَّ القسيس: «لا يا إيجناتيوس، ليس هنا. هذا مكانٌ مثالي، أو بالأحرى كان كذلك.» وبدأ يذرع غرفة مكتبه جيئةً وذهابًا، فيما تدفَّقت الشتائم من لسانه في سَيل عارم.

وقال: «أريدك أن تُحاول استيعاب أهمية هذه القرية بالنسبة إليَّ. لطالما كنت شخصًا ماديًّا. وانخرطتُ لسنواتٍ في بؤرة من الخطايا والآثام حيث ظهر كل من الرجال والنساء بلباس الوضاعة والرذيلة. أعلم أن الروح لو كانت أنقى لرأت ومضاتٍ من النور الإلهي. لكني لم أرَ منها شيئًا. بذلتُ غاية جهدي في طريق الشر. وبعدما انهرتُ أتيتُ إلى هنا ... وأتتني رؤية جديدة. مثلٌ أعلى. لقد وجدتُ الهداية وبُعِثت من جديد.»

توقف عن الكلام بغتةً وضحك بخجَل.

وقال: «آسف. نسيت أنني لستُ واقفًا على المنبر. لكنني حقًّا في ورطة كبيرة.»

ردَّ إيجناتيوس: «إنها بضعة خطابات مجهولة لا ضرَرَ منها. الأمر لا يستحق. فلتُخبرني بكل ما تعرفه عن الخطابات.»

لم يبدُ إيجناتيوس مُنصتًا إلى حديث القسيس. كان أكثر انشغالًا بنفخ حلقاتٍ من الدخان على ما يبدو. ولكنه أومأ برأسه في نهاية الحكاية.

عقَّب قائلًا: «حسنًا. لقد حصلتُ على المعلومات اللازمة. أفهم من كلامك أن عدد سكان القرية ثابتٌ لا يتغيَّر. ألا تستقبلون سكانًا جددًا من حينٍ إلى آخر؟ مَن أحدث الوافدين؟»

عض القسيس شفتَيه.

وأجاب: «فتاة تُدعى الآنسة بروك. إنها مرافقة ليدي دارسي، ومضى على قدومِها بضعة أشهر فحسب.»

«وهل وردت الخطابات بعد وصولها؟»

«أجل. لكنها فتاة جذَّابة، أقصد أنها لطيفة نقية السريرة. هي بعيدة عن كل الشكوك.»

«بالتأكيد. من الواضح أنها آخر شخصٍ يمكن أن تُوجَّه إليه أصابع الاتهام.»

سأل القسيس مندهشًا رغم زوال أثر الكدَر عن وجهه: «لماذا؟»

تحدث إيجناتيوس بنبرةٍ لاذعة: «ألم تُعِرْ أي اهتمامٍ لتعليقي حينما قلتُ إنني ما إن نظرتُ من النافذة حللتُ نصف مشكلتك؟ لا أتحدَّث لإثارة الإعجاب. فور أن رأيت جمال

القرية، علمتُ أنها شريكة في الجريمة مع كاتب الخطابات المجهول. فجمالُها أخَّاذ حتى إن لا أحد يُغادرها بإرادته الحرة مثلما ذكرت ... لم أنسَ تعليقك كما ترى.»

سأل القسيس: «أفي ذلك ضرَر؟ لم يسافر أسلافنا في الماضي وأبلَوا بلاءً حسنًا.»

أجاب إيجناتيوس: «مَن أخبرك بذلك؟ كل ما تعرفه عنهم أنهم لم يعودوا بيننا. تكثُر الطفيليات في الماء الراكد. ويَصدُق هذا على البشر أيضًا. من الخطأ أن يتجذَّر الإنسان في مكانه.»

علق القسيس: «لا أوافقك الرأي. يُمكنني أن أعطيك أمثلةً لأشخاص لم يغادروا بيوتهم قط، لكنهم عاشوا حياةً سعيدة مثمرة.»

قال إيجناتيوس: «أتفق معك. لكن عليك الاعتراف، بدورك، أن لكلِّ قاعدةٍ شواذَّ، وأن شخصًا ما سيتأثر بالسلب من طول المقام. لا تنسَ أنني هنا لحلِّ قضية شاذة. هلا تُخبرني، إن استطعت، عن أقدم مَن سكن القرية دون أن يُغادرها؟»

فكر القسيس برهة.

وقال موضحًا: «عندما قُلتُ إن السكان لا يغادرون القرية أبدًا كان ذلك من باب التغليب. هناك عائلة مارتنز، من منزل «تاورز»، التي أمضت ما يقرُب من عامَين تجوب العالم.»

كان يتحدث بعفوية — غير مُدرك أهمية عودة العائلة الغائبة — وهو يردُّ على سؤال صديقه.

قال القسيس: «منذ بضعة أيام قالت لي امرأة إنها لم تنَمْ تحت سقفٍ غريب لما يقرُب من ثلاثين عامًا.»

قال الرجل بنبرة انتصار: «هي إذن المُشتبَه بها في القضية. مَن هذه المرأة؟»

أجاب القسيس: «آنسة أسبري. هي أول من تلقَّى خطابًا مجهولًا. وبالتأكيد هي أبعدُ ما يكون عن دائرة الاشتباه.»

قال إيجناتيوس: «اترك لي الحُكم في الأمر. سأضع السيدة تحت المراقبة الخاصة.»

ثم أخرج دفتر ملاحظاته وثبَّت عدسته المُفردة بإحكام.

وأضاف: «لقد استنتجتُ من الورقة الفائقة الجودة، وصحَّة الإملاء، والمعلومات الشخصية الدقيقة أن ذلك الشخص المُزعج من دائرتك الاجتماعية الصغيرة حتمًا. والآن أريد أن أعرف أسماءهم، وكل ما يُمكنك أن تُمدَّني به من معلوماتٍ عنهم، لا سيما الآنسة أسبري.»

كان القسيس — الذي لم يكن يعرف الكتابة الاختزالية — مبهورًا بالنقاط والشُّرَط التي ملأ بها صديقه صفحات دفتر ملاحظاته. وكان إيجناتيوس — الذي لم يكن يعرف الكتابة الاختزالية أيضًا — ينتظر هذه الاستجابة من القسيس. لقد أصاب عندما خمَّن أن القسيس سيُعلي من شأن إنجاز بسيط لطالبٍ من كلية التجارة على حساب ذاكرته الاستثنائية.

قال إيجناتيوس: «أريد مقابلة كل هؤلاء الأشخاص في أقرب وقتٍ ممكن. يجب أن تُقيم حفلًا.»

«لن يأتِي أحد.»

أغلق القسيس عينَيه وطقطق أصابعه، كأنه يستدعي ذكرى مُستعصية، وقال: «حسنًا، إذن فليكن نشاطًا ترفيهيًّا ريفيًّا عاديًّا. انتظر. إضاءة مُظللة خافتة. حرارة فرن. رائحة أعشاب مطحونة ساخنة مع الخوخ. زهور داليا مُقحمة في مُربعات الورق المقوى. سمِّ هذا.»

هز القسيس رأسه وهو يقول: «تقصد معرضًا للزهور. لم يحِن الوقت بعد.»

قال إيجناتيوس: «إذن ما باليدِ حيلة. لا مفرَّ من الذهاب إلى الكنيسة إذن. أعدَّ لي مخططًا، على منوال مُخططات المسارح، بأهم المقاعد، واذكر أسماء أصحابها.»

أطاعه القسيس، وأعدَّ مُخططًا تقريبيًّا لمقاعد الكنيسة، رغم استيائه من التشبيه العلماني.

وقال: «عادةً ما تمتلئ الكنيسة بالمُصلين في حضرتي. لذا سترى أكثر رعايا أبرشيتي قبل بدء القداس.»

صحَّحه إيجناتيوس: «تقصد جميعهم. سيأتون لرؤيتي.»

ابتسم القسيس ابتسامةً عريضة ثم استحال تعبير عينَيه إلى الجدية. وقال: «هذه المسألة أسوأ بكثيرٍ مما تظن يا إيجناتيوس. أيمكنني الاعتماد على مساعدتك؟»

أجاب: «لا. تُوحي كلمة المساعدة بتقسيم العمل. يُمكنك أن تترك المسألة كلَّها لي.»

وانحنى إجناتيوس ليربِّت على الكلب، وخاطبه بنبرةٍ متواضعة.

قال إيجناتيوس: «تشارلز ديكنز. لستَ سوى رجلٍ بسيط. هل قدَّم لك أحد غداءً من قبل؟»

قفز القسيس ناحية الجرس والندَم يتملكه لإغفاله إكرام ضيفه. استمتع صديقه بالوجبة البسيطة التي قدَّمها إليه، رغم اعتياده تناوُل الطعام من أيدي كبار الطهاة.

وبعد الانتهاء من تناول الطعام، أصرَّ على الإرسال في طلب مُدبرة المنزل ليُهنئها بنفسه. وفي غضون فترةٍ وجيزة خرَّ نائمًا على العشب.

بعد الانتهاء من تناول الشاي، واصل إيجناتيوس خُطته النظامية.

وقال: «أرى أن نقوم بجولة في القرية. ولا بد أن تُوقِف مَن نصادفه في طريقنا. وتُقدمه إليَّ، على أن تتولى أنتَ مسئولية الكلام، وسأتولى أنا المراقبة.»

لمعت عينا القسيس؛ إذ تذكَّر أمرًا ما فجأة.

قال: «لنذهب لزيارة الكنيسة أولًا.»

وجد القسيس جوان بروك تُنظم زهور المذبح نيابة عن ليدي دارسي كما توقَّع. وسرعان ما لاحظ الإعجاب المتبادل بينها وبين إيجناتيوس؛ فقد التقت أعيُنهما في نظرة عميقة مطوَّلة كما لو أن كلًّا منهما يُقيِّم الآخر.

سارعت جوان تتحدَّث باندفاعها المعتاد.

وسألت: «هل أتيتَ من أجل الخطابات؟»

ألقى إيجناتيوس نظرة مُعاتبة ناحية القسيس.

وسأله: «هل أخبرتَها بذلك؟»

أجابت جوان بسرعة: «لم يفعل. كل ما في الأمر أنه حدَّثني عنك منذ وقتٍ طويل.»

علق القسيس في فخرٍ واضح بذكاء جوان وبُعد نظرها: «شخص آخر غيركَ لديه ذاكرة قوية يا إيجناتيوس.»

ردَّ إيجناتيوس: «يبدو أن أحدهم يحفظ ملاحظاتك جيدًا. إلى أي مدى تمتدُّ ذاكرتك يا آنسة بروك؟»

أجابت: «الربُّ وحدَه أعلم. لكن أكثر الذكريات حضورًا في ذهني هي ذكرى المال الذي سرقتُه من حقيبة أمي.»

قال إيجناتيوس: «أما أنا فأتذكَّر أنني تشاجرتُ مع طفلٍ رضيع يصغُرني حجمًا. أظن أنه كان لديَّ أحد عشر شهرًا، لكن انتابني إحساسٌ رائع حينها. فقدتُ أثر الطفل، ومنذ ذلك الوقت وأنا أشقُّ طريقي في الحياة، بحثًا عن شخصٍ يصغُرني حجمًا، لأُصارعه وأغلبه.»

دوَّت ضحكات جوان عاليًا، بما لا يتناسب مع وجودها داخل كنيسة، فبذل القسيس غاية وُسعه للسيطرة على الموقف.

قال بوقار: «أقدم ذكرياتي هي جلوسي فوق ركبة والدي، في ضوء الموقد، وهو يقصُّ عليَّ الحكايات.»

علَّقت جوان: «لا بد أن أباك كان صغيرًا آنذاك. أكانت القصص عن الملائكة؟»

أجاب: «لا. كانت تُشبه مغامرات ديك تيربن. أظن أنها كانت مُصنفة قصصًا بوليسية.»

وابتسم القسيس لكنه عاد إلى توتره مرة أخرى. أحسَّ إيجناتيوس، الذي كان يتأثر بالأجواء النفسية من حوله، بانقباضٍ طفيف، مثل نبتةٍ حساسة مسَّتها أصابع خشنة.

وراقب بفضول الطبيب بيري، وهو يسير عبر ممرٍّ الكنيسة، ليتعرَّف إلى الزائر بدوره.

قال القسيس مُتصنعًا الودَّ بالمبالغة فيه: «ها قد جاء الرجل المحظوظ. لقد ورث لتوِّه ثروةً ضخمة.»

علق الطبيب بيري بصوتٍ لا يكاد يكون مسموعًا: «هكذا سمعت.»

سألت جوان بحسَد: «هل ستجوب العالم؟ سأفعل لو كنتُ مكانك.»

أجاب الطبيب: «ربما أرحل من عالَمنا إلى العالَم الآخر، لكني لا أعتزم حاليًّا الدوران حوله.»

أصرَّت جوان: «ولكن ألا تشعُر بحماسة غامرة؟»

ردَّ الطبيب: «هذا كلام سابق لأوانه. ستستغرق تسوية التركة طويلًا. وقد لا يجد المنزل مُشتريًا. فسُوقُ العقارات كاسدة.»

قال القسيس: «عندما يُباع أريدك أن تشتريَ لي مجموعة أجراس جديدة.»

نظر الطبيب إلى القسيس نظرةً مِهنية متفحِّصة ولاحظ عينَيه المنتفختَين ووجهه الغائر. قال: «لن أنسى ذلك يا أبتِ. ألا تزال قلقًا بسبب هذا الخطاب العبثي؟»

أجاب القسيس: «بلى، أعترف أنني أشعر بالقلق.»

قال الطبيب: «لا تقلق. تذكَّر المثل العربي: «هي ليلة يا مكاري».»

وابتسم الطبيب، لكنها كانت ابتسامةً كئيبة على نحوٍ غريب، بالنسبة إلى رجلٍ ورث ثروة لتوِّه.

قال الطبيب: «أريد استشارتك يا أبتِ بشأن حالة تتماثل للشفاء في القرية. أظن أنه يجدُر بنا تنظيم رحلة إلى الساحل لتغيير الجو.»

وعندما انتحى الطبيب بالقسيس جانبًا، تحدث إيجناتيوس الذي كان منهمكًا في فحص لوحة جدارية، إلى جوان بصوتٍ خفيض.

وقال: «ملامح ذلك الطبيب لافتة للنظر. يتراءى لي أن بها مسحةَ قداسة. ليت صديقنا القسيس الضخم يُشبهه.»

لم يُعجِب جوان تشبيهه ورمقته بنظرةٍ غاضبة.

وقالت: «لا أوافقك الرأي. أفضل أن يبدو الرجل رجلًا.»

سأل إيجناتيوس بسخرية: «أتُقيِّمين الرجولة بالأرطال والإنشات؟»

لم تكن زلَّة لسان جوان مقصودة؛ لأنها عضَّت على شفتَيها، وبدأت تتحدَّث بسرعةٍ مُبالغ فيها.

قالت: «أنا أُحب الطبيب. لا أمرض قط، لكنني عندما خلعتُ إحدى أسناني أعطاني مخدرًا. فانهلت عليه بسيلٍ من الشتائم ولكمتُه في وجهه. لكنه عاملني بلُطف بالغ. وقال إنني كنتُ مُضحكة فقط بعض الشيء ... أرى أن رميَه بتهمة الخطاب المجهول أمرٌ في غاية السوء.»

نظر إيجناتيوس نظرة مُتحفِّزة كنظرة كلب صيد.

وتمتم: «هو أحدُ المشتبَه بهم إذن؟ لِمَ يا تُرى؟»

قالت جوان: «أرى أن الأمر واضح. يُقال إن الخطابات — باستثناء خطاب الآنسة أسبري — تكشف عن أمورٍ شخصية حسَّاسة. والطبيب، كما تعلم، هو من يملك هذه المزية بحُكم عمله.»

علق إيجناتيوس: «لكن هناك رجلًا آخر، لدَيه فُرَص أفضل وأكثر، لمراقبة منازل الغير والاطلاع على أسرار أصحابها في غفلةٍ منهم.»

«من؟»

«عامل تنظيف زجاج النوافذ.»

«لا يُوجَد واحد في القرية. في العادة يتولى البستانيون أو السائقون تنظيف النوافذ.»

قال إيجناتيوس: «إن كان الأمر كذلك، فينبغي ألا أحرمك من الطبيب، مُشتبهك الأثير.»

امتعضت جوان من نبرة الازدراء الطفيفة التي لاحت في صوته.

فقالت: «لستُ كذلك. أعني أنني لا أفترض ذلك. فالطبيب بيري أرقى من أن يأتي بأشياء كهذه. لا بد أن كاتب الخطاب المجهول ذو عقلٍ مريض.»

ولأن التناقُض كان نزعةً مستحكمة لدى إيجناتيوس، وجد أن من الضروري وضع جوان عند حدِّها.

فقال: «ليس بالضرورة. أعرف رجلًا مهذبًا للغاية، كان رئيسه في العمل يُعذِّب كلبه دائمًا ويُقيده بالسلاسل. ولم يجرؤ هذا الرجل على الاعتراض جهرًا؛ لأن لدَيه زوجة وعائلة

يعولها. لذا كتب خطابًا مجهولًا لرئيسه، أخبرَه فيه أن سلوكه عارٌ على المنطقة، وهكذا لم يضرَّ بنفسه وجاء تصرُّفه بنفعٍ بالِغ على الكلب.»

اكتفت جوان بالابتسام وهي تجمع مُتعلقاتها.

وقالت وهي تنظر إلى الباب الغربي، حيث كان القسيس يُفارق الطبيب: «احمل سلامي لأبتِ.»

انتظر القسيس حتى وصلا إلى ساحة القرية قبل أن يتحدَّث إلى صديقه عن جوان. سأله عرَضًا: «ما رأيك بها؟»

أجاب صديقه: «مثيرة للفضول. عيناها بها مسحة من سِحر الشرق، رغم عدم تهذيب حاجبَيها. وهي مُباشِرة لا تعرف إلَّا اليمين أو اليسار بحسب ما يقتضي الموقف. فلا مجال لأنصاف الحلول مع هذه الفتاة.»

سأل القسيس: «أتعني أنها تتَّسم بالشجاعة وقوة الشخصية معًا؟»

ردَّ صديقه: «أجل.» ثم غيَّر إيجناتيوس دفَّة الحديث. وقال: «أدين لك يا تيجر لأنك أخبرتني بمشكلتك الصغيرة. أبدو كعرَّاف الماء الذي يتكهَّن بمواضعه. فأنا أُمسك بغصن شجرة وأُمرِّره فوق الطبيعة البشرية المُستترة. ولا أعلم إطلاقًا متى سيهتز الغصن.»

ثم وقف مشدوهًا من جمال القصر الريفي الإليزابيثي «ذا سباوت». كانت بوابات القصر الطويلة المُزينة بالمشغولات الحديدية مُشرعة، فاستطاعا بوضوحٍ رؤية سيدة طويلة رشيقة القوام، ذات شعر أشيب مُغطًّى بقطعة من الدانتيل الإسباني الأبيض، وسيدة بدينة وقصيرة كانت ترتدي قميصًا صوفيًّا رغم حرارة الجو.

همس القسيس لرفيقه: «هذه الآنسة أسبري ومرافقتها.»

قال إيجناتيوس: «يا لها من صورةٍ ساحرة. كثيرًا ما تختلف الأشياء عن الظاهر. لذا سأفترض أن السيدة الطويلة الأرستقراطية هي المرافقة، والمرأة العادية القصيرة هي سيدة المنزل.»

قال القسيس: «أنت مُخطئ. في قريتي المثالية، المظاهر ليست خدَّاعة. هيَّا بنا.»

لكن إيجناتيوس تلكَّأ ليُطيل النظر في الحديقة.

وتمتم: «إذن هذه هي الآنسة أسبري. يبدو لي الموقف قابلًا لاحتمالاتٍ كثيرة يا تيجر. امرأتان تعيشان معًا، إحداهما في القمة والأخرى في القاع. إحداهما غنيَّة والأخرى فقيرة. إحداهما في إمرة الأخرى.»

سأل القسيس منفعلًا: «ماذا تعني؟ أتُشير إلى حقيقة أن الآنسة أسبري تدفع راتبًا للآنسة ماك؟»

أجاب: «أجل. تدفع لها مقابل الاستقواء عليها.»

علق القسيس: «هراء. الآنسة أسبري ربَّة عمل طيبة ومُراعية للآخرين. ولو افترضنا جدلًا أنها ليست كذلك، فالآنسة ماك مُخيَّرة. تستطيع حزم أمتعتها والرحيل متى شاءت.»

واصل إيجناتيوس السير، وهو يتأمَّل منظر الأكواخ التيودورية بحاجبَين مقطبَين.

ثم قال: «أجل، تستطيع الآنسة ماك الرحيل، شرطَ عدم تقويض إرادتها. في بعض الأحيان، لا يغادر السجين زنزانته، حتى بعد أن يُفتح الباب له؛ لأن رغبته في الهرب قد انطفأت.»

علَّق القسيس: «تتحدث بحماقةٍ لا تليق برجلٍ ذكي مثلك يا إيجناتيوس.»

قال إيجناتيوس: «ربما. لكن لا تنسَ أن عليَّ التفكير في جميع الاحتمالات القريبة والبعيدة. وأريدك أن تتذكَّر ما سأقوله الآن. إن كان حلُّ مشكلتك يكمُن في ذلك المنزل الفريد فالوضع جِدُّ خطير.»

الفصل الخامس عشر

# روميو من لندن

تأكدت نبوءة إيجناتيوس؛ إذ جذب الفضول أهل القرية إلى الكنيسة بأعدادٍ كبيرة في صباح اليوم التالي. وتبيَّن أن مشهد الزائر المرموق مُخيب للآمال؛ إذ بدا غير لافتٍ للنظر أكثر من المعتاد؛ حيث غاص في مقعده قاصدًا ألا يجذِب الأنظار إليه.

ولكن مع بدء القداس، تبدَّد الجمود الذي يتملَّك الرجل الضئيل بصورةٍ واضحة، وبدأ يظهر اهتمامه بمقعد الآنسة أسبري. ولاحظ بعض الرعيَّة، في استمتاع، انشغاله بخادمة آنسة أسبري.

بدت أدا جميلة بفستانها الأبيض البسيط، الذي حكمت مخدومتها الآنسة أسبري بأنه الرداء المناسب للكنيسة؛ كما أنه لم يكن لها منافس بالمكان؛ إذ توسَّطت في جلستها الآنسة أسبري والآنسة ماك.

ورغم حياء عينَيها الزرقاوين كزُرقة البحر، كانت الآنسة ماك تجيد لعبة جذب الانتباه بحذافيرها، وكانت تعرف الزمان والمكان المناسبَين لإلقاء كتاب صلواتها. وفضح إيجناتيوس اهتمامه بها تمامًا عندما سقط كتابها؛ إذ قفز على الفور عبر الممرِّ لالْتقاطه.

وكان لا بدَّ له من مدِّ ذراعه أمام الآنسة ماك ليُعيد الكتاب إلى الخادمة؛ لكنها بدت غافلة عما يحدث حولها، بينما لم ترخِ الآنسة أسبري عضلة. فجلست الآنسة في مقعدها، جامدة كالتمثال، تُشبك يدَيها بإحكام وتضم شفتَيها في تأمُّل عميق امتزج بتعبير صارم.

كانت عظة القسيس مُثيرة للمشاعر وصادقة في الوقت نفسه، لكن كان إيجناتيوس مُنغلق القلب أمام سحرها، وأصمَّ الأذنَين أمام فصاحة إلقاء صديقه؛ إذ جلس يتأمل جمال أدا، كأنه يشكر الرب الذي وهبَها هذا الوجه الجميل.

ظلَّ إيجناتيوس شارد الذهن وصامتًا في أثناء تناول الغداء، وبعد الفراغ منه خرج للتجوُّل في القرية. وعندما حملته قدماه إلى بوابات قصر «سباوت»، ظهرت أدا في زينتها

المباحة لها في يوم الأحد، مرتديةً فستانًا طويلًا ذا أهداب من قماش الفوال الأصفر، مزخرفًا بأزهار المخملية المطبوعة، وقبعة عريضة كبيرة، كلاهما مُستنسخ من صورة فوتوغرافية من سباق أسكوت للخيل في صحيفة «ديلي ميل» البريطانية.

لم تبدُ أدا مندهشة برؤية إيجناتيوس الذي ألقى عليها تلك الملاحظة الافتتاحية التقليدية.

فقال: «ألم نلتقِ من قبل؟»

علقت أدا على الفور: «لست غبية.»

ردَّ إيجناتيوس: «أرى أنكِ ذكية مثلما أنتِ جميلة. وأنا نفسي، بصفتي رجلًا ذكيًّا، أكره مرافقة الأغبياء.»

علقت أدا: «حسنًا، إذا كنت ذكيًّا لهذه الدرجة، ستعرف أنك لن تنجح معي أبدًا.»

حاول إيجناتيوس بأقصى جهده أن يبدو متواضعًا، لكن بلا جدوى.

فقال: «أعترف أنني لستُ وسيمًا للدرجة، لكني أمتلك سيارة فاخرة.»

لمعت عينا أدا وهي تقول: «أعلم. سيارة لانشيستر. ما رأيك في أن نذهب في جولة بالسيارة؟»

أجاب: «لا. أرغب في التريُّض. أخشى أن أكتسب وزنًا ... لكن إن أتيتِ معي للتمشية، فسأسمح لك باستخدام السيارة الليلة وحدَك. وسأمنحك فرصة اختيار السائق.»

اندهشت أدا من تلميح ذلك الغريب، لكنها أخفت اندهاشها ببراعة فائقة جعلت إيجناتيوس يرمقها بنظرة احترام مُتجدد.

قالت أدا وهي تتَّجه بحكم الفطرة نحو ظلة ممشى كواكرز: «حسنًا، اتفقنا، إذن.»

لم يمضِ وقت طويل على سيرهما تحت أشجار الكستناء، حتى أدركت أدا أن هذه الجولة لن تكون عادية. فلم ينصحها السيد القادم من لندن بتجربة التمثيل في الأفلام كما اعتادت. بل تحدث إليها عن باريس ونيويورك اللتَين تعلم عنهما أكثر منه؛ إذ رأتهما في الصحف المصورة.

ولكن سرعان ما وجدت أدا نفسها في الجزء الخلفي من قصر «سباوت»، مع أنها لم تتذكَّر كيف سارت رحلة العودة.

سأل إيجناتيوس: «هل تُعطيك الآنسة أسبري عصر كل أحدٍ إجازة؟»

ردَّت: «أنا من آخُذها.»

«وهل تكون الآنسة ماك متفرغة أيضًا؟»

«لا.»

«لكن ما نوعية العمل الذي تفعله يوم الأحد؟»

قالت بنبرة لاذعة: «عملها المُعتاد. لا شيء.»

سأل إيجناتيوس: «محظوظة هي الآنسة ماك. ألا تحسدينها؟»

«بالطبع لا.»

حملت نبرة أدا الجازمة إيجناتيوس على توجيه مزيدٍ من الأسئلة إليها.

فسألها: «لِمَ لا؟»

أجابت أدا: «اسأل نفسك.»

حاول إيجناتيوس استخدام استراتيجية أخرى في الهجوم؛ إذ كانت أدا مُتحفزة بوضوح.

فقال: «مسكينة الآنسة ماك. أظنُّها تستحق الشفقة! لا جمال. ولا حيلة لها من أمرها.»

ردَّت أدا بنبرة ناصحة: «ليست جديرة بالشفقة. هي من جنت على نفسها. وها هي الآن لم تحصد أي نفع.»

«أوه. هل حصلت على ترقيةٍ في الفترة الأخيرة؟»

«أجل. كانت تقوم بالأعمال المنزلية مثلنا. لكنها أخذت تتملَّق الآنسة أسبري حتى صارت سكرتيرتها. ومنذ ذلك الوقت وهي تجلس طوال اليوم، مع الآنسة أسبري، ولا تتحدَّث إلينا إلا فيما ندر.»

سأل: «وكيف عرفتِ أنها تملَّقت الآنسة لتحصل على تلك الوظيفة المُمتعة المُتمثلة في التواجد حبيسة مع امرأة عجوز بصفة مستمرة؟ ربما بادرت الآنسة أسبري إلى ترقيتِها بناءً على كفاءتها.»

قالت أدا مُصحِّحة: «لم أدَّعِ أنني أعرف ذلك يقينًا أبدًا. لقد قلت إنها تملَّقت الآنسة أسبري. سمعتُها وهي تتحدَّث معها أثناء الطعام.»

سأل إيجناتيوس: «أي طعام؟»

أجابت: «على العشاء. هل تُصدق أنها تريد أن تتناول نفس الطعام الذي نتناوله في المطبخ؟»

سأل: «وهل تحققت لها رغبتها؟»

ردَّت: «أجل، بعد فترةٍ قصيرة. فالآنسة طيبة جدًّا.»

جدَّ إيجناتيوس في السير، قارعًا جذوع الأشجار التي يمرُّ بها بعصاه، دون أن يدري.

وسأل: «ألا تخرج الآنسة ماك أبدًا؟»

شرحت أدا: «إنها بدينة جدًّا وكسولة. كانت بشرتها نضرة بعض الشيء فيما مضى، لكنها الآن شاحبة بيضاء كالشمع. أعتقد أنها تتناول الكثير من النشويات.»

قال إيجناتيوس: «قد يكون لذلك تفسير آخر. ربما يكون هناك شرخ في العلاقة بينك وبين الآنسة ماك. هل تحاول إملاء أوامرها عليكم؟»

أجابت: «بلى، تحاول فعل ذلك دومًا، لكننا نسخر منها مباشرة وفي وجهها. ليتك سمعتها. تقول: «أنا المسئولة هنا».»

وتشامخت برأسها بقوة، حتى إن قبعة الكرينولين الخفيفة تحركت من مكانها، وألقى بها النسيم على الأرض. لم تلحظْ أدا أنها أضاعت قُبعتها؛ إذ واصلت حديثها في تباهٍ.

قالت: «إن استقلتُ من وظيفتي، فستُضطر الآنسة أسبري لتدريب خادمة جديدة. لكن إن استقالت الآنسة ماك من عملها، فسيتنافس المئات على وظيفتها.»

قال إيجناتيوس: «لديك ذاكرة تحتفظ جيدًا بالأمور التي تسمعينها بالمصادفة يا أدا. هل الآنسة أسبري تُحب الآنسة ماك؟»

أجابت أدا بحذر: «الآنسة أسبري تُحسِن معاملتنا جميعًا.»

سأل إيجناتيوس: «هل توبِّخ أحدًا؟»

ردَّت: «لا. تكتفي بالقول: «لقد أنذرتك. لن أُكرر تحذيري مرتَين. في المرة القادمة، ستغادر المنزل».»

سأل إيجناتيوس: «هل أنذرتكِ من قبل يا أدا؟»

ردَّت: «لم تُحذرني هي. إنها تعلم أن الخادمات المتمرِّسات كالعملة النادرة.»

سألت: «وهل أنذرت الآنسة ماك؟»

أجابت أدا ضاحكة: «وما جدوى ذلك؟ فلن تستطيع إقناعها بالذهاب أبدًا. ضعها عند الباب الأمامي، وستدخل لك كالجرو من الباب الخلفي. سمعت الآنسة أسبري، بأُذنيَّ هاتَين، تأمرها بالذهاب. لكنها بقيت.»

وتشامخت برأسها مرة أخرى، وبدا لها أن هناك شيئًا مفقودًا؛ إذ أطلقت صرخة خافتة.

قالت: «لم ألحظْ أبدًا. لقد أضعتُ قبعتي.»

قال إيجناتيوس: «تفضلي»، وأعطاها قبعتها المصنوعة من القش والكرينولين التي كان يُخفيها وراء ظهره. وقال: «ستُضيِّعين رأسك المرة القادمة.»

ردَّت في تباهٍ: «مُستحيل. إنه مُثبَّت بإحكام ... حسنًا، حسنًا، تضيع مني الأشياء الصغيرة دائمًا، لكني لم أضيِّع قُبعتي من قبل.»

ورغم ما بحديثها من تعريض، فقد حاول إيجناتيوس استجوابها مرة أخرى.

قال: «هذا ظلم بيِّن. من المؤسف أن تُضطر فتاة جميلة مِثلك إلى القيام بكل العمل، في حين تعيش الآنسة ماك البدينة حياة مرفَّهة. ألا تودِّين تبادل الأدوار معها؟»

أجابت: «لا. شكرًا.»

عاد إيجناتيوس إلى فكرته الأصلية، لكن أدا كانت متيقظة وجاهزة بإجابتها هذه المرة، قبل أن يطرح سؤاله الحتمي.

«لماذا؟»

أجابت برسمية: «لا أريد أن أشبهها.»

ثم نظرت إلى ساعتها وصرخت.

«حان وقت العودة. يجب أن أعدَّ الشاي.»

وفي طريق عودتهما، ترك إيجناتيوس الحديث عن قصر «سباوت»، وبدأ يتحدَّث عن القرية عمومًا. ولم تكن أدا التي كانت تستمتع بهذه الأمور كثيرًا، بحاجةٍ إلى التشجيع، إذ كرَّت على مسامعه الشائعات المتداولة دون توقُّف. لكن سرعان ما تملَّكهما الصمت، وانشغل كل منهما في مراجعة المحادثة. وعندما بلغا بوابة «سباوت»، وحان وقت فراقهما، لاحظت أدا بسرعة أن إيجناتيوس لم يشِرْ إلى أي لقاءاتٍ مستقبلية.

حدَّثت نفسها في ازدراء، وهي تسير في ممشى السيارات: «يا لك من ساذج مسكين، تُريدني أن أتحدث بالسوء عن الآنسة. حسنًا، حمدًا للرب، لم تحصُل منِّي إلا على ما أردتُ أن أطلعك عليه.»

لكن إيجناتيوس — الذي كان يتمشَّى في ساحة القرية — رأى نفسه مُنتصرًا هو أيضًا، بفارق بعض النقاط.

وحدَّث نفسه قائلًا: «لقد أصبتُها في مقتل وحوَّلتها إلى أشلاء، مثل طائر صيد صلصالي. مسكينة يا أدا ... من حُسن الحظ أن قبعتها طيَّرتها الرياح. فقد أعطتني مؤشرًا للاتجاه الذي قد تنتهِجه الأمور.»

لم يحضر إيجناتيوس القداس المسائي، مع أنه سأل باهتمامٍ عن مختلف أعضاء الكنيسة، عندما قابل القسيس على وجبة العشاء.

قال القسيس: «أحسَّت زوجة العمدة بدوار وغادرت قبل انتهاء القداس.»

علَّق إيجناتيوس: «أوه. أجل. زوجة العمدة. ذات الشعر الأشقر. إنها تزن نحو ٩٨ رطلًا. على الأرجح أنها تفرط في الأكل. هذا مثال على تمرين الذاكرة، وليست محاولة لتقليد شارلوك هولمز يا تيجر.»

آنذاك، في قصر «ذا هول»، كانت زوجة العمدة تستغلُّ وعكتها الصحِّية لأقصى درجة، إذ تمدَّدت على أريكة، بينما فيفيان تدهن جبهتها بماء الخزامى.

قالت السيدة بنبرة شاكية: «لقد عاودَني ذلك الخفقان مرة أخرى. أعرف أن ثمة خطبًا بقلبي، مع أن الدكتور بيري سيصرُّ على أن المشكلة في المعدة.»

لم يُعارضها أحد، مع أن الجميع يعلمون بتفاؤلها الشديد بشأن قوة جهازها الهضمي وقُدرته على الحيلولة دون إصابتها بالألم عند الإفراط في الأكل.

قالت: «إنه رجل مُريع. لكن من الأفضل أن تستدعيه يا فيفيان.»

قال العمدة بنبرة عدوانية: «لا. إن كان لا بدَّ لك من رؤية طبيب، فاستدعي رولينجز.»

هتفت زوجته: «أأستدعي طبيبًا غريبًا من شلتنهام؟ لأجل ماذا؟»

أجاب العمدة: «لأنني لا أريد حضور بيري هنا مرةً أخرى.»

حملقت الزوجة وابنتها في العمدة. لو كان إيجناتيوس حاضرًا، للاحظ أن المرأة الأكبر سنًّا اندهشت فحسب، في حين لاح الخوف في عينَي الشابة فيفيان.

بدت فيفيان مرعوبةً مما سيقوله أبوها؛ إذ فور أن تحدَّث عادت السكينة تكسو ملامح وجهها.

فقد قال بصوت هادر: «لا تُعجبني مسألة الإرث تلك. لا أطيق رجلًا يأخذ مالًا من امرأة. بل وعزباء أيضًا.»

جادلَتْه زوجته قائلة: «لكن يا أوسبرت، الآنسة كورنر متوفَّاة.»

ردَّ زوجها: «لا فارق عندي.»

قالت: «لكنك ورثتَ مالًا عن امرأة غير متزوِّجة.»

ردَّ: «كانت أُمي الروحية. اختارها أبي العجوز عمدًا لثرائها. كفاك حمقًا. لا بد أنه كان يتملَّقها عندما كانت على قيد الحياة.»

فكرت فيفيان أنه حان وقت تدخُّلها.

قالت: «لو أرسلتَ في طلب الدكتور رولينجز فلن يأتي يا أبي. تلك آداب المهنة. فهو يعلم أن الطبيب بيري طبيبنا.»

علق أبوها: «ليس طبيبنا. لا أريد أن تطأ قدماه منزلي مرةً أخرى. كما أنه يرفض الزيارات الطبية يوم الأحد. فهو لا يريد المال. لقد صار الرجل من الأثرياء.»

وكما يُقال في تقارير البي بي سي، «استمرَّت المناظرة.»

وبصرف النظر عن نتيجة الجدل، عندما حل الظلام، لم يتلقَّ الطبيب أي دعواتٍ ترحيبية للحضور من منزل «ذا هول».

على ضوء القمر الفضي، تجول إيجناتيوس براون والقسيس في أنحاء القرية. كان الليل دافئًا والشارع خاليًا من المارة. وعاد آخر زوجَين مُتحابَّين من الطرق المظللة بنباتات العسلة المتشابكة. كانت الوطاويط تُحلق بلا هُدًى على ارتفاع منخفض، والبوم ينعق من فوق شجرة بلوط ذكرت في كتاب «دومزداي» («يوم الحساب» أو كتاب ونشيستر). كما تلألأت عُرُش الياسمين، مثل نجومٍ بيضاء صغيرة، وتضوَّع الجو بأريجها.

كان الفضاء الواسع من الحقول الفارغة ضبابيًّا، أشبَهَ ببحرٍ رمادي هادئ، وبدت القرية مرة أخرى، مع تسلُّل الأضواء الخافتة إلى اليمين واليسار، مثل سفينةٍ عظيمة مهجورة من ثلاثة طوابق رأسية في الميناء المنسي.

وقع إيجناتيوس أسيرًا لسحر القرية المألوف.

قال: «لا أريد أن أنعت أحدًا بالكذب يا تيجر، لكن لا بد أن أعترف بأنني أشكُّ في حقيقة وجود أي شرٍّ خفي في هذه القرية.»

علق القسيس: «لا يُهم، أطالبك بتنفيذ وعدك.»

كان جميع أهل القرية قد أووا إلى منازلهم؛ فمِن خلف جميع الستائر سواء المعدنية أو القماشية، رأى الرجلان وهج المصابيح المُستتر. وفي بعض الأحيان، يتسلل إلى أسماعهم صوت موسيقى أو مقتطفات من أحاديث وضحكات. فقد كانت النوافذ مفتوحة، ولكن ظل تقليد إسدال الستائر من الداخل قائمًا بلا مساس.

وجد القسيس نفسه فجأة يُساق للكشف عن إحساسه التام بالعجز.

فانفجر قائلًا: «ليتني أستطيع فتح كل ستارة وأرى بنفسي ما يجري في الداخل.»

وتحقَّقت أُمنيته على الفور، كأن جنية من جنيات الليل كانت تقف في الجوار تقوم على تحقيقها. فقد اتجه أحدُهم إلى النافذة التي كانا يحملقان فيها، وفتح الستارة كاشفًا عن ديكور منزلي جذاب، من ورق الجدران الملوَّن المطبوع والخزف القديم والمصابيح ذات الإضاءة الوردية. وعند الباب، كانت سيدة مهذبة تبلُغ من العمر منتصفه تُقبِّل أخيها الذي يبلغ من العمر منتصفه أيضًا، وتتمنَّى له ليلة سعيدة.

وبعد هنيهة، أطفأت المصباح، وغاص المنزل في الظلام المُطبق من جديد.

قال إيجناتيوس مشجعًا: «لقد سمِعَتك القرية على ما يبدو. فأرتكَ عينةً لغرفة في قرية نموذجية.»

كان كلامه صحيحًا. فقد كانت غرفة الاستقبال في منزل «روز كوتيدج» نموذجًا لغُرَف الاستقبال في المنازل الأخرى في إضاءتها ودفئها وهدوئها.

في أحد المنازل، نهضت امرأة من مقعدها، حيث جلست للقراءة. ولثمت، هي أيضًا، مرافقها؛ وعندما ذهبت إلى الباب عادت تنظر إلى الغرفة المُبهجة بابتسامة على محيَّاها.

لكن بمجرد أن خرجت من الغرفة، استحال وجهها شاحبًا مثل امرأةٍ ميتة؛ إذ أخرجت من حقيبتها جزءًا من ورقةٍ مُجعدة مُغطاة بحروف مطبوعة.

لقد عرف سرَّها شخصٌ ما. وانتهت سنوات الأمان والسعادة الزائفتَين. راحت المرأة تجرُّ ساقَيها، صاعدة الدرج، يكتنِفها ظلام الخوف الكثيف.

همست: «لا أستطيع مواجهة الأمر. أبدًا. أبدًا. سأموت قبل ذلك ... سـ... سأموت.»

الفصل السادس عشر

# الحرف الأول المفقود

عاد القسيس من صلاة السَّحَر، في صباح اليوم التالي، برسالة إلى إيجناتيوس من الآنسة أسبري.

«لدى الآنسة ارتباطات كثيرة، لكنها ستلتقي بك في الثالثة والنصف بعد ظهر اليوم. ستُخصص لك خمس عشرة دقيقة لا أكثر؛ لذا أنصحك بالذهاب في الموعد المُحدد.»

وفي خضمِّ خوفه من التأخُّر عن الموعد، تجاهل إيجناتيوس نصيحة صديقه؛ إذ دقَّ جرس المنزل التيودوري بعد الثالثة بعشرين دقيقة. وعندما ذكر توقيت موعده لروز خادمة الاستقبال، نظرت إليه نظرةً صارمة بعض الشيء، لكنها قادته إلى المكتبة الفارغة في نهاية المطاف.

أشرق وجهه المُتغضِّن بالحماسة عندما رأى جمال الجدران المكسوة بالألواح والأثاث القديم؛ لكنه بعدما نظر إلى المقاعد الخشبية قرَّر ألا يجلس عليها. وكان طبيعيًّا، وهو يقطع الغرفة جيئةً وذهابًا، أن ينظر عرضًا إلى المكتب الذي لم يكن يحمِل أشياء خاصة أكثر من مجرد خطابات لم تفتح ونشرات دورية.

لم يتطفَّل أو يفعل أي شيءٍ لم يكن ليفعله في حضرة سيدة المنزل. وعندما اتجه إلى الأرفف على الجانب المقابل، اكتفى بقراءة عناوين بعضٍ من أقدم الكتب مُتبقية لدى فتاة فيكتورية من أيام الدراسة.

فتح بعض الكتب، بصورة عشوائية، ثم أعادها مباشرة إلى مكانها؛ لكنه لم يشعر بأدنى تأنيب ضمير، عندما احتفظ بنسخةٍ من «أليس في بلاد العجائب»، مع أنه تناهى إلى سمعه صوت خطوات الآنسة أسبري في الممر.

قال وهو يحمل المجلد المُهترئ: «اعذريني لأنني نظرتُ إلى تاريخ نُسختك. لكن «أليس» هي تعويذتنا. أحسدك على امتلاكك لهذه النسخة. إنها أقدم من النسخة التي لديَّ.»

علقت الآنسة أسبري بابتسامتها الوقورة الفريدة: «هذه إحدى مكافآت الزمن.»

وأشارت لإيجناتيوس بالجلوس في كرسي منقوش، وجلست هي أيضًا، علامة على بدء المقابلة.

قالت: «فهمت من قسيسنا أنك ترغب في مقابلتي بشأن الخطاب المجهول الذي وصلني. إذا أردت نصيحتي، أظنُّ أنك ترتكب خطأً فادحًا.»

طمأنها إيجناتيوس: «يسرني للغاية أن أُنصت إلى آرائك. فأنا أعلم، مما سمعتُه عن عملك السابق وخبرتك، أن نصائحك ستكون قيِّمة.»

لان وجه الآنسة أسبري المتزمِّت قليلًا بسماعها لهذا المدح.

وعلَّقت: «كما قلتَ، أعرف عن الجانب القبيح من الحياة أكثر منك، على الأرجح. وأعلم أنه ليس من الحكمة إثارة البلبلة. في البداية حاولت وأد فتنة هذا الخطاب الحقير. فلم يكن ذا قيمةٍ تُذكَر. لم يضرَّ شخصي أو أي شخصٍ آخر ... ولا شيء مما حدث منذ ذلك الوقت جعلني أغير وجهة نظري الأصلية. لا يزال الخطاب بلا قيمة.»

قال إيجناتيوس على سبيل التذكير: «ولكن كانت هناك خطابات أخرى.»

قالت: «هكذا سمعت. لكن هل تسببت في أي ضرر؟»

أجاب: «ليس للأشخاص الذين تلقَّوها. لكنها خلقت بالفعل جوًّا مقيتًا ومؤذيًا.»

لوَّحت الآنسة أسبري بيدها البيضاء النحيفة.

وقالت: «امنح المسألة بعض الوقت. وسيذهب كل شيءٍ طي النسيان.»

ذكَّرته الآنسة أسبري في نقائها الكئيب، بزهور الزنبق الأبيض التي كانت تملأ وعاءً فخاريًّا طويلًا على مقعد النافذة. لكن القديسة لم تغفُل عن فضيلة الانضباط المهنية؛ إذ عمدت إلى النظر بصورة صريحة نوعًا ما إلى الساعة الخشبية الطويلة ذات الصندوق، القابعة في الزاوية.

فهم إيجناتيوس تلميحها، وأخرج ظرفًا من محفظته.

قال: «علمت أن الخطاب الذي تلقَّيتِه كان مُرفقًا في هذا الظرف. أأنتِ واثقة من أن هذا الخط غير مألوف لك ولو قليلًا؟ كثير من الناس يستخدمون الأحرف الرومانية الكبيرة.»

هزت الآنسة أسبري بعد أن ألقت نظرة سريعة على الظرف. وأجابت: «لا. أحرِق الظرف من فضلك. يُستحسَن أن ننسى هذه الواقعة.»

استعاد إيجناتيوس الخطاب منها بكياسة وتؤدة.

وقال: «بدأتُ أقتنع بوجهة نظرك. تبدو الخطابات غير مؤذية بما أنها لا تحمِل أي تلميح بالابتزاز. لكن قد يقع ذلك لاحقًا. لهذا نريد أن نعثر على كاتب هذه الخطابات.»

فتحت آنسة أسبري شفتَيها كأنها تريد الحديث ثم أغلقتهما مرة أخرى. وظهرت عليها بوضوح أمارات ضِيق الصدر عندما طرح إيجناتيوس سؤالًا خارجًا عن الموضوع.

علق إيجناتيوس: «كم تبدو الحروف الأولى من اسمك ذات إيحاءٍ ديني! «دي في». أعرف أن اسمك ديسيما؛ لأنه اسمي المُفضل. فلِمَ يشير الحرف «في»؟»

أجابت الآنسة أسبري بحدة: «يُشير إلى اسمٍ سخيف توقفت عن استخدامه منذ أمدٍ بعيد.»

نهضت الآنسة من مقعدها إيذانًا بإنهاء المقابلة، ثم تحدثت إلى إيجناتيوس بعد قليلٍ من التردد.

قالت: «أنتَ غريبٌ على القرية، ولا يمكنك استيعاب طريقة تفكير أهل القرية. ولكن دعني أؤكد لك أنه ليس من الإحسان في شيءٍ التدخُّل في شئون الآخرين. أعتقد أن معظم أهل القرية سيفضلون أن يدفعوا ثمنًا قليلًا — هو في مقدرة الجميع — على أن يُفصحوا عن همومهم. فالخصوصية تُمثل لنا «كل شيء». والخصوصية لها ثمن.»

قال إيجناتيوس: «أفهم ذلك. أنتم تُفضلون أن تدعوا جراحكم تنزف وتُعانوا في صمتٍ على أن تفصحوا عنها. لكن ألا يتوقف ذلك على موضع الإصابة؟»

قالت: «لا أفهم ما تعنيه.»

قال: «قد يتردَّد جندي هارب من ساحة القتال في الإفصاح عن جراحه؛ لكن لن يسعه إخفاؤها إذا كانت الإصابة في وجهه.»

سألت الآنسة أسبري ببرود: «أتعني إذن أنك ستواصل مساعيك حتى تعثر على شخصٍ تخلَّى عن كرامته تمامًا؟»

فسَّر إيجناتيوس مرادَه: «يجب أن أعثر على شخصٍ يرغب في الكلام من أجل الصالح العام. طاب مساؤك وأشكركِ على استقبالك لي.»

وقفت الآنسة أسبري مِثل التمثال وهي تنتظر روز لتُجيب جرس الاستدعاء. بعد ذلك، ودَّعت إيجناتيوس بانحناءةٍ جامدة بينما صحبته خادمتها إلى الخارج.

شعر إيجناتيوس بالراحة حين غادر برودة المنزل إلى ممرِّ السيارات المُشمس؛ لذا تمهَّل في السير كي يتأمل جمال الحديقة بنظام ريِّها الذاتي. كانت أدا — التي بدت في أبهى صورة في ثياب التنظيف الزرقاء — تهز ممسحة الغبار في تباهٍ من نافذة علوية، لكنه لم ينظر في اتجاهها.

بذل إيجناتيوس غاية جهده كي يُقلل من ذكاء عينَيه، عندما رأى امرأةً بدينة وقصيرة تخرج من المنزل بخطواتٍ سريعة ورشيقة. كانت هذه هي الآنسة ماك.

تفحص إيجناتيوس الآنسة ماك بعناية، بينما تتردد في ذهنه انتقادات أدا لها، وأخذ يبحث عن أي أماراتِ علةٍ أو تعاسة. لكن كان وجهها حازمًا ومطمئنًّا رغم شحوبه، وابتسامتها هادئة، وعيناها الزرقاوان صافيتَين، مثل عيني دميةٍ خزفية.

علق إيجناتيوس: «يوم بديع. أظنك ذاهبة للتمشية؟»

أجابت الآنسة ماك: «لا. سأُنظف الحديقة من الأعشاب الضارة.»

سأل: «وهل تفضلين القيام بذلك؟»

قالت: «لا مانع لديَّ.»

نظر إيجناتيوس إلى كتلة الغبار المُتطايرة من ممسحة الغبار التي تُمسكها أدا ثم خفض صوته.

وقال: «أيُمكننا التحدُّث في مكانٍ لا يسمعنا فيه أحد؟»

بدا وجه الآنسة ماك عاجزًا عن إبداء الدهشة لكنها أظهرت سيطرتها على الموقف.

سألته بينما تقوده عبر الحديقة إلى البركة: «أترغب في رؤية زهور السوسن المائية؟»

كانت عيناها مثل هلالَين أزرقَين مُبتسِمَين وهي تنظر إليه.

سألت الآنسة: «أتريد أن أؤمِّن لك شيئًا؟»

أجاب إيجناتيوس: «ليس بالمعنى التي تقصدينه. الْحقُّ أنني أجد صعوبة إلى حدٍّ ما في تفسير الإحساس الذي راودني فجأة. أنا رجل عاطل؛ لذا أشعر بالأسف على العمَّال أو بالأحرى أولئك الذين لا حيلةَ لهم في اختيار وظائفهم ... أتعِدينني بشيء؟»

سألت الآنسة ماك: «وعد من أي نوع؟»

أجاب: «لا شيء يُقلق. لكن، إذ وقعتِ في مشكلة، في أي وقت، هلَّا أخطرتِني؟ تفضَّلي بطاقتي. ربما أتمكن من مساعدتك.»

لم تخفُت ابتسامة الآنسة ماك لكنها قبِلت بطاقته.

قالت: «شكرًا لك. إذا وقعتُ في مشكلة، فسأطلب مساعدة الآنسة أسبري بكل تأكيد.»

علق إيجناتيوس: «هذا يعني أحد أمرَين. إما أنكِ لن تقعي في مشكلات، أو أنك شديدة الولاء للآنسة. إلى اللقاء.»

بينما كان إيجناتيوس يسير في ممرِّ السيارات، أحسَّ بأن الآنسة أسبري تنظر إليه من نافذة المكتبة، وأنها كانت تقِف تشاهد المشهد.»

ضحك إيجناتيوس بخفوت، وهو يُغلق بوابات القصر، وقال: «ممتاز.»

في أثناء تناول الشاي، حاول القسيس أن يستجوِب إيجناتيوس بشأن زيارته للآنسة أسبري.

سأله: «هل توصلتَ إلى أي شيءٍ جديد؟»

رد إيجناتيوس: «لم أنتظر ذلك. أردتُ زيارتها للتثبُّت من الوقائع لا أكثر.»

علق القسيس: «إن كان الأمر كما تقول، فلا أفهم سبب إزعاجك لها من الأساس. لا يسعها أن تُخبرك بما تجهله هي نفسها.»

قال إيجناتيوس: «بالطبع، لكن يُمكنها أن تُخبرني بشيء تعرفه. أقصد اسمها الثاني.»

قال القسيس بثقة: «ليس لديها اسم ثانٍ. لقد أرتني لوحة الإشادة والثناء التي تلقَّتها عندما تخلت عن عملها الإغاثي. أتذكر بوضوح أن ما نُقش على اللوحة كان اسم «ديسيما» فحسب.»

علق إيجناتيوس: «هذا يعني أنها عُرفت بالحرف الأول منذ ثلاثين عامًا على الأقل، وقبل مجيئها إلى هنا. لهذا ليس من المُمكن أن يعلم أحد من السكان أنه كان لديها اسم ثانٍ.»

وافقه القسيس: «صحيح.»

بدت الدهشة على القسيس عندما أراه إيجناتيوس الظرف المتغضِّن.

سأل إيجناتيوس: «أين عيناك يا تيجر؟ ألم تلاحِظ العنوان على الظرف الذي احتفظت به دليلًا؟» هزَّ القسيس رأسه.

قال موضحًا: «في ذلك الوقت حالت الصدمة دون الانتباه للتفاصيل. بعد ذلك، ألقيتُ به في أحد الأدراج، وأقفلت عليه بالمفتاح. لكن، على أي حال، هذا انتقام من القرية بالكامل. هذه الخطابات تأتي من الخارج.»

لم يؤكد إيجناتيوس فرضيته المُطمئنة. ونهض من مقعده، وألقى بكعكته إلى تشارلز. قال: «سأذهب لزيارة الطبيب.»

علق الطبيب: «تبدو هذه الغدوات والروحات الغامضة مُبشِّرة. هل تكوَّنت لديك فرضية واضحة؟»

«لديَّ فرضية واضحة وأخرى غير واضحة. وأميل إلى الفرضية غير الواضحة التي تُشير إلى أن لدينا مشكلة بسيطة. هذه الخطابات قد تكون إما مسألة بسيطة وإما مُعضلة مركبة ومعقدة. وليس أمامي سوى البحث عن الحلِّ السهل الواضح لعدم وجود دليلٍ كافٍ ... أوه، تبًّا لتلك المرأة.»

سأل القسيس: «أي امرأة تقصد؟»

أجاب: «أقصد تلك المرأة التي تستطيع إزالة الغموض عن أمرٍ صغير، ومحوري في الوقت نفسه، على افتراض أنها تتحدَّث الصدق دائمًا.»

سأل القسيس: «وهل سترفض الحديث؟»

أجاب إيجناتيوس: «بلى سترفض.»

صعق القسيس من هذا الافتقار إلى روح الغيرة على المصلحة العامة.

سأل القسيس: «هل يمكنك إقناعها بالحديث؟ ألا تستطيع مناشدة الأمانة والشفافية لديها؟»

أجاب إيجناتيوس: «ليس لديها أيٌّ منه. ولا يُجدي مثل هذا الحديث مع الموتى. فشاهدتي المفقودة هي جوليا كورنر.»

الفصل السابع عشر

# ساعي البريد يطرق الباب

أخفت جدران القرميد الوردية الجميلة القديمة الواجهة الخارجية لمنزل سانت جيمس فيما عدا السقف. وبينما كان إيجناتيوس يسير في الحديقة، لاحظ وجود مجموعةٍ كبيرة من زهور الأقحوان، وحمام سباحة كبير من قماش القنب الغليظ الخشن، مليء عن آخره بالماء، كانت الشمس تغمره بأشعتها الدافئة. وعند الباب الأمامي للمنزل، كانت ثمة مُمرضتان تنقلان طفلَين رضيعَين أبيضَين من عربتي أطفالٍ بيضاوَين بياضَ الثلج.

عند سماع صوت الطفلَين، خرجت ماريان راكضة، لتغدق عليهما من حنان الأم؛ لكنها سيطرت على نفسها عندما رأت إيجناتيوس.

سألت: «أتريد رؤية الطبيب؟»

أجاب: «للأسف نعم» قابلًا الدعوة التي لاحت في عينَيها. وأضاف: «لكن ليس لاستشارةٍ طبية.»

قالت: «بالطبع لا. أنت تُقيم في منزل القسيس. رأيتك في الكنيسة.»

أجاب: «وأنا أيضًا رأيتكِ.»

وبينما كان إيجناتيوس منشغلًا بتفحص الأم، لم يلحَظ على ما يبدو أن أحد طفلَيها كان يلوِّح له بيده الضعيفة ترحيبًا به. ورغم إظهار الأم عدم اكتراثها بالزائر، اضطرَّت ماريان أن تلفت انتباهه لهذا الشرف العظيم.

قالت ماريان: «لقد عادت العائلة للتو. أليست العائلة تشكيلة عجيبة من الأفراد؟ لكن أظن أننا يجب أن نُفكر في الأجيال القادمة.»

حيَّا إيجناتيوس الطفل برسميةٍ ثم ولَّاه ظهره وسأل: «لِمَ؟ لا شيء يُزعجني مثل أن يُطلب مني تقديم تضحياتٍ لأناس كثيرين مجهولين، سيستمتعون بكل اكتشافات المُستقبل، التي لن أحيا لرؤيتها. لقد كتبتُ قصيدة عن هذا الموضوع من قبل في مجلة

المدرسة. بدأت القصيدة بـ «الأنسال، الأنسال القادمة، لا نفع لي من ورائهم، ولا نفع لكم، فلماذا بحق السماء علينا أن نكون ضحايا للأنسال؟»

لانت ملامح إيجناتيوس عندما ضحكت ماريان إشادةً بقصيدته، وبدأ يغضُّ الطرف عن فستانها الأحمر الزاهي وجمالها الزاوي. طالما كانت الألوان الصارخة تُزعج إيجناتيوس، فصنَّف ماريان من الكائنات الآكلة للبشر.

قال إيجناتيوس مذكرًا ماريان بسبب قدومه: «أيمكنني رؤية الطبيب؟»

هزت ماريان رأسها بعُنف فتمايلت أقراطها الأرجوانية وقالت: «أنا في شدة الآسف. لقد ذهب إلى لندن في أول قطار، ولن يعود إلا على العشاء.»

سأل إيجناتيوس: «أيمكنني أن آتي لزيارته لاحقًا؟»

تردَّدت ماريان قليلًا قبل أن تُجيب في اندفاع: «بالطبع. إذا كنتَ تريد مقابلته بشأن تلك الخطابات اللعينة فأتمنَّى لكَ التوفيق. لقد أصابت هذه الخطابات القرية في مقْتل.»

تأثر إيجناتيوس بسِحر وجاذبية ماريان رغم صلابته، فأسرع الخُطى إلى بوابات المنزل. لقد أراد الابتعاد عن شعاع جاذبيَّتها الخطيرة.

بعدما انتهى من تناول العشاء، وتأهَّب للانطلاق لزيارة الطبيب للمرة الثانية، طلب مساعدة القسيس.

فقال: «تعالَ معي يا تيجر، واشغل السيدة بيري عنا. أرى أن من الحكمة دومًا الفصل بين الزوجَين عند الاستجواب. فالأزواج يتجادلون حتى أثناء اللعب.»

كان الطبيب بيري وزوجته ينتهيان من احتساء القهوة، عندما أعلن الخادم وصول إيجناتيوس وصديقه. لكن تبين أن وجود القسيس بلا جدوى؛ إذ توقَّع الطبيب أن يرغب إيجناتيوس في الانفراد به. وبعد أن تجاذب معه أطراف الحديث لبضع دقائق، نهض من مقعده.

سأله: «ما رأيك في أن نذهب إلى غرفة مكتبي؟»

بدت علامات الإرهاق على الطبيب، مع أن زيارته للندن كانت رحلةً للترفيه والاستمتاع، بحسب وصفه.

كان الليل قاتمًا إلى حدٍّ ما؛ لذا أوقِدت شعلة نار صغيرة في المدفأة. جلس إيجناتيوس ينظر إلى ألسنة اللهب المتوثِّبة بينما يُحلل انطباعاته السابقة في عقله. لقد رأى علامات البذخ في أثاث المنزل وزخارفه لكنها افتقرت إلى الصيانة. حتى أشعة الشمس تواطأت في عملية الإتلاف؛ إذ بهتت الستائر المصنوعة من البروكار المُطرز، كما بهتت السجادة واهترأ نسيجها.

بدا أن الزوجَين كانا يُنفقان المال بإسراف، لكنه كان كالماء الذي يسيل من صنبور راشح يذهب جُفاءً، فلا يروي زرعًا. تذكَّر إيجناتيوس موكب المُربيات وما فيه من مباهاة عبثية وألقى باللوم على ماريان.

«هذه السيدة مثل آلة تسجيل النقد، تأخذ المال ولا ترد الباقي منه. أعتقد أن الإرث سيفيد هذا المسكين.»

ظل الطبيب صامتًا، فأخرج إيجناتيوس نسخةً قديمة من الصحيفة المحلية.

قال: «قرأتُ التقرير الصادر عن التحقيق في وفاة الآنسة كورنر. كان طويلًا جدًّا يغطي المسألة جيدًا حسبما يبدو. ولكن أيمكنكَ أن تُخبرني بأي تفاصيل إضافية لم تُذكر في التقرير؟»

تفحص الطبيب الصحيفة ببطء.

وأخيرًا قال: «لا. كل الحقائق مذكورة هنا.»

علق إيجناتيوس: «إذن يجب أن أتوجَّه إليكم بالشكر على هذا التكتُّم الوفي.»

قال الطبيب بهدوء: «لا أفهم ما تَعنيه.»

أصرَّ إيجناتيوس: «بل تفهم. لن يخفى على أقل الناس ذكاءً أن التقرير أهمل أهم حقيقة على الإطلاق. ولا بد أن مُحقق الوفيات لاحظ ذلك، وأنتَ، وربما كل أعضاء المحكمة.»

تسلل شبح ابتسامة إلى شفتَي الطبيب.

وقال: «أنت رجل غريب يا سيد براون. جرت العادة على أن يستخف العباقرة بذكاء الآخرين. أنتَ على النقيض تمامًا. لكننا لا نُعمِل عقولنا هنا. فلا تتوقَّع منَّا الكثير.»

ردَّ إيجناتيوس: «على العكس، أنا واثق أنك تتمتَّع بذكاءٍ حاد.»

سأل الطبيب: «إن كان الأمر كذلك، فلماذا أُخبرك بما تدَّعي أنكَ تعرفه بالفعل؟»

أجاب إيجناتيوس: «توفيرًا لوقتي فحسب. آمُل أن تغفر لي فظاظتي عندما أقول إنني لم أرغب في حضور زوجتك الجذابة لقاءنا؛ لأنني أردتُه أن يكون سريًّا.»

قال الطبيب: «أتفق معك. فماريان لا تستطيع كتمان أي شيء. من سوء الحظ أنها أخبرت الضابط جيمس بشأن الخطاب المجهول.»

قال إيجناتيوس: «هذا بالضبط ما أراه. فقد أثبتت بذلك حقيقة معرفتك بمضمون الخطاب ليلةَ استلامه.»

قال الطبيب: «بالتأكيد. ذكرتُ في إفادتي أن الآنسة قرأت الخطاب أولًا، ووجدته مضحكًا لا أكثر. لذا أعطته لي لأقرأه.»

علق إيجناتيوس: «كان الظلام قد حلَّ تقريبًا عندما أوصل ساعي البريد آخر دفعة من البريد، ومع ذلك لم يندهش أحد من قُدرة الآنسة كورنر التي تعاني من قصر النظر، على قراءته دون نظارتها، التي تحطمت في وقتٍ سابق.»

لم يرد الطبيب، فواصل إيجناتيوس كلامه.

قال: «وبما أن الآنسة كانت تحفظ محتويات الخطاب عن ظهر قلب، فهذا يعني أيضًا أنها مَن كتبته لنفسها.»

قال الطبيب: «قد يكون استنتاجُك صحيحًا. لكن لا ضير من رغبتها في تبرئة ساحتها من شكوك باطلة. ربما كانت طريقتها طفولية وساذجة قليلًا، لكنها كانت شغوفة إلى حدٍّ ما بالحلول الجذرية.»

لاحظ إيجناتيوس أن الطبيب قد تخلَّى عن حذره، وبدا متلهفًا للحديث عن الآنسة كورنر.

قال: «لقد استهانت بذكاء أهل القرية. كانت الآنسة مزيجًا فريدًا من البساطة والفطنة. لكن كان لديها مخزون وافر من الطيبة والشجاعة، ولم أعرف شخصًا في حيويتها. لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى افتقادي لها.»

اختفى أثر التعب من جفن الطبيب ولم يعُد متهدلًا، ودبَّت الحيوية في صوته. وأحس إيجناتيوس الذي كان يُراقبه عن كثب أن شعوره بالندم كان صادقًا.

واصل الطبيب: «لقد حطَّ أهل القرية من شأنها؛ لأنها آمنت بأعمالها الأدبية الفارغة. لكن هل كان موقفها عبثيًّا حقًّا؟ لقد جنت أموالًا من كتاباتها، وتؤكد دائمًا أن أي عملٍ أدبي لا بد أن يأخذه الكاتب بجدية حتى يُحقق نجاحًا ماديًّا. أرى ذلك دليلًا على قوتها العقلية؛ أنها حملت نفسها على الإيمان بأعمالها الرديئة. كما أنها كانت تستمدُّ المُتعة من عملها، فكان دواءً منشطًا في حدِّ ذاته.»

بينما واصل الطبيب حديثه بالانفعال نفسه، رثاءً لصديقته، كان إيجناتيوس مُستمعًا رائعًا. لكنه، في النهاية، تذكَّر تعليقًا سابقًا.

قال: «تحدثت للتوِّ عن شكوك «باطلة». لكن لديَّ ما يدل على أن الآنسة كورنر كتبت ذلك الخطاب المرسَل للآنسة أسبري بالفعل.»

قال الطبيب: «لا. لم يكن في مقدورها الإتيان بمثل هذه النكاية الشنيعة.»

قال إيجناتيوس: «سنستوضح هذا الأمر فيما بعد. أيمكنك أن تُخبرني بالحرف الأول من الاسم الثاني للآنسة أسبري؟»

صرح الطبيب: «ليس لديها اسم ثانٍ. لقد طلبت توقيعها على شهادات في بضع مناسبات.»

قال إيجناتيوس: «يبدو أنها لم يكن لدَيها اسم ثانٍ لما يقرُب من خمسة وأربعين عامًا. تخضع الأسماء لفتراتٍ من عدم القبول أو السخرية، وعندما كانت طفلة كان لديها نفور شديد من اسمها الثاني. كان اسمها الثاني «فيكتوريا». لا تُخبر أحدًا من فضلك لأجل خاطرها ... ولكن برغم أن لا أحد هنا يعلم هذه الحقيقة، كان الظرف الذي احتوى على الخطاب المجهول موجهًا إلى «الآنسة دي في أسبري».»

أعقب ذلك صمتٌ، هزَّت فيه طرقة ساعي البريد المزدوجة الجدار. أدرك إيجناتيوس، من الجمود الذي حلَّ على مُحيَّا الطبيب، والاختلاجة السريعة لعينَيه من خلف النظارة، أن عقله يعمل بسرعة فائقة بينما يتظاهر بمحاولة استيعاب هذه المفاجأة الصادمة.

كان إيجناتيوس لا يُحب الاستعجال في المواقف الدرامية، ومع ذلك سارع لتوضيح فكرته.

قال: «ذلك الخطاب كتبَه شخص يعرف الآنسة أسبري منذ صباها. وهي والآنسة أسبري كانتا زميلتَين في المدرسة. فما الاستنتاج البديهي الذي يُمكننا أن نستنتجه من هذا الأمر؟»

كان إيجناتيوس قد تأخر كثيرًا؛ إذ كان الطبيب قد بلغ هدفه العقلي.

قال: «لا شيء. لقد ثبت عدم تواطؤ آنسة كورنر بوصول خطابَين مجهولَين آخرين بعد وفاتها.»

وصل إيجناتيوس إلى بُغيته فقال: «بالضبط. كانا خطابَين تافهين، موجَّهين إلى القسيس وبلير، احتوى كلاهما على تهديداتٍ صبيانية لم تنفَّذ. ألا يكشفان عن المسرحية إذن؟»

سأل الطبيب: «عن أي مسرحية تتحدث؟»

أجاب إيجناتيوس: «أن هذين الخطابَين كتبهما صديقٌ وفيٌّ للآنسة كورنر، كي يُبرئ اسمها من كتابة الخطاب الأول للآنسة أسبري.»

عض الطبيب بيري على شفتَيه.

قال: «إذا كنت تقصد أنني من كتبتُ الخطابَين، فأنا أُنكر التهمة تمامًا.»

نهض إيجناتيوس من مقعده.

وقال: «حُسِمت المسألة إذن. لا يسعني سوى أن أشكرك على إهدار وقتِك في مشكلتنا البسيطة.»

وبينما كان الطبيب ينهض من مقعده، بدوره، انفتح باب غرفة المكتب على مصراعَيه، واندفعت السيدة بيري إلى الداخل وفي أعقابها القسيس.

صاحت قائلة: «انظر إلى هذا الخطاب يا هوريشيو. إنه مكتوب بأحرُف مطبوعة. أعتقد أنه أحد تلك الخطابات.»

وسط الصمت الثقيل الذي ساد الغرفة، فتح الطبيب بيري الظرف، وسار إلى النافذة كي يقرأ ما كُتب على الورقة.

وبينما قطَّب الطبيب حاجبَيه في تردُّد، لا يعرف السبيل الأكثر حكمة ليسلكه — أيُطلع إيجناتيوس على الخطاب الذي يُبرئه من التهمة المنسوبة إليه أم يحتفظ بمحتوياته سرًّا — كانت ماريان تسترق النظر إلى الخطاب من فوق كتفِه قبل أن تضع حدًّا لمعاناته.

فأحاطت عنق زوجها بذراعٍ عارية، وراحت تقرأ الخطاب بصوتٍ عالٍ بنبرة انتصار.

«جميع مَن في القرية يعلم أنك دسستَ السُّمَّ للآنسة كورنر للحصول على أموالها.»

لم تكد الكلمات تُغادر شفتي ماريان حتى أدركت خطأها. فاستدارت، وحلَّق فستانها البرتقالي في الهواء كشعلة لهب تلعق الغبار، وطرحت الخطاب في النار. بعد ذلك أمسكت بذراع زوجها.

وهتفت: «حسنًا، هذا الخطاب يُبرئ ذمتك يا عزيزي. لقد كنتَ في لندن اليومَ؛ لذا من غير الممكن أن تكون كتبتَ هذا الخطاب ... اطمئن. نحن نعلَم وهم يعلمون بما هو متداوَل بين أهل القرية.»

فجأة، ارتعش صوتها من فرط غضبها، والتفتت إلى إيجناتيوس، وأمرته بصوتٍ مخنوق.

قالت: «توقَّف عن توجيه أصابع الاتهام إلى زوجي، واذهب للبحث عن كاتب هذه الكذبة القاسية الخبيثة.»

الفصل الثامن عشر

# الفخ

قال إيجناتيوس ضاحكًا بخفوت، عندما عاد هو والقسيس إلى غرفة المكتب، حيث كان تشارلز الوفي يحرس البسكويت: «كنتُ مخطئًا عندما خشيتُ التحالف الزوجي. لقد أفشت السيدة بيري سر الطبيب ببراعةٍ منقطعة النظير. يعجبني الطبيب. كم هو بائس مسكين، لا عمل ولا مال، على ما يبدو.»

قال القسيس: «لكنها طيبة القلب حقًّا. تعتني بمرضى الطبيب الفقراء، وتُبادر بتقديم مرق لحم البقر دائمًا.»

علق إيجناتيوس بتهكُّم: «لا بد أنه من أجود أنواع اللحم.» بعد ذلك، ملأ كأسه ورفعها: «في نخب صديقنا المجهول. إنه يزداد تمرُّسًا فيما يفعله.»

قال القسيس: «كيف؟ كان الخطاب كذبةً فاضحة.»

ردَّ إيجناتيوس: «أجل، لكنه اتهام واضح وليس مجرد تهديدٍ مُبهم. ما علينا فعله هو محاولة التوغل في متاهة عقل مُضطرب. لو كان الكاتب يهدف إلى خلق جوٍّ عامٍّ من الخوف والارتياب، فقد استخدم سمًّا فعالًا هذه المرة.»

كرر القسيس مستوضحًا: ««كاتب»؟ أتعتقد إذن أنه رجل؟»

أجاب إيجناتيوس: «لا. إن احتمالية أن يكون الكاتب امرأة مُرتفعة بناءً على الأرقام. أنا أستخدم صيغة المُذكر من باب التيسير لا أكثر. كم هي مزعجة لعينة تلك المرأة!»

سأل القسيس: «مَن تقصد؟»

أجاب: «آنسة كورنر.»

قال القسيس: «لا تنسَ أنها ميتة يا إيجناتيوس.»

«سواء كانت حيةً أم ميتة، لا يَعنيني منها سوى اسمها. تبًّا، لا أستطيع التعاطف مع الآنسة كورنر الرائعة. لو لم تتصرَّف بحماقة، وتخلط الأمور ببعضها، لتمكنتُ من حل مشكلتك الصغيرة بكل سهولة.»

لم يخفَ على القسيس معنويات صديقه المُمتازة؛ فقد حمل وجهه النحيل ابتسامةً رائعة وهو يلوح بالسيجارة.

قال: «هذا اللغز مثل حيَّة، وأنا عازم على أن أقضي عليها. لكن الآنسة كورنر البائسة شطرتها إلى نصفَين، وذهب كل نصف في الاتجاه المعاكس. ولا أدرى أأتبع ذيل الحية غير المؤذي أم رأسها السام.»

سأل القسيس بلهفة: «أتعني أن المسألة قد تكون هينة؟»

ردَّ إيجناتيوس: «كل الحقائق يا صديقي العزيز تُشير إلى أنها مجرد زوبعة في فنجان. مجرد غيرة بين امرأتَين عازبتَين. تكتب إحداهما خطابًا مجهولًا للأخرى نكايةً بها، فتتَّجه إليها أصابع الاتهام، فتكتب خطابًا آخر لنفسها لإبعاد الشكوك عنها. بعد ذلك، تُفارق الحياة، لسوء حظِّها. فيكتب صديقٌ وفيٌّ خطابَين مجهولين آخرين تافِهين لتبرئة ساحتها.»

قال القسيس: «لنُحدد الأسماء. الآنسة أسبري والآنسة كورنر والطبيب. كيف تثبَّتَّ من هذه الحقائق؟»

وبينما كان القسيس يُنصت إلى إيجناتيوس، أخذ يفرك مقلتَي عينَيه ويشد جفنَيه، مثل رجل يعاني من توتُّر عصبي.

قال القسيس: «حسنًا، وهو المطلوب إثباته على ما يبدو. فلا أحد يُمكنه معرفة الاسم الثاني للآنسة أسبري سوى الآنسة كورنر.»

وافقه إيجناتيوس قائلًا: «هذه هي الفرضية التي توصلتُ إليها. لكن لا بد أن أجد دليلًا عليها لتُصبح حقيقة. لقد كُتب اسم الآنسة كاملًا في صفحة الغلاف في كل كُتبها القديمة التي تسنَّى لي وقتٌ لفحصها. أردتُ أن أعرف الفترة التي أخفت فيها اسمَها الثاني تحديدًا. إذا كانت قد أخفت اسمها الثاني في فترة المراهقة، فمن المُستبعَد أن تكون الآنسة كورنر على عِلم به؛ لأنها كانت تكبر الآنسة كورنر سنًّا، عندما التقتا للمرة الأولى، قبل أن تُغادر المدرسة بعد ذلك بفترة قصيرة.»

ضرب إيجناتيوس ذراع مقعده.

وقال: «اللعنة على الآنسة كورنر. لِمَ فارقت الحياة؟ لو أن لديَّ عصا سحرية وكان بإمكاني أن أُعيدها من القبر، إن جاز القول، لما توانيتُ لحظة.»

لم يشكَّ القسيس في إقدام إيجناتيوس على الأمر عندما نظر إلى شفتَيه الصغيرتَين الصارمتَين.

سأل: «ولكن ما أهمية كل هذا؟»

قال إيجناتيوس: «لأن كل شيء يتوقَّف على معرفة كاتب الخطاب الأول.»

أمسك إيجناتيوس عن الكلام كي يُشير إلى فراشات الليل التي تحلق حول مصباح الغرفة.

قال: «أنا أشبه هذه الفراشات في انجذابها للضوء المتوهِّج؛ أنجذب إلى الفرضية المُثيرة. لعل مشكلتك الصغيرة تسلك المنعطف الخطأ، وتتحوَّل إلى مكيدة شيطانية، من تدبير عقل حاقد.»

سأل القسيس: «وأنت تريد أن تفوز فرضية الرأس السام؟»

تحدث إيجناتيوس بنبرةٍ ورِعة لكنها مشوبة بالنفاق: «معاذ الله. لكن لو حدث ذلك، فسأعتبرها ضربة حظٍّ نادرًا ما تحدث، تدخَّلت للمساعدة.»

ورغم تأكيده على الكلمة الأخيرة، كان ثمة شعور بالامتنان لمساعدته لهم يغمر القسيس، حتى إنه عجز عن التعبير عنه.

قال القسيس: «يبدو من المنطقي أن تركز على فرضية ذيل الحية. إذا كنت مُحقًّا في أمر الآنسة كورنر، فأعتقد أن الخطابات ستتوقَّف، وستعود القرية إلى طبيعتها تدريجيًّا.»

ضحك إيجناتيوس في طرب.

وقال مُذكِّرًا صديقه: «هكذا كان الموقف حتى الليلة. لكن لدَينا دليلًا على أن كاتب الخطابات المجهولة لم يتوقَّف عن نشاطه. يستحيل أن يكون بيري قد كتب الخطاب الذي وصلَه كما ترى؛ لأنه كان في لندن اليوم. لن يثِق أحد في إرسال ظرفٍ مطبوع عن طريق شخصٍ آخر إلا لو كان مختلًّا.»

«ماذا عن زوجته؟»

أجاب: «لا داعي لإقحامها في الأمر. لقد أصابها الخطاب بصدمةٍ شديدة. لن يُقدم أي منهما على اتهام أحدٍ بمِثل هذه التهمة الخطيرة.»

سأل القسيس: «أين نقف الآن؟»

أجاب إيجناتيوس: «في أرضٍ مُحايدة. أرى أن نكتفي بمراقبة رأس الحية وذيلها، في الوقت الحالي، وننتظِر ما تئول إليه الأمور.»

«كيف؟»

«بالنسبة إلى الرأس، سأطلب من مُحققٍ خاص أن يتحرى عن خلفية شخصيتَين بعينهما. وأما الذيل، فإذا كان الكاتب يمزح ولا يقصد الأذى، فسأنصب له فخًّا صغيرًا.»

«فخًّا؟»

عندما سمع القسيس هذه الكلمة المشئومة، رفع بصره إلى إيجناتيوس في دهشةٍ حتى خُيل إليه أنه يسمع صليل فكَّي المصيدة الصلب.

قال إيجناتيوس موضحًا: «مجرد فخ بسيط. كثيرًا ما كنت أتردَّد على مكتب البريد، ولي علاقة وطيدة بمديرته. تبدو لي ذكيةً وكتومة. لذا سأدخل معها في شراكةٍ وأصدر مجموعة جديدة من الطوابع.»

جذب القسيس أذنَي تشارلز الناعمتَين كالحرير. ولم تمضِ لحظات حتى تحدث.

قال: «لا تعجبني فكرة الفخ. أفضِّل أن أترك الأمور على حالها.»

قال إيجناتيوس: «سأعود إلى لندن إذن.»

قال القسيس مُخاطبًا كلبه: «لا. لا يمكن أن نتركه يذهب بعد أن أحضرناه إلى هنا. أليس كذلك يا تشارلز؟»

قال إيجناتيوس بصرامة: «دع تشارلز وشأنه. إنه كلب مُهذب ولن يجرحَ مشاعري.»

قام تشارلز المُهذب من فوره بعرضٍ مُبتذل لسيلان اللعاب ليُعرب عن صداقته لكلٍّ من الطرفين المتناحِرَين. وما لبث إيجناتيوس أن استرخى كي يشرح مُخططه.

قال: «قد لا يجدي هذا الفخ أو يثبت عدم فاعليته عند التطبيق كما تعلم. لكن أريد أن أكون في مسرح الأحداث إذا ما جدَّ جديد. لذا أفكر في الإقامة بالنزل. فأنا أُثقل مُدبرة منزلك بأعباء أكثر مما ينبغي.»

ردَّ القسيس: «أنت تعلم أن السيدة ويلز تُحبك حبًّا جمًّا أيها المنافق الكبير؛ لأنك تساعدها في تذوُّق الطعام.»

قال إيجناتيوس: «بل تراني بحاجةٍ إلى التسمين كأبناء الأحياء الفقيرة. ماذا يقول تشارلز؟ ... شكرًا لك يا تشارلز، هذا كافٍ جدًّا. لن أرحل.»

في صباح اليوم التالي، وقبل مواعيد العمل الرسمية لمكتب البريد، زار إيجناتيوس الآنسة كاسي رايد مُديرة مكتب البريد. كان أصلها من مقاطعة بيكهام، وذات ذكاءٍ حاد كالسيف. كما كانت شيباء، ذات نظارات، نضِرة البشرة قصيرة الشعر؛ لا بد أنه كان من الصعب تمييزها عن الفتيان في شبابها.

وجد إيجناتيوس في صُحبتها تغييرًا مُمتعًا يُخفف عنه صحبة القسيس؛ لأنها استوعبت النقاط البارزة في مقترحه قبل أن يشرحها، وسرعان ما تشبَّعت بروح المؤامرة.

قالت: «من دواعي سروري أن أُساعدك. أعلم أن الخطابات المجهولة مُزعجة. لن يكون الأمر صعبًا؛ لأننا سنتعامل مع الطبقة الأرستقراطية فحسب.»

سأل إيجناتيوس: «كيف ذلك؟»

أجابت: «لا تشتري الطبقة الأرستقراطية طوابع مفردة قط، بل دفاتر كاملة، إلا في حالة الدعوات الخيرية، تشتري ورقة طوابع كاملة. أُفكر في إعداد قائمة سرية بأسماء الذين يشترون دفاتر طوابع بصفةٍ مستمرة، وأُخصص رقمًا محددًا لكل اسم. على سبيل المثال، «الآنسة أسبري: ١»، «ليدي دارسي: ٢». وهكذا. ثم سأضع على كل دفترٍ الرقم المُطابق له بقلم رصاص خفيف.»

وأخذت تشرح لإيجناتيوس كأنه فتًى صغير من فتيان القرية.

قالت: «إذا قدمت الآنسة أسبري لشراء الطوابع، فسأبيع لها دفتر الطوابع رقم واحد.»

سأل إيجناتيوس: «ولكن ألن تشتري الآنسة ماك الطوابع للآنسة أسبري؟»

قالت: «هذا احتمال كبير. فالآنسة بروك دائمًا ما تشتري الطوابع لليدي دارسي. لكن ما باليد حيلة.»

وافقها إيجناتيوس قائلًا: «أجل. هذه هي العقبة الأولى. والعقبة الثانية هي أننا لا ندري هل سيخترنَ دفتر الطوابع ذات الشلنين أم ثلاثة شلنات.»

قالت الآنسة ريد: «سنُرقِّم الدفاتر ذات الشلنَين فقط. وسأخبرهنَّ أن الدفاتر ذات الثلاثة شلنات قد نفدت.»

ردَّ إيجناتيوس في استحسان: «جيد. اسمحي لي أن أحصل على الدفاتر كي أُعلِّمها. أعلم أنها ستكون مهمةً مُملة. فلا بد من ثقب كل طابعٍ من موضعٍ مميز بحذَر شديد.»

قالت الآنسة كاسي ريد: «سأساعدك.»

رفض إيجناتيوس قائلًا: «لا، أشكرك. لا بد أن أحتفظ في ذاكرتي بالطريقة التي وسمتُ بها الطوابع.»

قالت: «لا بأس.»

بدا واضحًا أنها اتخذت الرفض دلالةً على عدم ثقته بها؛ إذ راحت ترقم الدفاتر بالقلم الرصاص في صمت، لم تكسِره إلا للحديث عن مسألة الدفع.

قالت بنبرةٍ حادة: «إذا تركت عربونًا كافيًا، فسأردُّه لك عندما تُعيد الدفاتر إلى المخزن، في حالةٍ سليمة. جنيهان سيَفِيان بالغرَض.»

أخرج إيجناتيوس عُملة ورقية من فئة عشرة جنيهات.

قال: «هناك أشياء لا يشتريها المال بالتأكيد. وهي الحذَر والسرية والكياسة والعبقرية. لذا عندما أقول لكِ لا تقلقي بأمر الباقي، أعلم أنك لن تُسيئي الفهم وتظنِّي أنني أحاول إبرام صفقة أو ما شابَه.»

برهنت الآنسة كاسي ريد أنها على نفس القدْر من البراعة في تقييمها للموقف.

قالت: «أنتَ مُحق. هناك أشياء لا يشتريها المال؛ لذا لن أحاول أن أشتري صمتك. إذا تسرَّب خبر مساعدتي لك وخسرتُ وظيفتي، فلن تكون الثمانية جنيهات ثمنًا كبيرًا. لكنها ستُساعدني في عطلتي. يبدو أننا في نفس المركب.»

قال إيجناتيوس: «يجب أن يثِق كلانا في الآخر إذن.»

وتصافحا إبرامًا للصفقة، ثم غادر إيجناتيوس مكتب البريد، حاملًا الطُّعم.

وكما توقع، كان وَسْم الطوابع مهمةً في غاية الرتابة، لكن لم يكن بوسعه إسناد هذه المهمة إلى شخصٍ آخر.

قال إيجناتيوس: «إذا تحرك الثقب عن موضعه الصحيح ولو شعرة، فقد تلتصِق الشكوك بشخصٍ آخر بريء. لكن لا تقلق يا تيجر. لا أظن أن أحدًا سيبتلِع الطُّعم.»

سأل القسيس: «لِمَ تكبَّدت كل هذا العناء إذن؟»

أجاب إيجناتيوس: «لأننا يجب ألا نُغفل شيئًا. قد ينجح طفل في صيد سمكَة بدبوس ملتوٍ، ولا ينجح الصيَّاد الخبير بصنَّارته. ومع ذلك، هذه الخطة مليئة بالثغرات ... انتبه يا أحمق.»

كان القسيس قد أسقط جريدةً على صفوف دفاتر الطوابع المفتوحة فأفسد ترتيبها.

رفع إيجناتيوس عينَيه ينتظر تفسير القسيس، وإذا به يجد الطبيب بيري واقفًا عند نافذته الفرنسية المفتوحة.

الفصل التاسع عشر

# ذيل الحيَّة

مرَّت الأيام التالية بسلام، فبدا وكأن القسيس كان مُحقًّا في آماله، أن تكون المشكلة غير خطيرة. كانت الحياة في ظاهرها تسير على نحوٍ طبيعي، والمناخ الاجتماعي لا يزال طيبًا كطيب رائحة زهور الخزامى. وتفتحت الزنابق بغزارة، ونضجت الفاكهة وطابت، وبلغت الحدائق مستوًى جديدًا من الجمال. كما كان الطقس مثاليًّا؛ إذ يكون رائعًا ومُعتدلًا في النهار، وتهطل الأمطار عادة في الليل.

توقَّف عقل القسيس اللاواعي عن مُداعبة أوتار ذاكرته، مُصدرًا نغمات متنافرة تُثير كوابيس فوضوية؛ فلم يعُد يزعجه ذلك الحلم المُتكرر الذي يحارب فيه خصمًا غير مرئي. كان قد تقبَّل فرضية أن الآنسة كورنر المسكينة هي مَن خطَّت أول خطابَين، قبل أن يأتي شخصٌ آخر غبي ويواصل الدعابة السخيفة.

قال القسيس لإيجناتيوس: «تنسجِم هذه الفرضية مع استدلالك المنطقي تمامًا. لم تكن الخطابات مؤذيةً في مُجملها حتى الخطاب الأخير. وكما هو من العبث اتهام الطبيب بيري بارتكاب خطأ طبي، فمن العبث أيضًا اتهام الآنسة أسبري بأن لها ماضيًا مُخزيًا.»

قال إيجناتيوس مُصححًا: «تقصد اتهامه بالقتل.»

أجاب القسيس: «تهمة أسخف من الأولى ... لقد تركت الحادثة انطباعًا سيئًا في ذلك الحين؛ وهذا لأن السيدة بيري أثارت فوضى.»

سأل إيجناتيوس: «إمم. أرأيت بيري في الآونة الأخيرة؟»

أجاب القسيس: «لا. إنه مشغول طوال الوقت.»

علق إيجناتيوس: «إنه رجل مُثير للاهتمام. بالمناسبة، يبدو أنكَ استبعدتَ احتمالية أن يكون للحية رأس سام.»

وبينما كان إيجناتيوس يتحدث، نظر من النافذة وتأمَّل الشارع في هالته الذهبية الناعسة، تغمره أشعة شمس الظهيرة غمرًا. كانت هناك سيدتان من القرية، ترتديان قبعتَين على هيئة عيش الغراب وتحمِلان مظلتَين بيضاوَين مبطنتَين باللون الأخضر، تتبادلان مجلات الحديقة ووصفات جيلي عنب الثعلب. وكانت هناك قطة رملية اللون عند البالوعة تطارد فراشة بيضاء.

قال إيجناتيوس: «أعترف أن جميع أهل القرية رائعون في الظاهر، وعلى وفاقٍ تامٍّ فيما بينهم. لكن ماذا يختبئ تحت السطح؟ لا يُوجَد بينهم اختلاط حقيقي.»

حثَّه الطبيب: «أتقصد الضيافة؟ امنحهم بعض الوقت. بما أن مسألة الخطاب قد انتهت، سيعود كل شيءٍ إلى مساره الطبيعي بالتدريج.»

ابتسم إيجناتيوس ابتسامةً خبيثة وفرك يدَيه.

سأل إيجناتيوس: «ولكن أنَّى لك أن تعرف أن الخطابات قد توقفت؟ لا تزال تراوِدني شكوك حول أكثر الأشخاص بُعدًا عن دائرة الشبهات. أعترف أنها ليست شكوكًا قوية. لكن ثمة شيئًا يختبئ خلف كل هذا.»

وتوقف عن الكلام؛ إذ استرعت انتباهه سيارة الطبيب بيري «البيبي أوستن»، وقد أكسبها الغبار الكثيف لونًا رماديًّا، وهي تقطع الشارع ببطء.

كان الطبيب قد أمضى أكثر ساعات الصباح وهو يجوب بسيارته عبر طُرق وعرة والمسارات التي عبَّدتها العربات، لزيارة مريضٍ في البلدة. كان المريض مؤمَّنًا عليه؛ لذا لم يكن صباحًا مُربحًا بالنسبة إلى الطبيب، لكنه مُرْضٍ من منظور طبِّي.

شغلت هذه الزيارات المنزلية وقت الطبيب، غير أن صحَّة أهل القرية كانت ممتازة على غير العادة. كان مرضى الطبيب الأغنياء يعانون من أمراضٍ من وحي خيالهم في الأغلب. فكانت لديهم دراية كافية بأمراضٍ بعينها ويستطيعون تمييز أعراضها المبكرة التي تسبق شعورهم بالألم أو الانزعاج، وحينها يستدعون الطبيب الذي يتولَّى البقية.

في ذلك الوقت، كانت هناك حالةٌ مرضية حقيقية واحدة، في منزل «ذا هول». لكن كانت حُمَّى القش الموسمية والتهاب المفاصل قد أطلقا إنذاراتهما الأولية المعتادة. سارت سيدتان عذراوان غنيَّتان في حديقتهما، في نسيم المساء العليل، يتأمَّلان جمال أزهارهما.

وبينما كانت أكبرهما سنًّا تعتدل في وقفتها، بعد انحنائها على حوض لزهور الثالوث، ضمَّت يدَيها أسفل ظهرها.

وقالت لأختها: «شعرت بوخزٍ خفيف. إن عدوِّي على وشك الاقتراب.»

أومأت الأخت الصغرى قائلة: «أجل. عطستُ هذا الصباح في أثناء مروري بأحد الحقول. آن أوان استدعاء الطبيب.»

بدت أمارات التفكير على وجه الأخت الكبرى.

قالت: «أخبرتني زوجة العمدة أنه مسرور من الطبيب القادم من شلتنهام. قد يكون عالمًا بأحدث نظريات الْتهاب المفاصل. فالدكتور بيري لا يُغير طريقة علاجه على الإطلاق. أظنُّ أن من الشجاعة استشارة طبيبٍ آخر. لا سيما إن كان هناك مَن أثنى عليه.»

بدا الإصرار على وجه الأُخت الصغرى.

وقالت: «لن أرى الطبيب الجديد. أنا مخلصة للدكتور بيري العزيز.»

لكن الطبيب بيري لم يجنِ أي فائدةٍ حقيقية من وفائها؛ إذ تجاهلت بوادر حُمَّى القش لدَيها، والتي تتَّخذ مسارها الطبيعي.

أعرب الطبيب عن سعادته بالصحة العامة لأهل القرية، غير أنه كان يتساءل في بعض الأحيان عمَّا إن كان هناك سخام في الجوِّ لم تنجح الأمطار الليلية في إزالته. كان القسيس وإيجناتيوس حاضرَين في أثناء قراءة الخطاب البائس؛ وكان يرى أن القسيس ثرثار. لكنه لم يُعبر عن شيء من شكوكه لزوجته، التي كانت تقضي جلَّ أوقاتها مُستلقية تحت أشعة الشمس مثل السحالي، مع أطفالها.

ثمة شخص آخر، لم يُعجبه حالة الهدوء الحالية للقرية، وهي جوان بروك. فمع التوقُّف المفاجئ للحياة الاجتماعية، لم تحظَ جوان برؤية القسيس إلا في مناسباتٍ قليلة. ولأن القرية صارت أكثر جاذبيةً عن ذي قبل، أرجعتْ شعورها بالقلق إلى مصدره الصحيح.

كانت جوان فتاة قوية الإرادة لا تتهرب من أي مشاكل. ولأنها لم يعُد بإمكانها أن تقابل القسيس في حفلات التنس، عزمت على الخروج في رحلة صيدٍ مُحدَّدة الهدف.

حدثت نفسها في جرأة: «هذه حُمى الرجال. لا بأس، طالما أنه رجل واحد. أنا فتاة شابة، وكلانا معجب بالآخر. فلِمَ لا؟»

لكن روح العناد تسلَّلت إلى اللعبة؛ ففي الأيام التي كانت تشعر فيها بمجرد اهتمامٍ عابر نحو القسيس، كانت طرقهما تتقاطع بصفةٍ مستمرة. لكنها بعدما أصبحت تكنُّ له عاطفة حقيقية، بدا بعيدًا عن متناولها دومًا.

آنذاك، بدأت جوان تخشى حلول الليل. كانت غرفة نومِها، في المنزل الضخم المكسو بالجص الأصفر اللون، صغيرة الحجم، وتحتلُّ الواجهة الغربية؛ لذا كانت شديدة الحرارة

في المساء، في حين كانت الأشجار، التي كانت تُضفي لمسة مُنعشة على الحديقة، تمنع أي تيار هواء من الدخول إلى الغرفة.

كانت جوان تستيقظ من نومها، يأكلها الخوف من المستقبل. كانت ترى نفسها، في تلك الساعات المُظلمة الحالكة، إحدى شخصيات قصة واقعية مبتذلة. كانت الآنسة كورنر لتغضب كثيرًا وتلخص الأمر بأنه موقف مألوف تُواجهه كل النساء.

قالت جوان: «لا جمال، ولا مال، ولا موهبة. إذا لم أتزوَّجه، فقد انتهى أمري.»

لكنها كانت تنهض مع طيور القُبرة دائمًا، لتناول حبوب الإفطار والفاكهة مع وجبة الإفطار، وكلها حماس لمواصلة حملتها.

في مساء كل اليوم، بعد العشاء، كانت جوان تسير الهوينى عبر الحقول باتجاه القرية، على أمل أن تلتقي القسيس مصادفة. وكانت تمرُّ في طريقها بالممرِّ المقدس المُفضي إلى منزل «ذا هول»، وهو مبنى عريض مُنخفض الارتفاع، رُمِّم بعدما نشبت فيه النيران، لكنه لا يزال يحتفظ بجناحٍ من الطراز التيودوري الأصيل.

كان الوصول إلى ممرِّ السيارات والمدخل الرسمي للمنزل من خلال الطريق الرئيسي، لكن في هذا الجانب من المنزل، امتدَّ جزء من الأراضي المُحيطة بالمبنى إلى السياج. وفي كل مساء تقريبًا، كانت جوان تسترق النظر إلى فيفيان والميجور بلير، في أثناء ممارستهما لرياضة التنس أو التجول في حديقة الأزهار.

كانت حدود صداقتهما العادية المشوَّشة تتبلور وتأخذ شكلَ علاقة عاطفةٍ واضحة. راقبتهما جوان ناقمةً على فيفيان شعورها بالأمان.

في أسوأ الظروف ستجد فيفيان من يعولها؛ وفي أحسنها ستسير بخطواتٍ مُنتصرة على أنغام مارش الزفاف. فلا عجب أن عينَيها الزرقاوين الرماديَّتين تفتقران إلى العُمق، وثرثرتها العابرة لا تُخفي وراءها أي مغزًى خفِي. كانت حياة فيفيان تعيش آمنة مطمئنة.

كان مجرد شعور جوان — التي لها روح مغامر طربٍ طائش — بالحقد على فيفيان لمجرد احتمالية زواجها، ما هو إلا دلالة على أنها تعاني من نوبةٍ حادة من حُمى الرجال الفريدة التي تصيبها.

رفعت جوان بصرَها عندما سمعت بوق سيارة، ورأت إيجناتيوس أكثر ضآلة من أي وقتٍ مضى، داخل سيارته الفارهة.

سأل: «أترغبين في توصيلة؟ سأُقلك إلى حيث تريدين.»

أجابت: «حسنًا. خُذني إلى بابل ثم أعِدني مرة أخرى.»

لم تكن جوان بارعةً في التعريض في كلامها؛ لذا شعرت بالفخر عندما لاحظ إيجناتيوس مزاجها العكر.

قال: «لا. ضوء الشموع ذو خطورة شديدة. سآخُذك بدلًا من ذلك في جولة حول إنجلترا، وسأُعيدك إلى هنا قبل حلول المساء.»

هزَّت جوان رأسها وقالت: «أشكرك. هذا مُمل جدًّا.»

تنهد إيجناتيوس، وكأنه هو الآخر، في لحظةٍ ما، قد مسَّه شعور حارق بالشوق أثارته رغبته الكامنة في العودة إلى حياة المغامرة والتحدِّي القديمة. بعد ذلك استحال صوته حادًّا.

وقال: «إن قبلتِ التوصيلة، فلن تعودي إلى البيت راجلةً على الأقل. فبحسب تعليقٍ سابقٍ لكِ، لستُ رجلًا فظًّا.»

عضَّت جوان شفتَيها.

وقالت بسرعة: «أفضِّل الذهاب معكَ على السير مع الآنسة أسبري.»

أنسى تعليقها الأحمق إيجناتيوس ذكرى تعتمِل في ذهنه.

سألها: «لماذا؟»

فحكت له تجربتها المؤلِمة مع الآنسة، بإطنابٍ يقطر حماسة، نسيت في خضمِّه نفورها منه.

قالت: «تخيَّل، يا عزيزي، كم كنتُ لاهثة، متقطعة الأنفاس، أكاد أفقد الوعي من فرط الإعياء — إذ كانت ركبتاي تخوران، ولساني يتدلَّى من فمي، وظهري يُصدِر صريرًا — بينما هي تواصل السير مثل شيطانٍ مارد، بمعدل ثلاثة أميال في الساعة. وكل هذا العناء من أجل دبوس زينة ببنسَين ونصف ... لكنها كانت تريد الانتقام مني لغرَض آخر.»

سأل إيجناتيوس بنبرة فضولية: «وما هو؟»

لاحظت جوان وصول الميجور وفيفيان إلى البوابة البيضاء المُفضية إلى الممر، فأسرَّت إلى إيجناتيوس بقصة إحباط الآنسة ماك والوعد الذي قطعته للآنسة أسبري.

قالت: «لم أستطِع أن أُخبر أحدًا بهذه القصة، سواك. الجميع هنا يُعاملون الآنسة بإجلال كأنها قديسة. لكني وافدة جديدة على القرية لذا أرى الأمور على عواهنها.»

نظر إيجناتيوس إليها بإمعان.

«ليتني تحدثتُ إليكِ من قبل. إنك تُثيرين اهتمامي كثيرًا. من الواضح أنكِ تؤمِنين بأن انطباع الشخص الأصلي يجب أن يكون مقدَّمًا على الموقف العام مهما كان غريبًا.»

قالت جوان: «هذا صحيح. أعترف أنني أرتكِب أخطاءً حمقاء. ولي هفوات وزلَّات لم ترتكبها فتاة في مثل حجمي في إنجلترا. لكنَّ مكمنَ الإشكال هنا أنني أقول الحقيقة عادة.»

علق إيجناتيوس: «لا أشك في ذلك. أنتِ شخص صادق ومُباشر. ولا أظن أنك يمكن أن تكذبي.»

ردَّت جوان: «لا، أنا لستُ كاذبة. لقد تربيتُ على يدِ جدَّتي، وهي عجوز غريبة الأطوار، لكنها كانت شخصيةً جيدة برغم ذلك. كانت لديها بعض الأخلاقيات الصارمة، لكن يبدو أنها كانت تُجدي نفعًا في نهاية المطاف على ما يبدو. كانت تُخبرني دائمًا: «لا تكذبي. الكذب خلقٌ سيئ ودنيء، يلحق بصاحبه صفة الجُبن. لكن إن كان ولا بد من الكذب، فلتكن كذبةً كبيرة، وتَمسَّكي بها إلى الأبد.»

قال إيجناتيوس: «أما وقد صرتُ أفهمك أكثر الآن، ربما تُثيرين فضولي يومًا ما. لكن لا بأس.»

رغم ثناء إيجناتيوس عليها، أدركت جوان أن ساعي البريد، الذي كان يشقُّ طريقه بصعوبة وسط البقدونس البري المُحيط بالممر من الجانبين، كان يُقاسمها اهتمام إيجناتيوس.

قال إيجناتيوس: «ها هي الدفعة الأخيرة من البريد. ساعي البريد ذاك هو بطل السيناريو. تُرى ماذا يحمل للآنسة فيفيان؟»

انسلَّت فيفيان، التي كانت هيفاء مثل الهلال في فستانها الأبيض، خارجةً من الحديقة وتناولت الخطاب من ساعي البريد. بعد هُنيهة، سُمِع رنين ضحكتها المجلجل وهي تعود أدراجها إلى الميجور.

قالت جوان: «لم يأتِ لها بأخبارٍ شيقة على أي حال.»

قال إيجناتيوس: «هذا غير صحيح. فلدَيها حياتها السرية مِثلنا تمامًا.»

حدقت جوان في إيجناتيوس، وخطرت ببالها صديقتها الروائية فجأة.

علقت جوان: «غريب أن تقول أنتَ هذا الكلام. يجب أن أذهب. فأنا أحصل على مقابلٍ لقاء مرافقة سيدتي. أرسِل حُبي للقسيس الصغير.»

«الصغير؟»

«نعم. دائمًا ما أدعو من أُحبهم بهذا اللقب.»

فهم إيجناتيوس مُجاملتها غير المباشرة؛ وكما توقعت جوان، ذكرها إيجناتيوس عند القسيس بالثناء عليها في أثناء تناولهما وجبة العشاء.

كان وهج شمس المغيب يذوب في سماء الغسق البنفسجية، وخرج القسيس وإيجناتيوس للتجوُّل في ساحة القرية. نظر القسيس إلى بُرج منزل «ذا كلوك»، وانتابته نزعة اجتماعية مفاجئة.

قال: «لا بد أن الزوجَين سكودامور عادا من جولتهما اليومية. دعنا نزُرهما. إنهما عفويان للغاية، ويجعلانني أشعر بالتحسُّن دائمًا.»

أثبت المحامي وزوجته أن رُقيهما الأخلاقي أقوى من الظروف الجديدة. لم يجرؤا على إقامة أي حفلٍ رسمي مرة أخرى بعد ما تعرَّضا له في السابق من رفضٍ، غير أنهما واصلا دعوة الأزواج الآخرين للعشاء، في حين ندُرَ أن تتناول السيدة سكودامور شايَ ما بعد الظهيرة دون رفقة تنتقيها من معارفها أو أصدقائها.

فور أن دخل الرجلان المنزل، استشعرا الأجواء الرسمية للمنزل؛ حتى إن القط كان في أبهى هندامه استعدادًا للعشاء، بفرائه الأسود الذي يتوسطه رقعة بيضاء بدت شبيهة بالصدرية.

كان السيد سكودامور وزوجته في غرفة الاستقبال المُبهجة يشربان ماء الشعير، وعرضا على ضيفَيهما مشاركتهما للحفاظ على صحتهما. وكان من الطبيعي أن ينتقل الحديث من الصحة إلى المرض.

سأل المحامي: «كيف حال العمدة اليوم؟»

سأل القسيس: «أهو مريض؟ لم يذكر بيري أنه ذهب إلى «ذا هول».»

تبادل المحامي وزوجته النظرات.

قالت السيدة سكودامور: «ربما أصابه المرَض، حين كان في شلتنهام، فذهب لزيارة طبيب البلدة. سمعتُ أنها وعكة مفاجئة.»

أومأ القسيس، مُتجنبًا نفس الاحتمالية المُزعجة التي أقلقت المحامي، وقال: «احتمال وارد. ما خطبه؟»

أجاب المحامي: «تسمُّمٌ دمَوي. لقد تعرض لتسمُّم حادٍّ كاد يودي بحياته لولا تدخُّل الطبيب في الوقت المناسب ... لم يكن الوقت يسمح بالانتظار إلى حين استدعاء بيري ... ولكن هذا هو الغريب في الأمر.»

سعد السيد سكودامور بالابتعاد عن سيرة الطبيب؛ إذ راح يُسهب في الحديث عن المرض. وأنصت إليه إيجناتيوس في ملل، تحوَّل إلى انتباهٍ بشكلٍ مفاجئ.

قال المحامي: «لقد تناول سمكًا فاسدًا في أحد مطاعم شلتنهام. ولم يكدْ يتذوَّقه حتى نحَّاه جانبًا، وطلب طبَقًا آخر، وهو جيلي اللحم البارد. ومن هنا ساءت الأمور. أخبرَني العمدة أن الطبيب أوضح له أنه بما أنه تناول قضمةً صغيرة من السمك، وهو في كامل صحته، لم يكن السُّمُّ سيضرُّ جهازه الهضمي ... لكنه اختار طبقًا آخر يحتوي على الجيلي؛ وتبيَّن أن الجيلاتين هو الوسط المناسب لاحتضان ميكروبات السُّم.»

اتفق الجميع على أن الأمر كان سوء حظ. بعد ذلك، جال إيجناتيوس ببصرِه في أنحاء الغرفة ذات الألوان الهادئة، بأثاثها المُرتَّب بالقلَم والمسطرة، وما تحتويه من كنوز العائلة، والمصابيح المُغطاة، وطرح سؤالًا في غير محلِّه عن عمد.

«أتلقَّيتَ خطابًا مجهولًا يا سيد سكودامور؟»

أجاب المحامي: «بالطبع لا. أرى أن هذه المسألة التافهة البغيضة قد أُغلقت.»

قالت السيدة سكودامور: «أوافق زوجي الرأي.»

قال المحامي بفخر: «زوجتي في موقِعٍ يؤهلها للحكم في هذه المسألة. إنها تقابل أشخاصًا أكثر من أي أحدٍ آخر في القرية، بحكم التواصُل الاجتماعي، مع أنها لا تُنصت أبدًا إلى النميمة.»

لاحظ إيجناتيوس أن كلماتهما المُطمئنة كانت للقسيس مثل الشراب للظمآن. أحنى القسيس رأسه بطريقته المُبجلة القديمة، كما يفعل إمبراطور روماني يَقبَل الجزية، في حين حدجته السيدة سكودامور بعينَيها الوديعتَين الواسعتَين.

قالت: «أعتقد أن موقفك هو الوحيد الصائب أيها القسيس. يجب أن تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي وننسى ما حدث. لا يمكن لجرحٍ أن يُشفى إذا واصلنا فركه.»

أحسَّ إيجناتيوس أنها تُحاول أن تقول بطريقةٍ مُهذبة راقية: «بحق السماء، تخلَّص يا أبتِ من ذلك الشقي الذي سيحاول إثارة المتاعب دومًا كمحاولة أخيرة لخلق الفوضى.»

وبينما هم جالسون يُدخنون، باستثناء مُضيفة البيت، أحضر الخدم الدفعة الأخيرة من البريد للسيدة سكودامور. كانت عبارة عن خطابٍ واحد في ظرفٍ أبيض ثخين، عليه شعار، ولم يستطِع المحامي منع نفسه من التعليق.

فقال: «هذا خطُّ يد السيدة فيفيان.»

ابتسمت زوجته وأجابت: «أجل، هذه دعوة العرس بلا شك.» وأضافت موضحة: «ستتزوج ابنة الأسقف الكبرى الشهر القادم. وقد وعدت زوجة الأسقف بالحضور.»

لاحظ إيجناتيوس سعادة القسيس بمعرفة هذه المعلومة الاجتماعية. بدا أن مجرد ذكر اسم الأسقف مثل الرُّقية التي تطرُد روح الإفك الخبيثة.

التزم إيجناتيوس الصمت التامَّ وهما في طريق العودة إلى المنزل، حتى إن القسيس بدأ يُعرب عن بهجته الشديدة.

أعلن: «أنت مُتجهِّم لأنك لا تريد لشيءٍ أن يحول بينك وبين حل اللغز. لكن السيد سكودامور هو أكثر المحامين حصافةً وحكمة في المقاطعة، كما أنه يشاركني رأيي.»

هز إيجناتيوس رأسه نافيًا.

وأجاب: «لا، كنت أفكر في مرَض العمدة. فقد زوَّدني بخيطٍ مفيد. تخيل لو أن السُّم الأصلي كان موجودًا في القرية، في صورةٍ خاملة وربما لا يكون مؤذيًا، حتى ظهر الجيلاتين البريء في المشهد مصادفة. لكن ما جيلاتين لُغزنا تحديدًا؟ سأصل إلى هذه المعلومة إذا تأكدتُ من هوية كاتب الخطاب الأول ... كما أنني كلما حاولتُ حلَّ هذه المشكلة، ظهرت لي مشكلة أخرى.»

سأل القسيس برحابة صدر: «وما المشكلة؟»

رد إيجناتيوس: «مشكلة امرأة. امرأة لا تبتسِم أبدًا.»

الفصل العشرون

# لوائح مكتب البريد

تتابعت الأيام، بلا صدمات أو أحداث مفاجئة، حتى بدا أن إيجناتيوس يقبل مكانته كنزيل في القرية لفترة الصيف. وسُرَّ القسيس أيَّما سرور بصحبته؛ إذ كان ضيفًا خفيفًا، وسيارته وفرت له وسيلة ترفيه. راح القسيس يقود السيارة اللامعة عبر الأزقة المتعرجة، مثل نسناس يقود عربة اللبان، وبجواره تشارلز ديكينز، الذي اكتسب عقدة الرفاهية.

لكنه اكتسب عادة جديدة، بدأت تُثير أعصاب القسيس رويدًا رويدًا. في كل مساء، اعتاد عند سماع طرقة ساعي البريد الأولى مِن بعيد، أن يذهب إلى البوابة، ويشاهد الساعي البدين وهو يتنقَّل من بابٍ لآخر.

كان يسأل دائمًا: «ما الذي أحضره ساعي البريد؟ مَن سيحصل على خطابه اليوم؟»

وفي صباح أحد الأيام أعلن القسيس عن نيَّته زيارة مكتب البريد.

قال: «لا بد أن أعرف إن كان أيٌّ من طوابعنا الجديدة قد تُدُوول بين الناس.»

وفجأة انشغل القسيس بكلبه. قال: «إنك تزداد وزنًا يا تشارلز. تجوَّلنا بالسيارة كثيرًا ... لم تُعجبني فكرتك يا رجل.»

وافقه إيجناتيوس قائلًا: «ولا أنا. أعترف أنني لا أفقه شيئًا في مسألة نصب الكمائن. هذه مهمة الشرطة. لو أوكلتُ إليهم المهمة، لعرفوا كيف يتعاملون معها باحترافية من البداية إلى النهاية ... لكن عليكَ أن تقرَّ أنني أتخبَّط في الظلام؛ إذ دمَّر الجميع كل الأدلة عن قصد. وليس لديَّ سوى خطابٍ واحد للعمل عليه.»

قال القسيس: «كان لديَّ خطاب أيضًا. وقد مزَّقتُه بالتأكيد. هذه استجابة طبيعية.»

علَّق إيجناتيوس: «لا بأس. لا يزال عقلي منشغلًا بالاحتمالات البعيدة. أنا لا أهمل الخطوط الجانبية من أجلك. بدا كمين الآنسة ريد بدائيًّا ورديئًا، لكنه قد يقودنا إلى شيء. سأذهب لأتحقَّق من الأمر.»

ارتدى إيجناتيوس قبعة أظلَّت وجهه، فبدا تلميذًا نحيفًا، ثم سار داخل الحديقة. دوَّى وراءه صوت القسيس بخبرٍ جديد.

قال: «لديَّ ضيف على الغداء. قسيس بروتستانتي آخر. سيأتي في الواحدة تمامًا.»

بدا الاستياء على وجه إيجناتيوس من الفكرة؛ غير مُدرك للمنافع المستقبلية لهذه الزيارة، في حين تجهَّم وجه القسيس، من خلف ظهره، مثل آثِم ينتظر العقاب.

فور أن دخل إيجناتيوس إلى مكتب البريد المُزدان بعناقيد الورد الأبيض بدا مثل عريشة زهرية، عرف سرَّ قلق القسيس. أومأت له الآنسة كاسي ريد ببرودٍ وناولته العشرة الجنيهات.

قالت: «كنتُ أنتظرك. خُذ أموالك من فضلك. لن أمضي قدمًا في تلك الخطة.»

رغم الوضعية الواثقة التي كان يتَّخذها إيجناتيوس، فقد فقدَ توازُنه حين رأى الورقة المالية.

سألها: «ألم تبيعي أيًّا من دفاتر الطوابع؟»

«بعتُ واحدًا للأسف. واشترتْه ليدي دارسي.»

تذكر إيجناتيوس سيدة ضخمة غير واضحة المعالم.

سأل: «لماذا غيرتِ رأيك؟»

أجابت الآنسة ريد: «لم تُعجبني الفكرة من البداية مطلقًا. ولكني افترضتُ موافقة القسيس عليها لأنك تُقيم معه. تذكرتُ مواعظه. فتحمَّست للمساعدة. لكن لم يتغير نفوري منها مهما فكرت. وبعد أن بعتُ أول دفتر لليدي دارسي، شعرت أنني خُنت ثقة أهل القرية.»

سأل إيجناتيوس: «وبعد ذلك تحدثتِ مع القسيس بشأنها، أليس كذلك؟»

أجابت: «أجل، تحدثت إلى القسيس، وأخبرتُه أنني ضحَّيتُ بجميع مبادئي من أجل الخطة. وعندما قال لي إنه هو نفسه لا شأن له بها، مزقتُ قائمة الأسماء وأخرجتُ جميع دفاتر الطوابع المؤشرة من الدرج.»

قال إيجناتيوس: «لكن يجِب ألا تتكبَّدي أي خسائر مادية.»

قالت: «لا بأس. تحتفظ الطوابع بقيمتها الاسمية. يُمكنني التبرع بها لأصدقائي في لندن وغيرها ... لكن لن يُباع طابع واحد في هذه الناحية؛ حيث قد يكون في ذلك ضرر.»

قال إيجناتيوس: «أنا سعيد بذلك. لكني في غاية الأسف لأنني تسببتُ في إزعاج سيدة ذات مبادئ سامية مثلك.»

حدَّثت الآنسة ريد نفسها بسرعة: «هذا تملُّق. إنه يريد شيئًا آخر.»

طرح إيجناتيوس سؤاله رغم أنه لم يكن لدَيه أمَل حقيقي في معرفة الإجابة.

قال: «أظن أن لا جدوى من أن أسألك إن كانت هناك أي أظرُف جديدة مكتوبة بأحرُف مطبوعة قد وصلت إلى القرية، أليس كذلك؟»

وافقته الآنسة ريد: «أجل. لا جدوى من سؤالك. ولا جدوى أيضًا من محاولة رشوة ساعي البريد. أعلم أن الاعتقاد السائد هو أننا نقرأ جميع بطاقات المُعايدة، التي تأتي إلى البلدة، لكن هذا كله هراء. لن تعرِف من توملنسون سوى ما يريد أن يُخبرك به، وهو قدْر ضئيل جدًّا.»

قال إيجناتيوس مُحتجًّا: «لم أكن لأفكر في رشوة مسئول بالبريد ولو في أحلامي.»

سألت: «ولِمَ لا؟ لقد حاولتَ رشوتي.»

نظر إليها إيجناتيوس، وتأمَّل شعرها القصير الأشيب الأنيق، ووجهها المُتوتر المتورِّد، وعينَيها الزرقاوين الثاقبتين. في تلك اللحظة، أدرك سبب وقوع الجرائم. يُمكن لهذه المرأة الضئيلة العدوانية أن تمنحه أكثر معلومةٍ كان يرغب في معرفتها في تلك المرحلة.

كان هذا هو الهدف الوحيد الماثل أمامه عندما طرح مسألة الطوابع المؤشرة الغبية. لقد فعل ما يفعله الفارس في لعبة الشطرنج، فقط سلك سبيلًا غير مباشر للوصول إلى هدفه كما يحدُث عند تحريك الفارس في الشطرنج. كان يأمُل في إقامة شراكة مع الآنسة، كي يكسب ثِقتها، ويمهِّد لها الطريق رويدًا رويدًا لخيانة منصبها.

بدا إيجناتيوس ضئيلًا مُحبطًا، وهو يدير ظهره استعدادًا للرحيل، حتى إن الآنسة ريد التي كانت في حجم العصفور شعرت بالشفقة نحوَه.

قال إيجناتيوس: «لن أغفر لنفسي. آمُل ألَّا تحملي لي أي ضغينة.»

قالت: «بعدما تصالحتُ مع نفسي، لا أكنُّ لكَ أي ضغينة. لكني أُمثل حكومة إنجلترا.»

بعد أن خرج إيجناتيوس، توقَّع أن يرى رفرفة علم الاتحاد من أعلى البناية الصغيرة، وأن يسمع عزف النشيد الوطني.

لم يُدرك إيجناتيوس مدى تعويله على تلك الخطة حتى أخفقت. فراح يتجول في شوارع القرية، يتأمَّل وجوه المارة، بفضولٍ حائر. أهم جميعًا يرتدون أقنعةً أم أنها تعابيرهم الصباحية المعتادة؟ لم يبدُ على شخصٍ واحد علامات قلَّة النوم باستثناء القسيس.

حدَّث نفسه: «لا شك أن خطابًا مجهولًا يظل مجرد أمرٍ مزعج لا يهمُّ حتى يضغط على وترٍ حساس. ربما لم يتعرَّض أحد هنا لمصاعب أو تنزل به مِحَن.»

على ساحة القرية، دنت ماريان بيري من إيجناتيوس في جرأة، فشعر بالضيق إلى حدٍّ ما. بدت كامرأةٍ لعوب جميلة، في فستانها الشفَّاف، رغم أن لونه الكريمي الغامق لم يستطِع استفزاز ذوقه الصعب الإرضاء.

سألت بعدَم اكتراث: «هلَّا تناولتَ الغداء مع زوجة قاتل؟»

لم يبتسِم إيجناتيوس وهو يُجيب عليها بأسلوب شديد الرسمية.

قال: «هذا من دواعي سروري. لولا أنني مُضطر للعودة من أجل غداء كهنوتي.»

أومأت برأسها: «أعرف. شريحة من لحم الضأن المشوي وصلصة البصل. سأُقدم لك عرضًا أفضل. ادخل وسأقدم لك الطعام نفسه. لا؟ كيف يُمكنني مساعدتك؟ تبدو تائهًا. هل أريك الطريق إلى بيت القسيس؟»

قال: «لا، أشكرك. لا أريد أن أتعرَّض للخداع.»

أومأت ماريان برأسها وتركته. قطعت المرأة الضاحكة، ذات الجسد المَمشوق والخطوات السريعة، ساحة القرية راكضة صوب حديقة منزلها.

كان مهرجان الطفولة المعتاد مقامًا على العشب؛ حيث كان الطفلان الرضيعان يلهوان في حوض السباحة القماشي، برفقة مُمرضة ومُربية أطفال.

بينما تمهَّلت ماريان في مشيتها لتملأ عينَيها من ميكي الذي بدا يجيد السباحة نوعًا ما، تلاشت ابتسامتها وقطَّبت حاجبَيها في قلق.

سألت: «ألا يبدو شاحبًا بعض الشيء أيتها المرضة؟ أتعتقدين أنه مُصاب بالأنيميا؟»

زمَّت المرضة شفتَيها امتعاضًا. كانت ماريان تمنحها الراتب المُرتفع الذي طلبته بِناءً على فترة عملها القصيرة مع إحدى سيدات المجتمع الراقي؛ لكن المرأة كانت مخادعة بالفطرة، وتعتمد على اقتراحاتها المُكلفة بشدة، بشكلٍ أساسي، لتبرير ارتفاع أجرها.

كانت ماريان في قرارة عقلها تكنُّ مشاعر كراهية شديدة لجوردان، غير أن ثقتها في ممرضتها المرتفعة الأجر كانت تامَّة. وانتظرت في قلقٍ بينما انشغلت المرضة بالتفكير في طريقةٍ جديدة لإهدار مال الطبيب.

ثم قالت: «يجب أن يذهب الطفلان إلى البحر. الأجواء هنا باعثة على الكسل والارتخاء للغاية. إنهما بحاجةٍ إلى الماء المالح لتقوية عظامهما.»

ردَّت ماريان: «يجب أن يذهبا إذن.»

وركضت وهي تَصفُر كالشحرور إلى المكتب، حيث كان الطبيب يرتدي معطفًا باليًا من صوف الألبكة، ويفتش في رفوف مكتبه بحثًا عن تركيبة دوائية.

نادت بصوتٍ غنائي: «يجب أن ترسِل العائلة إلى البحر يا هوريشيو.»

أجاب الطبيب: «لا. إن تغيير الأطعمة والعادات يضرُّ أكثر مما يُفيد. من الأفضل للطفلَين البقاء في القرية.»

قالت ماريان: «لكن المرضة تقول إنهما يجب أن يذهبا.»

قال: «الأمر محسوم إذن. ستتولى المرضة النفقات، أليس كذلك؟»

أجابت ماريان: «أها، على ذكر الدفع. يجب دفع راتِب المرضة غدًا. حرِّر لي شيكًا مُجزيًا يا عزيزي.»

هزَّ الطبيب رأسه.

وقال مُتشدقًا: «لا جدوى من ذلك. فلا يُمكنني الوفاء به.»

سألت ماريان: «لماذا؟»

ردَّ: «للسبب المعتاد. لا يُوجَد أموال في الحساب البنكي.»

نظرت إليه زوجته مليًّا بعينَين مذهولتَين.

وسألت: «ولكن كيف سأتصرَّف مع المرضة؟»

أجاب: «اطرديها واعتنِ بالطفلَين بنفسك.»

وفي الحال طار صواب ماريان.

وهتفت بغضبٍ عاصف: «لا أستطيع. سأضيع بدونها. ماذا سيفعل طفلاي بدونها؟»

أجاب الطبيب: «سيكونان في أحسن حالٍ إن اتَّبعتِ تعليماتي.»

قالت: «أنتَ. أنتَ مجرد طبيب. ماذا تعرف عن الأطفال؟ لا بد من وجود امرأة تفهمهما. لا يمكن أن أدع المرضة تذهب.»

اقترح عليها الطبيب القيام بمهمتها المُفضلة في محاولة يائسة لتهدئتها.

قال: «بدلًا من أن تنزعجي من أجل لا شيء، ما رأيك في جني بعض المال؟ أرسلي الفواتير.»

انفرجت أسارير ماريان لدى سماع الفكرة.

قالت: «الوقت مُبكر بعض الشيء، لكن سأبدأ العمل عليها. سيبدأ المحاسب الخاص بك عمله.»

عاود الطبيب بحثَه عن الوصفة. وبعد نحو خمس عشرة دقيقة، وجد الورقة المفقودة وذهب إلى الصيدلية، وإذا بزوجته واقفة عند النافذة. كانت تُراقِب طفليها في الحديقة، وكان هناك جمود في وقفتها لفت انتباه الطبيب.

سأل الطبيب: «متى ستبدئين تحرير الفواتير؟»

أجابت: «لقد انتهيتُ منها.»

سأل الطبيب: «بهذه السرعة؟»

أجابت: «أجل. لم تكن كثيرة.»

بينما كانا يتبادلان النظرات، حاولت ماريان أن ترسم ابتسامة جامدة على شفتيها. أدرك زوجها أن شدَّة الصدمة أطفأت ثورة غضبها تمامًا. كانت ضربة قوية له أيضًا؛ لأنه كان مطلوبًا بصفة مُستمرة بسبب تفشٍّ محدودٍ لداء الحصبة. كان يعيش في أرض الأحلام دائمًا، فلم يختبر ذلك الجانب الكاسد لوظيفته.

قالت ماريان: «نحن في فترة ركود. لا بد من تسريح المحاسب.»

انقبض وجهُها فجأة، حتى وهي تُلقي دعابتها السخيفة، وهرعت خارجةً من الغرفة.

في هذه الأثناء، كان إيجناتيوس قد عاد إلى بيت القسيس على غير رغبةٍ منه، غير واعٍ بوقوع أي عواصف رعدية وسط هذا الجوِّ العليل الذي يسود القرية. وعندما قدَّمه القسيس إلى الضيف، تبيَّن أن الوضع أسوأ بكثيرٍ مما كان يخشى. فلم يكن القسيس الزائر في نفس عمرهما، بل والدًا لأحد أصدقاء القسيس في الكلية، وعمره يتجاوز السبعين.

كان الضيف بدينَ الجسم قصيرًا، أشيب الشعر، متورِّد الخدَّين، لديه مخزون كبير من الحماسة. حتى إنه أخذ يُطنب في وصف القرية مُستعينًا بصفات لا حصر لها، تاركًا أثرًا بالغًا في نفس القسيس، ما دفع القسيس لدعوته للبقاء حتى موعد الشاي بدون تفكير.

قال السيد جنكينز: «سأكون في غاية السرور. كانت جولتي في القرية سريعة جدًّا فلم أعطِ الكنيسة حقَّها.»

مضى وقت الغداء ببطء، وإيجناتيوس يزداد سأمًا فوق سأمِه، بينما الأب جنكينز يهيم على وجهه في ضباب ذكريات الماضي. أسهب جنكينز العجوز في الحديث بلا توقف، يستدعي أحداث الماضي ويتذكره، ويحكي قصصًا عن أناسٍ رحلوا ومبانٍ هدمت. ولكن بعد قليل، وعلى ذكر تاريخٍ بعينه، اعتدل إيجناتيوس في جلسته، وقد أصبح مُنتبهًا يملؤه الفضول.

سأل إيجناتيوس: «أكنتَ كاهن كنيسة سانت جايلز منذ أربعين سنة؟»

«بل منذ ثلاثٍ وخمسين سنة. عملتُ هناك ست سنوات.»

سأل إيجناتيوس: «تُرى هل التقيتَ بسيدة تُدعى الآنسة أسبري، كانت مديرةً لدار الإنقاذ، في أبرشيتك؟»

كرَّر الكاهن الاسم: «آنسة أسبري؟ أجل. أجل بالتأكيد. أعرفها جيدًا.»

«كيف كانت؟»

«امرأة جميلة.»

قال إيجناتيوس: «أقصد ... كيف كانت شخصيتها؟»

عندما توقَّف الكاهن العجوز عن الحديث قبل أن يُدلي بإجابته، نظر إجناتيوس إلى القسيس نظرة خاطفة، ورأى على وجهه تعبيرًا به شيءٌ من الامتعاض والقلق. ثم جاء الرد.

«كانت أفضل امرأةٍ تشرفتُ بلقائها. كانت أشبه بقديسةٍ حقًّا. بدت نقيةً من أي نقائص. وكانت تقوم بأعمالٍ نبيلة تتطلَّب التضحية بالذات، كانت تُحيرها في بعض الأحيان بسبب عدم جدواها ظاهريًّا. ولكن بِنيتها الجسدية كانت ضعيفة وقد تكون فارقت الحياة الآن، وصارت تفهم كل ما استغلق عليها.»

قاطعه إيجناتيوس: «أوه، لا، لم تمُت. إنها تعيش هنا، في منزلٍ فخم على الطراز الإليزابيثي، وتستمتع بحياتها تمامًا.»

بدا السيد جنكينز مصدومًا. وقال: «حقًّا؟ أتعني ما تقوله؟ حسنًا، حسنًا. كيف يمضي الوقت سريعًا؟!»

لكن القسيس، الذي ندم على إهدار فترة ما بعد الظهيرة في تلك الزيارة المُملة، رأى مخرجًا من هذا المأزق فجأة.

قال: «عندما ننتهي من جولتنا في الكنيسة، سنذهب لزيارة الآنسة أسبري. ستستمتعان بالحديث عن الأيام الخوالي.»

طمأنه ضيفه: «عظيم. سيكون لقاءً مُمتعًا بلا شك. إنه لكرم أخلاق منك أن اقترحت هذه الزيارة المسلية.»

لكنه بدا غارقًا في التفكير حتى إن إيجناتيوس خمَّن سبب انطفائه. استطاع إيجناتيوس بخُبثه المعتاد أن يُحدد اللحظة التي سيجد فيها الكاهن العجوز العُذر المناسب للإفلات من هذه الزيارة؛ إذ استعاد بهجتَه وطلاقة لسانه فجأة.

راح العجوز يُثني على القرية أكثر من ذي قبل، وانتظر حتى قُدِّمتِ القهوة، ثم تفقد ساعته وتنهَّد.

قال: «أنا في غاية الحزن، لكن لا يمكنني قبول دعوتك الكريمة بالبقاء على أي حال. فلديَّ ارتباط عليَّ الوفاء به. متى ستغادر الحافلة التالية؟»

قال إيجناتيوس من باب النكاية: «يُمكنني توصيلك بسيارتي إن أردت.»

اعترض العجوز: «لا يمكن»، وأسرع يرتدي قُبعته الناعمة، واتجه إلى الباب بخطواتٍ قصيرة كالطفل. وبينما كان يُلقي تحية الوداع، كرَّر شكره للقسيس، وأضاف رسالة للآنسة أسبري.

قال: «أيُمكنك أن تنقل للآنسة أسبري بالِغ أسفي لأنني لم أحظَ بفرصة إحياء صداقتنا؟ هلا تذكُرني عندها من فضلك، وتبلغها بمدى سعادتي أن امتدَّ بها العمر لتعيش حياة مثمرة سعيدة؟»

عندما رحل ضيفهما، شعر القسيس بنشوة الانتصار.

قال: «أتمنى أن تكون راضيًا الآن. فلديك شهادة صادقة على شخصية الآنسة أسبري من شخصٍ عرفها في نطاق العمل، وهذا يختلف عن معرفتها في النطاق الاجتماعي، كما في حالتنا. فشخصية المرء الحقيقية تتضح عند الاحتكاك به بصورة يومية في الوظيفة نفسها.»

قال إيجناتيوس معترفًا: «أجل. أنا واثق من أن العجوز البدينة قد قالت الحقيقة. بل بالَغَت في الصدق أيما مُبالغة.»

علق القسيس: «أتمنَّى إذن ألا تكون ما زلت ترى أي قتامةٍ في عيش امرأتَين غير متكافئتَين معًا؟»

لاحت ابتسامة خبيثة خاطفة على وجه إيجناتيوس.

علَّق: «لقد أثنى صديقك العجوز على الآنسة أسبري ثناءً يبلغ عنان السماء لأنه كان يعتقد في موتها. لكنه كان حريصًا بشكلٍ واضح على عدم مقابلتها وجهًا لوجه. لذا أعتقد أن الموقف أكثر قتامةً من ذي قبل.»

الفصل الحادي والعشرون

# أيام سعيدة

بعد مُضي أسبوع، قرَّر إيجناتيوس العودة إلى لندن.

قال للقسيس: «يبدو من العبث البقاء هنا في انتظار لا شيء. كل ما عرفته، من مشاهداتي الأخيرة، أن فيفيان ابنة العمدة وجوان بروك ليستا على وفاقٍ، وأن الطبيب ليس مغرمًا بزوجته. أعتذر لأنني لم أستطع مساعدتك على نحوٍ أفضل من ذلك.»

قال القسيس، الذي اعتبر رحيل صديقه إيذانًا بعودة السلام إلى الأجواء: «لكنك كنتَ عونًا عظيمًا. فأنت من أشرتَ إلى حقيقة أن الآنسة كورنر هي من كتبت الخطابَين الأوَّلين، وأن الخطابات الواردة بعد رحيلها مُداعبات سمجة لا أكثر.»

ردَّ إيجناتيوس: «لا. لقد أشرتُ إلى أن الآنسة كورنر هي من كتبت خطابها قطعًا، و«ربما» هي من كتبت الخطاب الموجَّه للآنسة أسبري. ولو لم تكن هي الفاعلة، فهذه بداية معاناتكم.»

غيَّر القسيس دفة الموضوع.

قال: «سأفتقدك وسيفتقد تشارلز سيارتك. أخشى أن كبرياءه ستتلقى ضربةً قاسية عند غيابها. فهو يظن أنني أحضرتها لاستخدامه الشخصي.»

انجرف القسيس مع تيار الحياة غير المحسوس في القرية، حيث كانت أبرز الأحداث شروق الشمس وغروبها والبقية هي الساعات البينية. بدا أن جميع مَن في دائرته نسِي واقعة وفاة الآنسة كورنر المُزعجة وما تلاها من رعب. وكأن أهل القرية قد أدركوا لا شعوريًّا أنهم ما داموا لم يجتمعوا في مكانٍ واحد بأعداد كبيرة، فهم في مأمَن من غريزة القطيع التي تجعلهم يفزعون من أي حدَثٍ مخيف قد يقع بلا سابق إنذار.

ومع أن الخوف لم يعُد رعبًا أسود عديم الملامح مختبئًا في الظلام، تساءل القسيس في بعض الأحيان عما إذا كان قد تلاشى حقًّا للأبد. ولازمه شك بغيض في أن الزائر الكئيب ربما لم يكن غير مرئي له؛ لأنه ينتشِر بكل جرأة في وضح النهار.

ربما كان الرجال والسيدات من أهل القرية قد أَلِفوا حضرته، حتى صاروا يجدون متعة غريبة وشاذة في رفقته، واستمتعوا باختلاس الحديث معه، في جحور وزوايا سرية، بعيدًا عن مرأى الجميع ومسمعهم.

آنذاك، تذكر القسيس المثل العربي الذي قاله الطبيب: «هي ليلة واحدة يا مكاري»، وحدث نفسه بوجوب الصبر والانتظار. فستمضي الأزمة حتمًا.

قبل ليلتَين من عودة إيجناتيوس المُزمعة، توجَّه مع القسيس إلى منزل «ذا كلوك»، لتناول العشاء. كان العشاء عبارة عن وجبة عائلة سكودامور الرسمية المُعتادة، مع المشروبات المثلجة والمناقشات التقليدية، التي كانت بمنزلة مُهدئ لعقل القسيس المُضطرب. وسرعان ما حمل إليهما السيد سكودامور نبأً محليًّا يبعث على التفاؤل، بدا يُلمح إلى إمكانية استعادة الحياة الاجتماعية.

قال: «سمعتُ أن منزل «تاورز» ستُفتَح أبوابه من جديد.»

رفع إيجناتيوس بصرَه عن الهليون الذي كان يتناوله.

وسأل: «أتقصد الأبراج الأسطوانية المُرعبة على طريق لندن؟ من يعيش هناك؟»

أجاب: «عائلة مارتن. إنها عائلة في غاية الثراء. وكانوا بالخارج طوال عامَين.»

زادت السيدة سكودامور، التي كانت خير رفيقة، على معلومات زوجها.

قالت: «لديهم أربعُ فتيات غير متزوِّجات، جذَّابات ومتواضعات، إحداهن خُطبت حديثًا لكونت إيطالي. ستصل الابنتان الكبريان، الآنسة مارتن وكونستانس، أولًا، ثم ستتبعهما أختاهما.»

علق إيجناتيوس بفظاظة: «أظن أنني سمعتُ عنهن من قبل. ألسنَ الفتيات اللائي لا يتذكَّرن من الأماكن التي زُرنَها سوى متاجرها؟»

لكن المحامي وزوجته وأَدَا المحادثة في مهدِها.

قال السيد سكودامور: «لا أظن ذلك صحيحًا. لقد اعتادت الفتيات السفر حتى إنهنَّ يرَين خبراتهنَّ الخاصة معلوماتٍ عامة.»

وافقته السيدة سكودامور: «بالتأكيد. لطالما وجدتُ طريقتهنَّ لطيفة في البحث عن موضوعات دارجة شيقة لمناقشتها مع صديقاتهنَّ من ربَّات البيوت.»

أخذ الحنين إيجناتيوس إلى رجلٍ نمَّام في ناديه، اشتُهر بلسانه الذي كان كالسوط، واشتاق لمرارة حديثه كترياقٍ لشراب عائلة سكودامور الحلو المذاق.

لم يخطر ببال إيجناتيوس، وهو يجول ببصره عبر المائدة الخافتة الإضاءة، ذات الخشب الماهوجني اللامع المُزيَّن بمفارش الأطباق الدانتيل المُتطابقة الشكل، والخشخاش الأيسلندي الرقيق التنسيق، المنسجِم مع ظلال الشموع الكهرمانية، كيف ستبدو هذه الذكرى رائعة في ضوء حدثٍ مستقبلي ما لَمَّا يأتِ بعد.

كان الطقس حارًّا ذلك المساء؛ لذا قدِّمت القهوة لهم في الشرفة. وانهمك الزوجان في احتسائها، بقناعهما المثالي الذي لم يخلعاه، عندما فُتحت بوابة الحديقة على مصراعيها ودخلت منها فتاة. كانت تلك الفتاة هي جوان بروك، وكانت متورِّدة الخدَّين من مجهود السير، حاسرة الرأس، ترتدي شملةً قصيرة فوق فستان السهرة الأبيض الذي كانت ترتديه وكان من الخامة نفسها.

لمعت عيناها عندما رأت وجه القسيس، وأشرق وجه القسيس وتبدَّدت كآبته في المقابل.

بررت جوان سبب مجيئها للسيدة سكودامور، بأنها تحمل لها دعوة لتناول الشاي مع الليدي دارسي، في عصر اليوم التالي.

ضحكت جوان قائلة: «من المُفترض بالطبع أن أرسل لك الدعوة مكتوبة. لكني أعاني من الأرق كثيرًا في المساء؛ لذا اتخذتها ذريعة للمشي.»

طمأنها المحامي: «لا يمكن أن تطمح زوجتي لرسالة أفضل من هذه»، بينما حاولت زوجته إلقاء دعابة بسيطة.

قالت: «سأطلب من الليدي دارسي أن تُرسِل إليَّ طابعي ... هلا تتناولين بعض القهوة يا آنسة بروك؟ هلا تتفضَّلين بالجلوس هنا؟»

وقادت جوان إلى مقعدٍ في أقصى الصف، يبعد عن القسيس بمقعدَين. لكن الفتاة، بتصميمها المعهود، تحدثت إلى القسيس متجاوزةً إيجناتيوس.

قالت: «لم أرَك منذ زمن.»

وافقها القسيس: «أجل. لا أعلم السبب حقًّا. لكن طرقنا لا تتقاطع في الآونة الأخيرة.»

هتفت جوان: «لا تُوجَد حفلات. لا أدري ماذا حلَّ بالقرية. لم تعدْ كما كنت أعرفها.»

شعر إيجناتيوس بالتسلية عندما رأى السيدة سكودامور تُبادر إلى تغيير دفة الحديث.

سألت السيدة: «هل أُعلنت خطبة فيفيان بعد؟»

سألت جوان بحدة ملحوظة: «هل خُطِبت؟»

أجابت السيدة: «هذا ما أرغب في معرفته. ستكون هناك خطبة بالتأكيد. فالميجور بلير يذهب إلى منزل «ذا هول» بصورةٍ يومية؛ وفيفيان ليست فتاةً رخيصة حتى تواعِد رجلًا غير جادٍّ في نواياه.»

سألت جوان: «وماذا عن نوايا الميجور؟»

كانت جوان تألف الأحاديث العابرة الحديثة حتى إنها لم تنتبِه إلى أنها قد أبدت واحدًا من تعليقاتها الفظة.

سارع القسيس بالرد قائلًا: «بلير شابٌّ لطيف. أنا أُحبه لأنه اللاعب الوحيد الذي يُمكنني هزيمته في ملعب الجولف.»

وافقه المحامي: «أجل. بلير رجل بحق.»

وبينما يقوم بذلك التصنيف البديهي، التقت عينا إيجناتيوس بعينَي جوان، وتبادلا ابتسامة سريعة. بعد ذلك خفض إيجناتيوس صوته.

وقال: «أتعجب من عدم زواج النساء برجال يفهمونهنَّ.»

ردت جوان: «أوافقك الرأي تمامًا.»

واصل إيجناتيوس: «نحن مثال حي على ذلك. فعقولنا تسير، أو بالأحرى تترنح، في توافق. لكنكِ لن تتزوجيني ولو كنتُ آخِر رجلٍ تبقى على قيد الحياة؛ وأنا رجل أعزب بالفطرة.»

قالت جوان مازحةً: «وُلدت فردًا، لكنك قد تموت متزوجًا.»

واصل إيجناتيوس الحديث في النقطة نفسها.

وقال: «أنا أفهمك حقًّا. رأيتك قد انزعجتِ عندما سمعتِ بخطبة فيفيان.»

حدجته جوان بنظرةٍ غاضبة، ثم استعادت ثقتها بنفسها.

واعترفت قائلة: «أرى الأمر غير عادل.»

قال: «لأن لديها أكثر ما تتوقِين للحصول عليه. الأمان.»

سألت: «كيف عرفتَ ذلك؟ ... ليس لأُمي سوى معاش أبي؛ لذا يجب أن نمدَّ لها يد المساعدة. كما أن شقيقيَّ عاطلان عن العمل.»

وعضَّت شفتَيها، ثم أمسكت عن الكلام.

قالت: «لمَ أخبرتُك بهذه الأمور؟ لا بد أنني جُننت. لا أحدِّث أحدًا عن عائلتي أبدًا.»

قال: «لكني أفهمك. وهذا لن يقدِر عليه صديقنا القسيس أبدًا.»

تقدمت المُضيفة الأنيقة، السيدة سكودامور، بثاني أفضل فستان سهرة لديها، وكان من قماش مطرز فضي يميل إلى الرمادي.

وقالت بنبرة عذبة: «كنَّا نود أن تبقَي معنا فترة أطول، لكن يجب أن تعودي إلى «ذا هول»، قبل حلول الظلام.»

استرقت جوان النظر إلى إيجناتيوس على غير رغبة منها، وقابل نظرتها بابتسامة عريضة. كان قلبها لا يعرف الخوف قط، إلا أنها كانت تعلم أنه لا فائدة من معارضة السيدة سكودامور.

واصلت السيدة سكودامور: «أعتقد أن بإمكاني إرسال ردٍّ شفهي على الدعوة الشفهية. فلتُبلغي اعتذاري لليدي دارسي؛ إذ إن لديَّ ارتباطًا سابقًا.»

كلمات رسمية من المُفترَض أن تتذكَّرها جوان في وقتٍ لاحق.

عادت جوان إلى «ذا كورت» في إحباط وامتعاض. فلم تتبادل سوى بضع كلمات مع القسيس، كما أن فيفيان قاب قوسين أو أدنى من الخطبة. ولشدَّة تعاستها، أجَّجت جوان شعورها بالبؤس بمقارنة تملؤها الغيرة بين حالها وحال فيفيان، وبانغماسٍ في التحسُّر على نفسها.

قالت: «لديها كل شيء. هما معًا الآن، وربما يتبادلان القُبَل ... وأنا وحيدة. هذه مضيعة للحياة. لا أملك أي شيء، ومدفونة كالأموات في هذه القرية. لكن لا مفرَّ لي من البقاء بسبب الأجر الذي أتقاضاه. إنني أضحِّي بنفسي من أجل أسرتي.»

كان تخمينها بشأن العاشقين شِبه قريب من الحقيقة. كانت جوان تسير في تأنٍّ بالقرب من بوابة «ذا هول»، وإذا بالميجور بلير يُعانق فيفيان على الجانب الآخر من السياج. لكنه عندما حاول تقبيلها، دفعته بعيدًا عنها.

وقالت: «لستُ كتلك الفتيات.»

في واقع الأمر، كانت جوان تقبَل القُبَل العابرة، وتعتبرها من قبيل الغزل، إلا أنها كانت خجولة ومحافظة بفطرتها. هكذا كانت طبيعة النساء على مرِّ العصور دومًا، بينما تتبنَّى الفتيات مبادئ الحداثة الواحد تلوَ الآخر. وهكذا لم يعتمد سلوكهنَّ على الحقبة الزمنية التي يتواجدنَ فيها وإنما على فطرتهن. وحدَه التعريف السائد للأخلاق، ومدى قبول العامة أو رفضهم لأي انتهاكاتٍ أخلاقية، هو الذي كان يتغيَّر بتغيُّر الزمن.

كانت فيفيان تتجنَّب حدوث أي تقارُب حميمي مع الميجور بلير في الوقت الحالي. لقد عقدت العزم على الزواج بالميجور بلير، وتعرِف أنه قاب قوسين أو أدنى من طلب يدِها

للزواج. لكنها لا تستطيع الاطمئنان لحبيبها حتى إرسال إعلان خطبتهما إلى صحيفتي «تايمز» و«مورنينج بوست».

وكُللت خططها بالنجاح؛ إذ نظر الميجور إليها بإعجاب، وهي تُهذب خصلات شعرها الناعم الأشقر.

قال: «أعلم أنكِ لا تُشبهين تلك الفتيات.»

علقت فيفيان بلا اكتراث: «لستُ منفتحةً لتلك الدرجة. ربما لأنني أعيش في الريف.»

واصل الميجور مؤكدًا على كلامه: «أنا سعيد لأنكِ لستِ من هذا النوع من الفتيات. لا أحب المساواة بين الرجال والنساء في المعايير الأخلاقية، أو إهدار الوقت في زواج التجربة. سيظلُّ الرجل رجلًا مهما فعل، أما المرأة فستكتشِف أنها لم تجنِ شيئًا من التخلِّي عن أخلاقها.»

كانت فيفيان تُدرك أن هناك فتيات يلعبنَ على الحبلَين لتحقيق مآربهن، لكنها رأت أن من الفطنة التزام الصمت.

أعلن الميجور: «لن أتزوَّج بامرأة لها ماضٍ. الزواج مقامرة خطيرة، إلا إذا كان الرجل يعلم كل شيءٍ عن الفتاة وأهلها وما شابه ذلك.»

أشاحت فيفيان بوجهها، وسافر بصرُها إلى تعريشة الورد البري العطري، التي كان لونها أخضرَ رماديًّا في ضوء الشفَق. كان هناك أرنب يركض عبر ملعب التنس البعيد، لا يظهر منه سوى ذيله الأبيض القصير. ودوَّى صوت طائر الصفرد الحاد من خلف السياج، في حين طغت على الأجواء رائحة نبتة العسلة.

بدا المشهد الريفي مثاليًّا لعرض الزواج، فانتظرت فيفيان في ترقُّب مشبوب بالسعادة. كانت تعلم، من صمت الميجور الثقيل، أنه يُفكر بها.

ولكن بينما كان الميجور يعقد العزم على اتخاذ الخطوة، نادتها جوان بروك من عند البوابة.

قالت: «من حُسن حظي أن وجدتكِ هنا. فلن أضطر إلى السير إلى «ذا هول». جئتُ إليكم برسالة من ليدي دارسي. أيمكن أن تحضر السيدة زوجة العمدة غدًا لتناول الشاي؟»

أجابت فيفيان بنبرةٍ حادة جدًّا: «لا أدري. لستُ سكرتيرتها. ولا أحفظ مواعيدها.»

وسرعان ما ندمت على زلَّتها، وعادت إلى رِقَّتها المعتادة.

قالت: «أترغبين في أن أذهب إلى المنزل وأرى إذا كانت أمي متفرغة بالغد؟ أشكركِ كثيرًا على قدومك.»

وبينما كانت تتحدَّث، ابتعدت عن الميجور، الذي كانت ذراعه لا تزال تتأبَّط ذراعها.

نقلت جوان بصرَها من فيفيان بجسدها الأبيض النحيل إلى الميجور الذي كان يفوقها طولًا. كان وجهه، الذي سفعته الشمس فصار مثل نبيذ البورت، كبقعةٍ داكنة وسط الشفق، وبدت أسنانه بيضاء ناصعة في الظلام وهو يبتسم إلى فيفيان. ومن فرط سخطها على قدَرها البائس، نظرت جوان إلى العاشقَين في غيظ.

لم يكن هناك أدنى شك في أنهما من أبناء الطبقة الأرستقراطية بامتياز، فكان كل منهما يفهم الآخر بكل سهولة. كلاهما يتمتع بالأمان المادي إذ يملكان الكثير من سندات النصر، كما نشأ كلاهما على التقاليد نفسها وتمسَّكا بالمعايير الأخلاقية عينها. آنذاك، شعرت جوان بالهوة التي تفصل بينها وبينهما، ودفعتها سخرية همجية فظة إلى التحدُّث إليهما بلغتهما.

قالت: «أيمكن أن تتصل أُمك بالليدي دارسي؟ أخشى أن يحلَّ الظلام قبل أن أتمكن من العودة إلى «ذا كورت» لو انتظرتُ ردَّها.»

كان الميجور يفهم مغزى مثل هذا الكلام؛ إذ هم بفتح بوابة المنزل.

وقال: «كنتُ أتهيَّأ للرحيل، لذا سأعود معكِ. يجب ألا تسيري في ممرِّ السيارات وحدكِ ... إلى الغد يا فيفيان.»

كان صوته عاديًّا لكن ابتسامته تحمِل معنًى. وغادر المكان بخطواتٍ سريعة كأن مرافقة ليدي دارسي، في نظره، فتاة قوية رائعة تستطيع مواكبة خطواته.

أومأت جوان لفيفيان في المقابل، لا تُدرك أنها بلغت في طيشها مداه وأفسدت عرض زواجها، ثم زادت سرعتها إلى خمسة أميال في الساعة لتتأكد أنها متى توقَّفت عن السير فلن يواصل الميجور السير وحيدًا.

عادت فيفيان عبر حديقة الأزهار في تؤدة، ومرَّت بجانب ملعب التنس وبركة الأسماك، ثم صعدت المدرجات الثلاثة باتجاه المنزل. كانت أفكارها مصطبغةً بنشوة انتصار؛ إذ أيقنت أن الميجور كان سيطلب يدَها للزواج لولا مقاطعة جوان، وإن كانت تعلم أيضًا أن إثناءه عن رأيه لن يتطلَّب جهدًا كبيرًا.

لولا الحرب لربما تزوَّجت فيفيان منذ سنواتٍ طويلة. كان العمدة وزوجته يؤمنان بالزواج المُبكر، وقاما بتزويج بقية أولادهما. كانت كل فتاة تُخطب تلقائيًّا في أول ظهورٍ لها في المجتمع الأرستقراطي، وكان كل فتًى يحظى ببيتِه الخاص، كل هذا وهم لا يزالون في العشرينيات.

كانت الصغرى فيفيان على أعتاب الارتباط بالطبيب بيري في صيف عام ١٩١٤. لكنها عندما انضمَّت إلى وحدة للمساعدة التطوعية في المستشفى المحلي، وقعت في حُب ضابطٍ برتبة ملازم ثانٍ. كانت علاقتهما لا أمل منها وبلا معالم؛ إذ كسر الشاب بيلسون كل الحواجز الاجتماعية، ومع ذلك كان في شدة الخجل ومسحورًا بفيفيان، فلم يتَّخذ أي خطوات جادة سوى أن أحبها حتى العبادة، كما يتعلق عامل المنجم بنجمة المساء من مهوى منجمه.

انتهت الحرب تاركة لفيفيان ذكرى مُلتهبة، حين قضت عطلة نهاية الأسبوع مع بيلسون في كوخ في البلدة، تحت رعاية ضابط وزوجته.

بعد فاصلٍ سعيد من السكينة والرفقة المثالية، وردت برقية تستدعي الضابط الأكبر سنًّا من إجازته. فرحل هو وزوجته على الفور، وتركا الاثنين الآخرين ليلحقا القطار التالي.

لكن القطار فاتهما. فاعتبرا ذلك من تدابير القدر واستسلما لإغراء الموقف وقضَيا استراحتهما الثمينة في الكوخ. بدأ الوقت ينفد من بين أصابع العاشقَين، وكان كلاهما يُدرك أن فراقهما وشيك. اتسمت الواقعة بالبراءة ولم يشُبْها شائبة؛ إذ لم يأتِ الشابان بما يُنافي الآداب، رغم بقائهما دون مرافق.

اكتفى الشابَّان بأن ناما تحت سقفٍ واحد والتقَيا على وجبة الإفطار كأنهما زوجان حقيقيان.

ولم يعكر صفو العطلة سوى واقعة واحدة مؤسِفة. عند منتصف الليل تقريبًا، وبينما كانت فيفيان والشاب يجلسان معًا في غرفة المعيشة، إذا بشخص يطرُق الباب الأمامي. فأطفآ المصباح في هلع، وانتظرا في الظلام حتى ينصرف الطارق. لكن الطارق المُتطفِّل لم ينصرف، وظلَّ يتلكأ في الحديقة. ظنَّ الشاب بيلسون أن الخطر قد زال، فأشعل المصباح مرة أخرى، وإذا بهما يلمحان وجهًا ينظر إليهما عَبر النافذة.

استوعب الرجل حساسية الموقف على الفور؛ إذ ذاب في ظلام الليل في حذر.

حدث ذلك منذ وقتٍ طويل. فقد أُطلقت النار على الشاب بيلسون في حملة فلاندرز وطواه النسيان. وقُتل ابنا زوجة العمدة في معركة جاتلاند البحرية، فصارت شِبه مقعدة لسنوات. ولم يتقدم الطبيب بيري للزواج من فيفيان، فأصبحت مرافقةً لأمها، وهو ما برَّر بقاءها بلا زواج.

لكنها سئمت من بقائها بالمنزل، وأرادت أن تُصبح سيدة نفسها. كما أنها كانت مغرمة بالميجور بلير حقًّا. وبينما كانت تخلع ثيابها في غرفة نومها، في تلك الليلة، أخذت تتفحَّص وجهها الصغير المتورِّد في المرآة عن كثب. كانت الخطوط الرفيعة في وجهها أقل من نظيرتها في وجه جوان، لكن لم يُغير ذلك حقيقة أنها في الثلاثينيات من عمرها، وأن شبابها بدأ في الاضمحلال. لقد آن أوان زواجها.

فجأة، زلزل ظل قاتم الغرفة المبهجة الصغيرة، وربَّت الخوف على كتف فيفيان.

وهمس في أذن فيفيان: «الميجور ملكِ لو لم يثنِه شيء عن الزواج بكِ. ولكن ماذا لو علم أنكِ قضيتِ ليلةً مع رجل بمفردك؟ كيف سينظر لكِ حينها؟ تذكري أن أحدهم يعلم بهذا الأمر.»

سرَت برودة في جسد فيفيان رغم أنها كانت إحدى ليالي الصيف الحارة. كانت كلما تذكرت طيشها، في الفترة التي تلت جنون الحرب، دبَّت قشعريرة في جسدها. ولكنها كانت تُدرك أن تصرُّفها في ظاهرهِ لا يصبُّ في مصلحتها، حتى وإن كان مجرد طيش لا أكثر.

وحدَّثت نفسها قائلة: «ماذا ستقول أسرتي لو علموا بالأمر؟ أو السيدة سكودامور؟»

كان مجرد التفكير في السيدة سكودامور يجعلها تتفصَّد عرقًا. تراءت لها عيناها الواسعتان الوديعتان، وقد غشيتْهُما موجة صقيع من الصدمة والذهول، لو سمعت فقط بالقصة. لن يُصدق أحد براءتها إن عرفَ ملابسات الواقعة.

في تلك اللحظة، كان صبر السيدة سكودامور يتعرَّض لاختبارٍ قاسٍ في غرفة الاستقبال بمنزلها، حيث كانت شريكة إيجناتيوس في لعبة البريدج. كان إيجناتيوس لاعبًا متمرسًا، إلا أنه شرد بذهنه تمامًا حتى إنه نسِي استخدام البطاقات الرابحة مما أدَّى إلى خسارتهما الجولة.

ولم يكن بوسع إيجناتيوس إلا الإعجاب بالسيدة التي تظاهرت بعدم ملاحظتها لخطئه، وتقبلت الخسارة بابتسامةٍ مهذبة. لكن عندما انتقد القسيس أداءه، في طريق عودتهما إلى المنزل، ضحك ضحكة قاسية.

قال: «تركت لها ذكرى لي لن تُنسى. ما أهمية ذلك؟ سيسوِّيان المسألة بينهما بعد رحيلنا. أمثالهما يفعلون ذلك دائمًا.»

قال القسيس بنبرة جافة: «لا ريب أن زواجهما علاقة تضامُنية رائعة.»

«حقًّا؟ لا أُحبهما. إنهما يتظاهران بالورع والصلاح.»

فزع القسيس.

وقال: «حذارِ من هذه التهمة. إنهما مهذَّبان لطيفان، ويُضرَب بهما المثل في كرم الضيافة.»

«تقصد أنهما يوجِّهان إليك الدعوة لزيارة منزلهما. لكنهما لا يُشعرانك بالراحة كأنك بمنزلك.»

قال القسيس: «دائمًا ما يُشعرانني بذلك. كما أنني أعجبت كثيرًا بأسلوب السيدة سكودامور مع جوان بروك الليلة. لقد عاملتها بلُطف كأنها ابنتها.»

«هذا لأن الآنسة جوان فتاة محترمة. لكنها لو أتتْ إليهما وسط عاصفة ثلجية في ظلام الليل، وهي تحمِل طفلًا رضيعًا بين ذراعَيها، وطلبت المبيت، فسيختلف الأمر تمامًا.»

ثم ضحك إجناتيوس ضحكة خافتة.

وواصل كلامه: «أتخيَّل العجوز سكودامور، وهو يرتدي ملابس العشاء المناسبة ويوضح للآنسة جوان أنه لا يستطيع السماح لها بدخول منزله مراعاةً لزوجته واحترامًا لها. وستتفق معه السيدة سكودامور، بإيماءاتٍ وقورة، بينما تُغلق الباب حتى لا يسمع الخدم الحوار الدائر. بعد ذلك، سيعودان إلى لعب السوليتير.»

قال القسيس بصبر: «أنتَ أحمق ساذج. أعتقد أنه شيء خارج عن إرادتك لا تستطيع السيطرة عليه.»

رد إيجناتيوس: «هذا صحيح. تحمَّلني لأنني سأرحل قريبًا. حينها سيفتقِدني تشارلز وسيفتقد سيارتي. لكن، تذكَّر هذا ... ربما تذهب السيدة سكودامور إلى الكنيسة لكنها لا تعبد الرب. إنها تعبد آراء الجيران فحسب. ستراها على حقيقتِها في يومٍ من الأيام.»

ضحك القسيس وهو يفتح بوابة منزله. وعلى الناحية الأخرى من ساحة القرية، كان منزل «ذا كلوك» لا يزال يشعُّ بنور كرم الضيافة. وخلف تلك الستائر المسدلة، كان هناك مشهد منزلي ساحر دائر، حيث كان المحامي يُقسِّم أرباحه من اللعب مع زوجته.

قال المحامي: «لا يُمكنني التزام الصمت. سينال ذاك الرجل الضئيل البائس ما يستحقُّه إن رفض الجميع لعب البريدج معه. من الفظاظة مُعاقبة سيدة بهذا الشكل المهين.»

قالت السيدة سكودامور وهي تجمع نصيبها من البطاقات: «لم أُصدق عيني عندما رأيته يختار السباتي. أشكرك يا حبيبي. بالمناسبة، آمُل أنني لم أظهر انزعاجي.»

«لا، يا عزيزتي، لقد كنتِ رائعة. لاحظتُ انبهار القسيس بكِ. لقد تجاوزنا منتصف الليل يا حبيبتي. حان موعد النوم.»

كان الخدم قد صعدوا إلى الطابق العلوي منذ وقتٍ طويل، ولم يكن الزوجان يتركان أي غرفة وهي في حالةٍ من الفوضى أبدًا. فأفرغا منافض السجائر، ووضعا أوراق اللعب في مكانها، وسوَّيا الوسائد. بعد ذلك، قاما معًا بجولة في الطابق الأرضي، حيث أوصدا النوافذ، وأطفآ المصابيح.

كما زار الزوجان جيرمي القط، كي يطمئنَّا أنه قابع في سلته، ولا يتسبَّب في فضيحة بالانضمام إلى الحفل الشعبي في ساحة القرية، وأخيرًا صعدا للنوم يتأبط كلٌّ منهما ذراع الآخر.

كانت درجات السُّلَّم الماهوجني المنخفضة العريضة مغطَّاة بسجادة تركية سميكة باللونَين الأزرق والأحمر. وعلى بسطة السلم المُربعة، قبعَ تمثال رخامي لسيدة رشيقة، تُغطي الثياب جسدها بالكامل، تمسك بمجموعة من المصابيح يشعُّ منها بريق وردي، مما أضفى صبغة وردية على السجادة المحبوكة من فراء الدب القطبي. كانت هناك أيضًا مرآة طويلة، وشجرة نخيل خلت سعفاتها اللامعة من الغبار، وطاولة حائط رخامية عليها إبريق ماء الشعير وكوبين.

ابتسم المحامي في استحسانٍ وهو يصبُّ شرابهما الأخير المعتاد قبل النوم.

قال المحامي وهو يتشارك نخبًا مع زوجته: «كانت أمسيةً في غاية الروعة باستثناء تلك الواقعة البسيطة. كل الحُب لكِ يا عزيزتي. لتكن أيامكِ سعيدة.»

ارتشفت السيدة سكودامور الشراب بأناقةٍ وردَّدت نخبَه نفسه.

«كل الحُب لكَ يا عزيزي. لتكن أيامك سعيدة.»

الفصل الثاني والعشرون

# حياة وموت

في صباح اليوم التالي، كان السيد والسيدة سكودامور يتناولان طعام الفطور، في غرفة الجلوس الصباحية الأنيقة بمنزلهما. تدفقت أشعة الشمس إلى الداخل عبر النافذة الشرقية، فزادت الأزهار البنفسجية والبيضاء على الطاولة جمالًا، وانعكس وهجُها على إبريق القهوة الفضي اللون. انهمك المحامي وزوجته في الانتهاء من وجبتهما التقليدية المكوَّنة من البيض ولحم فخذ الخنزير مع مربى الموالح والتوست. كان المحامي يتصفح الأجزاء الأساسية في جريدة «مورنينج بوست»، وتقرأ زوجته عمود المواليد والوفيات والزيجات في جريدة «تايمز». وبعد ذلك، يتبادلان الجرائد، فيتناول المحامي جريدة «تايمز»، ويترك لزوجته «مورنينج بوست».

في ذلك الصباح الفريد، كان السيد سكودامور سيسافر إلى لندن ليومٍ واحد، لقضاء بعض الأعمال.

قال المحامي: «آمُل أن أعود بحلول السابعة مساءً على أقصى تقدير. ربما، بل على الأرجح، سأعود قبل ذلك. الأمر كله يعتمِد على الحافلة التي سألحقها. فجدول الحافلات لا يتفق مع مواعيد القطارات بدقة.»

سألت زوجته: «إذن هل نحضر العشاء في السابعة وخمس عشرة دقيقة يا عزيزي؟ ستكون جائعًا ولن ترغب في الانتظار.»

«ممتاز يا حبيبتي. ماذا ستفعلين اليوم؟»

«أظنني سأبقى بالمنزل وأنجز بعض المهام غير المكتملة. أريد أن أدع الخادمات يذهبن إلى قرية دورلي لحضور معرض منتجات الألبان بعد الظهر ولا أرغب في أن أترك المنزل فارغًا.»

قال المحامي: «بلى، لا أرى ذلك تصرُّفًا حكيمًا.»

سلَّم المحامي بالاعتقاد السائد الذي يقول إن أي امرأةٍ تُترك بلا حماية يُمكنها إحباط جرائم أعتى المتشرِّدين بمجرد الجلوس في غرفة استقبال منزلها. لكن السيدة سكودامور كانت آمنة تمامًا؛ لأن عمليات السطو لم تكن مألوفة في القرية.

رفعت السيدة سكودامور بصرَها في دهشةٍ طفيفة عندما سمعت رنين جرس الباب الأمامي. بعد برهة، أخبرت إحدى الخادمات المحامي أن الطبيب بيري يرغب في رؤيته.

تبادل الزوج والزوجة النظرات، وارتفعت الحواجب قليلًا؛ بعد ذلك، مسح المحامي فمه، وحرص ألا تدعس قدمه فتات الخبز على السجادة، واتجه نحو الباب.

قال المحامي مُعقبًا: «وقت غير مألوف للزيارات. قد تكون مسألة عاجلة. هل تأذنين لي بالانصراف يا عزيزتي؟»

كان الطبيب بيري واقفًا في غرفة المكتب، يفحص صورة فوتوغرافية لمدينة لوسيرن السويسرية، وعلى وجهه نظرة استكانة مشوبة بالتبلُّد واليأس، تلك النظرة المألوفة في غرفة انتظار طبيب الأسنان. وكانت بذلته البالية، رغم أناقتها، مُتهدلة عليه على نحوٍ يوحي بأنه قد خسر بعض الوزن، لكن كان وجهه الشاحب هادئًا.

قال الطبيب: «آسف لإزعاجك في أثناء تناول الفطور يا سيد سكودامور. لكن أردتُ أن أعرف آخر تفاصيل عملية بيع منزل الآنسة كورنر. متى سأحصل على الميراث؟»

أجاب المحامي: «ليس بالإمكان تحديد موعد. سنُضطر لبيع المنزل بالتراضي. كل العروض الحالية أقل من السعر الأدنى.»

ردَّ الطبيب بنبرة مرحة: «هذا مُحبط. أريد بعض السيولة. أخبرتني زوجتي أن عائلتي بحاجةٍ إلى تغيير الجو.»

قال المحامي: «لكنهم يبدون في وافر الصحة والعافية.»

أجاب الطبيب: «هم في حالة جيدة. لكن يبدو أن زوجتي ترى أن استنشاق هواء البحر مُوصى به.»

كان وجه المحامي الحليق جامدًا كأنه من الحرير الصخري؛ وكانت شفته العُليا الطويلة مزمومة، في محاولة منه لعدم الكشف عن تعاطفه مع حاجةِ صديقه المادية.

قال المحامي: «يُمكنني أن أدفع لك المبلغ مقدمًا من حسابي الشخصي إن كان هذا يناسبك.»

أجاب الطبيب: «شكرًا لك. سيكون ذلك عونًا كبيرًا.»

قال المحامي: «هل يُناسبك الليلة؟ سأستقل قطار لندن من بلدة شلتنهام. أو ما رأيك في تحرير شيك الآن؟»

قال الطبيب: «غدًا أنسب. لا ترهق نفسك بمسائل العمل الليلة. الأمر ليس ملحًّا لهذه الدرجة. شكرًا جزيلًا.»

عاد السيد سكودامور إلى غرفة الجلوس الصباحية، حيث نقل كل كلمةٍ دارت بينه وبين الطبيب إلى زوجته. كان الزوج وزوجته يتشاركان الأسرار، كما أن السيدة سكودامور لم تكن تُفشي أسرار العمل أبدًا.

قال المحامي: «تلك المرأة هي السبب. إنها تستنزف أمواله من أجل الأولاد.»

قالت زوجته: «أوافقك الرأي يا حبيبي. اللوم كله على ماريان. إنه لشيء مُريع أن تُفكر المرأة في أولادها أكثر من زوجها.»

وافقها المحامي الذي لم يكن لدَيه أطفال: «مريع حقًّا.» وبدت على وجهه علامات القلق؛ لأنه وإن كان يكبر الطبيب بأعوامٍ كثيرة، إلا أن كليهما ينتمي إلى عائلاتٍ محلية عريقة. عندما كان بيري شابًّا جذابًا هادئًا، ورث منزل سانت جيمس، إلى جانب ثروة خاصة صغيرة، وعيادة ممتازة.

آنذاك، توقع الجميع أن يتزوج الطبيب بفيفيان صغرى بنات العمدة؛ لكن الحرب، إلى جانب تعقيدات رومانسية مختلفة، حالت دون ذلك.

كانت ماريان تتصرَّف بتهذيبٍ شديد في منزل «ذا كلوك»، وتقبَّلها الزوجان سكودامور لأجل خاطر زوجها؛ لكنهما كرِها شخصيتها الجامحة وإسرافها الذي حوَّل منزل الملكة آن الأنيق إلى روضة أطفال صاخبة مثل مُستشفى الأمراض العقلية.

تنهدت السيدة سكودامور وقالت: «ليته تزوَّج فيفيان.»

قال المحامي: «أوافقكِ الرأي يا حبيبتي. السيدة بيري تُهدد مستقبله المهني. حين تكون المرأة زوجةً لرجل مِهني، لا بد أن تكون سندًا حقيقيًّا له بكل وسيلة ممكنة. وتزداد الحاجة إلى ذلك في منطقة تلعب فيها السمعة الحسَنة عاملًا أساسيًّا في بناء الثقة والمحافظة عليها.»

قالت زوجته. «أجل يا حبيبي. لكني أشعر بالفخر أن معاييرنا الأخلاقية عالية لهذا الحد.»

ردَّ المحامي وهو ينظر إلى زوجته بابتسامةٍ حانية: «أشاركك الشعور نفسه. تبدين متألقة يا عزيزتي. لكن من أجل المصلحة العامة، ألا تظنِّين أنكِ ربما تُعانين من الصداع العصبي، أو الْتهاب خفيف في المفاصل؟ لا أقصد عرَضًا مؤلمًا، وإنما عرَض بسيط يستلزم استشارة الطبيب.»

أجابت زوجته: «أنت تفكر في الآخرين دائمًا يا عزيزي. لا أحب التظاهر الزائف، ولو في أبسط الأمور، لكني أَعِدك بأن الطبيب سيقوم بزيارةٍ مهنية إلى منزلنا قريبًا.»

وتفقدت الساعة.

وقالت: «والآن، يا حبيبي، حان وقت رحيلك.»

كانت الخادمة تنتظر في الرَّدهة، وهي تحمل قُبعة المحامي ومظلته وحقيبة اليد؛ لكن السيدة سكودامور أشرفت بنفسها على تنظيف ياقة المعطف بفرشاة الملابس وعلى تفقُّد أغراضه. كما تأكدت من أن عروة معطفه المُزدانة بزهرة قرنفل بنفسجية مرقطة باللون القرمزي ثابتة في مكانها بإحكام.

وسار الزوجان عبر الحديقة المُقلَّمة بأذرع متشابكة. وعند البوابة، خلع المحامي قُبعته الحريرية الطويلة إيذانًا بالانصراف، وقبَّل زوجته التي كانت تنظر إليه بعينَين تفيضان فخرًا.

سألته زوجته بنبرةٍ تهكُّمية رقيقة: «ألا تُدرك أنكَ لم تعُد تُساير الموضة؟ أخبرتني السيدة بيري أن موضة غطاء الكاحل قد عفى عليها الزمن. يرتدي الرجال الأنيقون أحذيةً جلدية لامعة ذات سيقان من الجلد السويدي الرمادي، وياقاتٍ مشدودة من نفس قماش القمصان.»

أصدر المحامي صوت طقطقةٍ بلسانه.

وقال: «عزيزتي، عزيزتي. أخشى أن عليك أن تتقبَّليني كما أنا. ألا أتقبَّل زوجة تبدو مثل السيدات المُهذبات الوقورات دائمًا، في حين تقصُّ السيدات العصريات شعرها قصيرًا، ويرتدينَ تنانير تصِل إلى ركبتهنَّ؟»

شكل المحامي وزوجته لوحة ساحرة من الإعجاب المتبادل. بدا المحامي أنيقًا في السروال المقلم الرمادي، والمعطف الصباحي الأسود، والصدرة البيضاء، وغطاء الكاحل الكتاني، والقبعة الطويلة. وكانت زوجته ترتدي رداءً حريريًّا لونه بنفسجي غامق مُزدان بياقة وسوارَين من الموسلين. وأحاط شريط مخملي أسود بعُنقها لإخفاء عروقه.

نظر السيد سكودامور إلى ساعة جيبه وقبَّل زوجته مرة أخرى. كان هذا مشهد وداعهما الخاص، ولكن الجيران حازوا ميزة مشاهدة وداعهما هذا علنًا. سارت السيدة سكودامور مع زوجها عبر ساحة القرية، مُتشابكَي الذراعَين، حتى وصلا إلى البركة حيث ظلت تُشاهده إلى أن اختفى وراء جدار منزل سانت جيمس.

استدار السيد سكودامور وخلع قُبعته مودعًا زوجته، ثم توارى عن الأنظار، بينما تلوِّح له بيدِها. وشاهدت زوجته رحيلَه بغصَّة في القلب كعادتها، كأنه يغادر حياتها للأبد، ثم عادت إلى المنزل بخطواتٍ وئيدة، وفي قلبها كآبة العالم كلِّه.

هكذا يفترِق العاشقان الحقيقيَّان.

لكنها عندما عبرت من بوابات «ذا كلوك»، سُرَّت بجمال حديقتها ونظامها. ردَّتها الحياة مرة أخرى إلى الروتين اليومي، وأصبحت خطوتها خفيفةً مثل فتاة صغيرة، وهي تتوجَّه لفحص حوض زهور الزينيا التجريبي.

وبينما كانت واقفة والشمس تتدفَّق على شعرها المعقوص الآخِذ في الشيب، تناهى إلى أذنَيها صوت خطوات مسرعة، فالتفتت وإذا بالسيدة بيري تركض عبر ممرِّ السيارات، مُرتكبة ذلك الإثم الفادح المُتمثل في ركل الحصى على العشب بسبب اندفاعها.

ظنت السيدة سكودامور أن ماري تحمل أخبارًا كارثية حتمًا، حتى رأت عينيها المبتهجتَين وأسنانها اللامعة في ضوء الشمس.

هتفت ماريان: «لديَّ خبر لكِ. خبر رائع مُزلزل. سأحظى بطفلٍ آخر.»

شهقت السيدة سكودامور حرفيًّا، وهي تتذكَّر ضائقة الطبيب المالية، وسألت: «طفل آخر؟» بعد ذلك أضافت بصعوبة: «تهانينا. ما رأي زوجك في ... في هذه الزيادة؟»

أجابت ماريان: «لم يحظَ بفرصةٍ للتفكير. صدمتُه بالأخبار السعيدة منذ أقلَّ من دقيقة. وجئتُ إليك على الفور. تمكَّنت للتوِّ من إبلاغ المُمرضة بالخبر بأعلى صوتي، وأمرتُها بنقله إلى جميع مَن في المنزل.»

شعرت السيدة سكودامور بالتوتُّر من ذلك السلوك الذي خالف حدود اللياقة، واعتبرته انتهاكًا صارخًا لكل قواعدها الأخلاقية.

وسألت: «أليس الإعلان مبكرًا جدًّا؟»

أجابت ماريان: «الأخبار السعيدة لا تتنظِر. فكِّري في الأمر. إنه شيء في غاية الروعة. حياة جديدة. الحياة هي أم الحقائق والموت مأساةٌ ما بعدَها مأساة.»

قالت السيدة سكودامور: «لا أوافقك الرأي. عندما نموت تبدأ حياتنا الحقيقية.»

انفجرت السيدة بيري ضاحكة.

وسألت: «ألا تشعُرين بالبهجة؟ يجب أن أعود على جناح السرعة. لا بد من إعداد الطعام ولو انهار المنزل.»

ورافقتها السيدة سكودامور، التي لم تكن تُغفل واجبات الضيافة أبدًا، إلى بوابة المنزل.

وقالت: «بالتأكيد تريدنني أن أُبقي أمر انتظارك لمولودٍ جديد سرًّا.»

عبست ماريان عندما ألمحت السيدة سكودامور إلى الطريقة التقليدية.

وأجابت في امتعاض: «لا. لن يسرق سعادتي أحدٌ. انشري الخبر قدْر استطاعتك. أريد أن يعرف العالم كله.»

ظهر شبح ابتسامة على شفتي السيدة سكودامور الجذَّابيتَن برغم ذبولهما.

وقالت: «ينبغي أن تلتزمي الصمت. لا شيء يستدعي الإثارة. الأطفال مجرد نتاج للعلاقة الزوجية لا أكثر.»

سألت ماريان في غضب: «من أين لكِ المعرفة بهذه الأمور؟ فأنتِ لم تختبري الأمومة من قبل. الحياة هي أعظم شيء في الوجود.»

هزَّت السيدة سكودامور رأسها.

وقالت: «عندما تحظَين بزواجٍ طويل مثلي، ستُدركين أن الحب هو أعظم شيء في الوجود.»

وبينما كانت ماريان تهرع مسرعة عبر ساحة القرية، في طريقها للعودة إلى منزل سانت جيمس، انتابتها شفقة ممزوجة بالازدراء تجاه السيدة سكودامور.

حدَّثت ماريان نفسها: «المسكينة تتأنَّق كل يومٍ بلا هدف. لا أطفال لديها. ذاك المنزل الجميل والحديقة الرائعة لا ينتفِع بهما سوى القط الحقير.»

دلفت السيدة سكودامور إلى الرَّدهة الرحبة، حيث تفوح بعبَق إناء من البليحاء المقطوفة حديثًا، وقارنت بهجة وأمان منزلها الذي يتَّسم بحُسن الإدارة والميزانية المتوازنة، بمنزل الطبيب الذي يُدار بلا انضباط ويُنفَق فيه المال بلا حساب.

وحدثت نفسها قائلة: «مسكين هوريشيو! لماذا لم يتزوج فيفيان؟ لم يكن يعلم عندما زارنا في الصباح بالمأساة الأخيرة.» ثم انحنت لتحفيز القط الذي كان يستحمُّ بنشاط، كي يستوفي معايير النظافة العالية السائدة في المنزل.

قالت: «أحسنتَ يا جيرمي. منطقة الصدر تتطلَّب منكَ الكثير من التنظيف. قِط مُطيع.»

بعد ذلك، توجهت إلى المطبخ، كي تأمُر الخدم بإعداد العشاء؛ لأنه لا بدَّ من إعداد الطعام مهما كانت الظروف الكونية حسبما صرحت ماريان.

وقالت: «ليكن العشاء جاهزًا في السابعة والربع مساءً. سيكون السيد متعبًا. لا بأس بإعداد وجبةٍ سهلة من أجل غدائي. يُمكنكن الذهاب جميعًا إلى معرض منتجات الألبان بعد الاغتسال مباشرة.»

سألت الطاهية بطاعة: «ألا تُريدين أن أحضِّر لكِ الشاي؟»

أجابت السيدة سكودامور: «سأحضره بنفسي.»

قالت الطاهية: «أشكركِ يا سيدتي. ماذا لو جاء زائرون إلى المنزل؟»

أجابت السيدة سكودامور: «لن أستقبل أي ضيوف.»

شرعت السيدة سكودامور تُنجِز مهامها الصباحية المعتادة. فارتدت قفَّازها الثخين، وقبعتها العريضة، وباشرت أعمال البستنة كما يليق بسيدة راقية. وبعدما انتهت من غسل يدَيها، تناولت كأسًا من اللبن الرائب واتجهت إلى غرفة الاستقبال لكتابة بعض الخطابات.

أمضت السيدة سكودامور وقتًا أطول من المعتاد على مكتبها؛ فقد وجدت صعوبةً في صياغة خطاب بعينِه، وفوق ذلك كان عليها إعداد قائمةٍ بطعام الأسبوع. كما كان ينتظرها بعض الطباعة، وبالأخص مُلصقات أوعية المربى؛ إذ اشتُهرت بأعمالها اليدوية المتقنة.

فور أن انتهت من كتابة رفض دعوة حضور عرس ابنة الأسقف لأن لدَيها ارتباطًا سابقًا، أعلنت الخادمات أن الغداء جاهزٌ. انتهت السيدة سكودامور من قراءة إحدى الروايات وهي تتناول طعامها؛ إذ كانت تتُوق إلى معرفة نهايتها. ووجدت الخاتمة مُرضية؛ إذ تزوج الجميع في النهاية.

من حينٍ لآخر، كانت السيدة سكودامور ترفع عينَيها عن صفحات الرواية، لتنظر إلى منزل سانت جيمس من خلال نافذتها. كانت الحياة صاخبة في ذلك المنزل. تراءى لها منزل الطبيب كأنه يخفق، مثل ومضات البرق في الصيف، ويفيض بقوة إبداعية.

بعد ذلك، جالت ببصرِها في غرفتها الأنيقة وتأملت نظامها وترتيبها، وهزَّت رأسها. لا شيء أفضل من الحب.

جلبت لها الخادمة القهوة في الشرفة، وأخبرتها أن المطبخ مرتبٌ بالكامل. وفي غضون وقت قصير، سمعت السيدة أصواتًا منخفضةً حذرة، وخطوات تسحق الحصى؛ إذ كان جميع العاملين بالمنزل يجتازون ممرَّ السيارات، في طريقهم إلى الباب الخلفي للمنزل. تظاهرت الفتيات، اللائي استشعرن شيئًا من الحرَج والارتباك بسبب ثيابهنَّ المبهرجة، بغفلتهنَّ عن عيني سيدتهنَّ التي كانت تفحصهن واحدةً تلوَ الأخرى.

نادت السيدة سكودامور: «باركر.»

تقدمت في خجل خادمة المطبخ التي بدت غريبة بقُبعتها الصفراء.

قالت سيدتها في هدوء: «هل رأيتني قطُّ أرتدي قبعة صفراء؟»

تمتمت الفتاة: «لا يا سيدتي.»

«حسنًا، إذا كنتِ تريدين أن تحظي بمظهر السيدات الراقيات، فلا بد أن ترتدي ما يرتدين.»

أمرت الطاهية الخادمة: «اصعدي للأعلى وارتدي قُبعتك البيضاء. ولا تتأخري.»

لكن السيدة سكودامور، التي كانت تراعي مشاعر موظفيها دائمًا، تدخلت.

وقالت: «لا، يجب ألا تجعل البقية يتأخرون عن موعد الحافلة. اذهبي على حالك هذا يا باركر. لكن أريدكِ أن تُحصي عدد السيدات الراقيات اللاتي يرتدين قُبعات صفراء في المعرض.»

ذهب العاملون بالمنزل إلى حال سبيلهم، وخيَّم الصمت على المنزل. جلست السيدة سكودامور، ونظرت إلى الحديقة، التي تخللتها ظلال الأشجار وأشعة الشمس حتى بدَت مثل الثوب المرقَّش. وبعد برهة من الزمن، اتجهت السيدة إلى المطبخ، وصبَّت حليبًا في صحن ووضعته في زاوية الشرفة، حيث اعتاد القط أن يجده في الرابعة مساءً بحسب روتينه الصارم الذي اعتاده.

بعد ذلك، تجوَّلت السيدة سكودامور في جميع أنحاء المنزل، وتفقَّدت جميع الغُرَف، من العلية إلى القبو. للتجوُّل في مسكنٍ فارغ سحرٌ خاص، وقد استشعرته السيدة سكودامور وهي تتجول في منزلها.

أشبع النظام والنظافة الظاهرَين بوضوح في غرف العلية غير المُستخدمة، حسَّ ربة المنزل داخل السيدة سكودامور. كانت إحدى هذه الغرَف تعجُّ بصناديق ملابس فارغة من ورق الكرتون، كلها مُرتبة بعناية، وأرفف أوعية المُربى التي لم يكن بها أثر لذرة غبار.

عندما نزلت السيدة سكودامور إلى الطابق السفلي، مرَّرَت إصبعها على الحواف المطلية بالمينا في الغرفة البيضاء لتتأكَّد أنها اسم على مسمًّى، في حين امتلأ قلبها بفخر مُضيفةٍ بالترتيبات التي تتَّخذها من أجل راحة ضيوفها.

قبعت على طاولة الكتابة، في مكتب زوجها، صورة حديثة له. كانت ترافق صورتها الشخصية؛ لأنها أصرَّت على استحالة فراقه، ولو في الصور.

كانت الصورة تُظهر زوجها في أكثر مراحل حياته بؤسًا، لكنها تفحَّصتها بانتباه، ثم طبعت قبلة على زجاج البرواز. بعد ذلك، وضعت نسخة «مورنينج بوست» مع الخطاب، على ورقة النشَّافة، ومزقت ورقةً منسية من التقويم وغادرت الغرفة.

كانت نهاية الرحلة في غرفة غسيل الأطباق الصغيرة المبلطة.

فتحت السيدة سكودامور أحد الأدراج، ووجدت كومةً من القماش، استخدمتها لسد النافذة. وبعد أن ثبَّتت لافتة — كانت قد كتبتها في الصباح — خارج الباب بدبابيس الخرائط، أغلقت على نفسها في غرفة غسيل الأطباق.

كان هناك تحذير مكتوب على الورقة بأحرف كبيرة.

«احترس من الغاز.»

الفصل الثالث والعشرون

# المحامي يكشف الستار

في الرابعة مساءً، جاء القط جيرمي الذي كان دقيقًا في مواعيده مثل توقيت جرينتش، وشرب الحليب، ثم مسح فراءه بلسانه، استعدادًا لوجبة العشاء. وبعد مُضِي ساعتين، عادت الخادمات، مبتهجات سعيدات من معرض منتجات الألبان، ليكتشفنَ مأساة وفاة سيدة المنزل.

كانت باركر، صاحبة القبعة الصفراء، هي التي اقتحمت غرفة غسيل الأطباق المليئة بالغاز في شجاعة، لتفتح النوافذ وتسحب الجثة الهامدة إلى الخارج، في حين اتصلت الطاهية الذاهلة بالطبيب بيري.

لم تقدر السيدة سكودامور، التي كانت تلتزم بكلمتها دائمًا وأبدًا، على الوفاء بالوعد الذي قطعته لزوجها، بأن الطبيب بيري سيأتي إلى منزل «ذا كلوك» في زيارةٍ طبية في القريب العاجل. كان الطبيب بيري قد استُدعي لتوِّه للكشف على أحد المرضى في القرية. لكن الصوت القادم من الناحية الأخرى من الهاتف أضاف أن سيارة طبيب شلتنهام قد شُوهدت وهي تقطع القرية باتجاه «ذا هول».

بعد برهة، وصلت سيارة طبيب العمدة الجديد إلى منزل «ذا كلوك»، ليُخبر الحاضرين بما يعرفونه بالفعل. لقد فارقت السيدة سكودامور الحياة منذ عدة ساعات. وقد نفَّذت عملية مغادرتها الحياة بإتقان ودقة، كعادتها في كل الأمور.

وحتى لو كان الطبيب لم يستطِع إعادة السيدة سكودامور إلى الحياة، إلا أنه أثبت فائدته؛ إذ ذهب لاستقبال السيد سكودامور الذي كان عائدًا من لندن، وحمل إليه الأنباء المأساوية.

لم ينهَر المحامي، رغم ظهور أمارات الصدمة على ملامحه. وقرأ الخطاب المُوجَّه إليه، القابع على طاولة غرفة مكتبه، ثم صعد إلى الأعلى إلى غرفة زوجته، حيث بقي لبعض الوقت. بعد ذلك، طلب من الطبيب أن يستدعي القسيس.

عندما سمع القسيس الخبر عبر الهاتف، لم يكن مصدومًا فحسب، بل سرت قشعريرة في جسده من خوف لا يفهم كنهه.

وكرَّر بصوتٍ خالٍ من المشاعر: «انتحار؟»

أجاب الطبيب: «للأسف، لا مجال للشك.»

«أمر مُرعب. كيف حال السيد سكودامور؟»

«لقد تلقى الخبر بصبرٍ مُذهل. لديه قوة تماسُك من حديد. هل يمكنك القدوم بسرعة؟ لا أريد أن أتركه بمفرده.»

وعد القسيس: «سآتي في غضون خمس دقائق.»

اندهش القسيس عندما وجد كلَّ شيءٍ يبدو طبيعيًّا في منزل «ذا كلوك»؛ إذ راودَه شعور غريب أنه سيرى علامات اضطرابٍ واضحة. كان القط، الذي ركَّز إحدى عينَيه الخضراوَين على ساعته غير المرئية، قد تجهز للعشاء، وجلس منتظرًا في الشرفة، مثل رجلٍ صبور في حلة السهرة ذات اللونين الأبيض والأسود.

عندما فتحت الطاهية الباب الأمامي، نظر القسيس من الباب المفتوح إلى طاولة الطعام المُعدة للعشاء، وقد زينتها المزهريات وحوامل الشموع كما هو معتاد.

قالت الطاهية: «السيد مُتماسك على نحوٍ رائع. لقد انصرف الطبيب. أنا سعيدة لقدومك. ربما يمكنك البقاء للعشاء، وإقناعه بتناول بعض الطعام، ليحافظ على قوته.»

قال القسيس واعدًا: «سأبذل ما في وسعي.»

كان المحامي يذرع غرفة الاستقبال ذهابًا وإيابًا عندما دلف القسيس إلى الغرفة. بدا وجهه رماديًّا مثل بركانٍ خامل، لكن صوته كان هادئًا تمامًا.

قال السيد سكودامور عندما قبض القسيس على ذراعِه لعجزه عن الكلام: «أنا سعيد بقدومك. بالطبع أقدمَت زوجتي على الانتحار. سيكون هناك تحقيق. أريدك أن تسمع الحقائق منِّي.»

انقبضت عضلات وجهه في ألَم، مثل ماكينة تعمل في الاتجاه المعاكس، وهو يحاول الإبقاء على نبرة صوته هادئة وثابتة بينما يُلقي قنبلته المدوية.

قال: «أنا وزوجتي لسنا مُتزوِّجين في الحقيقة.»

جال القسيس ببصرِه، في رُعب وذهول، في أنحاء غرفة الاستقبال الأنيقة التي كان يعتبرها غرفة نمطية لزوجَين دمِثَي الخلق، قبل أن تستحيل الآن إلى عشٍّ للعشاق. وانتقل ببصره من صور العائلة الصغيرة المُعلقة على الحائط إلى غطاء كاحل المحامي المصنوع من الكتان.

بعد ذلك، استيقظ المُمثل اللاشعوري الذي بداخله، لمواكبة الموقف الدرامي. وفاض صوته بمزيج من المشاعر وهو يتحدَّث إلى المحامي.

قال: «حدثني بما شئت. فلن يُحدِث ذلك أي فارق. لطالما أثارت السيدة سكودامور إعجابي.»

لم يتفاعل المحامي مع ما أظهره القسيس من مشاعر؛ إذ شرع يتحدَّث بعبارات محددة جافة.

قال: «أريدك أن تعرِف أن ما حدث هو خطئي وحدي لا خطؤها. يعتقد الجميع أنني متزوج بأرملة. لكنها متزوجة برجُل همجي سكِّير، يقبع في مستشفًى للأمراض العقلية، ولا أملَ في شفائه. أُغرم كلٌّ منَّا بالآخر، وسلب حُبي عقلها. أنا مَن اقتلعتُها من جذور البراءة والطهر بكل ما تحمله الكلمة من معنًى. عندما رحلتْ معي، خالفتْ بفعلتها هذه كل ذرةٍ من ذرات طبيعتها النقية.»

تمتم القسيس عندما سكت المحامي: «فهمت.»

واصل المحامي كلامه بصيغة المضارع لا الماضي، مما دلَّ بوضوح على أن عقله لم يستوعب الموقف بعد من هول الصدمة.

قال المحامي: «تنحدِر زوجتي من عائلة كهنوتية، ذات تقاليد صارمة إلى حدٍّ ما. وكان والدها رئيس كاتدرائية، فانتقلت إلى دائرة اجتماعية مُغلقة. تتَّسم طبيعتها بالتزمُّت الشديد. فهي لا تعرف الخيال ولديها القليل من الشفقة والتعاطف. وهي كثيرة الانتقاد للآخرين، وشديدة الحساسية لأي انتقادٍ يُوجَّه لها ... أخبرك بذلك لأنني أُحبها. وربما يساعدك ذلك في إدراك شيء آخر.»

غلبته مشاعره لحظةً؛ إذ غطَّى عينَيه بيده. وانتظره القسيس في شفقة صامتة، حتى استطاع السيطرة على صوته مرة أخرى.

قال: «الآن وقد عرفتَ طبيعتها، ألا ترى أنها لو ندمت على سلوكها لكان خيرًا لها؟ كان ندمها سيُطفئ لوعة ضميرها. وكانت ستعتبر معاناتها تكفيرًا لذنبها ... لكن حُبي قد ملك عليها وجدانها، حتى أصرَّت أن ننعم بالسعادة في حُبنا. قالت إن من حقي السعادة،

وإن التضحية غير مقبولة. كثيرًا ما قالت إنها غير نادمة على الماضي، وإن علينا إثبات حُبنا بأن نعيش حياة مليئة بالتفاهم والسعادة التامة.»

توقَّف المحامي لالْتقاط أنفاسه، في حين استرجع القسيس تلك الجولات المسائية التي كانت رمزًا لرباط الزواج القوي الذي يجمع الزوجَين سكودامور، والجو التقليدي لمنزل «ذا كلوك» الذي أعلنه سكنًا لشريكَين ناجحَين مهنيًّا يجمعهما زواج سعيد.

وأدرك القسيس حقيقة الأمر. ففي هذه السعادة قدمت السيدة سكودامور تضحيةً جليلة لأجل الحب.

قال: «أرى أنها كانت رائعة.»

علق المحامي: «حسنًا. لقد فهمتَ الآن. أشكرك. والآن أريد أن أخبرك بشيء آخر.»

ازداد صوته قوة من فرْط الغضب.

وأضاف: «أريدك أن تعلَم أن زوجتي قد دُفعت للموت دفعًا بالخطابات المجهولة السامة. كانت قد بدأت تتلقَّى هذه الخطابات منذ وقتٍ قريب، لكنها لم تُخبرني بشيء عنها. احتوت الخطابات على اتهاماتٍ غامضة جبانة، وجاء فيها أن حياتها السرية المليئة بالنفاق قد عُرفتْ وأن حقيقتها ستفتضح. وحذَّرها الخطاب الأخير من أن النهاية وشيكة.»

أنصت القسيس مشدوهًا من الصدمة، واقشعر بدنُه من الرعب. هذا ما كان يخشاه عندما سمع بنبأ انتحار السيدة سكودامور أول مرة، لكنه كان قد نسي الهاجس الذي راودَه آنذاك.

واصل المحامي: «تركت لي خطابًا تقول فيه إنها لا تستطيع أن تجلب لي العار أو تدمِّر حياتي المهنية ... وكانت، طوال هذا الوقت، على طبيعتها؛ هادئة وعاقلة ومرحة. لم تندَّ عنها أدنى بادرة تُشير إلى أن لديها أي مشكلة تخفيها. لكنها فقدت السيطرة على نفسها في نهاية المطاف. لقد تمكنت منها الخطابات اللعينة.»

اتجه المحامي صوب الباب.

وبينما كان يقود القسيس إلى الباب سأله: «أتريد رؤيتها؟» معتبرًا موافقته أمرًا مفروغًا منه.

توقف المحامي في ردهة المنزل، كي يتحدَّث إلى الطاهية التي كانت لا تزال واقفة خارج غرفة الطعام، في انتظار الأوامر.

«أطعمي القط.»

كان جليًّا من شكل غرفة نوم الزوجين سكودامور أن ساكنيها زوجان يؤمنان بدوام العشرة، حتى كاد القسيس يشعر بأن عليه الاعتذار عن وجوده بها للسيدة الراقدة على الفراش المزدوج الكبير. اتسمت الغرفة بضخامتها، وأثاثها الأنيق، إلا أنها لم تكن مزدحمة، رغم أن كل قطعة من الأثاث المتين كان يُوجَد منها اثنان. وكان واضحًا أن غرفة ملابس السيد سكودامور هي غرفة تخزين لملابسه الفائضة لا أكثر.

كانت السيدة سكودامور ترتدي فستانها الحريري البنفسجي الغامق، وبدت عليها أمارات الهدوء والاتزان والرقي حتى في الموت. كما لم تظهر عليها أي علامة تُشير إلى نكوصها إلى مستوى البشر العادي؛ إذ احتفظت بهالة خفيفة من الشموخ والعظمة. كان شعرها لا يزال مُرتبًا بشكلٍ مثالي. فلم يسقط أي دبوس لا غنى عنه من مكانه، في أثناء تشبُّثها بالحياة.

انحنى القسيس عليها، ولثَم يدها الباردة دون تفكير. وبينما يفعل ذلك، تدفقت إلى عقله ذكرى مُشوَّشة وهو يقدم احترامه على نحوٍ مماثل إلى الآنسة أسبري.

سأل القسيس نفسه في خوف: «تُرى من طعنها في ظهرها بهذه القسوة؟»

وبينما كان المحامي ينظر إلى زوجته، فقد سيطرته على نفسه تقريبًا.

وتمتم: «ليتها أخبرتني. كنتُ سأعرف كيفية التعامُل مع هذه الخطابات. ولو كان لا بد من مواجهة فضيحة، كنا سنُجابهها معًا. لقد أتت بتضحيةٍ بلا داعٍ.»

بينما كان المحامي يستعيد رَباطة جأشه، غادر الغرفة، وفي أعقابه القسيس. وعندما وصل الرجلان إلى الردهة، تذكر القسيس الوعد الذي قطعه للطاهية، عندما ألقى نظرةً أخرى على مائدة الطعام.

سأل القسيس: «هل تناولت العشاء؟»

أجاب بردٍّ مُبهم: «بعد قليل.»

«حسنًا، ما رأيك في جرعةٍ قوية من الويسكي إذن؟»

«لا، لا. لقد أعطاني الطبيب مهدئًا.»

لم يكن خافيًا أن السيد سكودامور يتوق للبقاء بمُفرده، ومع ذلك حاول القسيس مرة أخرى.

فقال: «لا أريد أن أُسبب لك إزعاجًا، لكن هل تُمانع أن أبقى معك؟ أريد مرافقتك لا أكثر. لن أنطق بكلمةٍ واحدة. لكنك ستعرف أن هناك شخصًا بجوارك.»

حاول السيد سكودامور أن يبتسِم وهو يهز رأسه رافضًا الفكرة. قال: «هذا لطف بالغ منك أيها القسيس، لكني على ما يُرام. لديَّ خطابات مُهمة يجب أن أكتبها.»

وبينما كان المحامي يتحدَّث، فتح الباب الأمامي. حينئذٍ وقعت عيناه على القط المرفَّه، الذي كان يتحمَّم بعد تناوله وجبة عشاء دسمة.

قال: «هناك خدمة يُمكنك أن تُسديها لي. هل يمكنك البحث عن منزل دافئ للقط؟ لقد كان خاصًّا بزوجتي. ولن أطيق رؤيته يتجوَّل في الأنحاء.»

أثار هذا الكلام انتباه القسيس. لكن وجه المحامي كان في غاية الهدوء، وصوته واضحًا خاليًا من المشاعر لأقصى درجة، حتى ظنَّ القسيس أنه على خير ما يرام.

وعد القسيس بحرارة: «سأتولَّى إيواءَه في بيتي. إن كلبي اجتماعي جدًّا. ولن يتعارَكا.»

قال السيد سكودامور: «أشكرك.»

وتصافح الرجلان، وخرج القسيس من الباب المفتوح.

بعدما سار القسيس بضع ياردات عبر ممرِّ السيارات، توقف لإشعال سيجارة، كي يتمالك أعصابه المتوترة. وفي أثناء ذلك، سمع دويَّ العيار الناري الذي أطلقه المحامي على رأسه.

الفصل الرابع والعشرون

# رأس الحية

غادر القسيس منزل «ذا كلوك» في عجالة، تاركًا الأمر في يد الطبيب بيري. وعندما عاد إلى بيته، بدا في غاية التأثر من تلك الفاجعة المزدوجة، مما جعل إيجناتيوس يقتصر في تعليقاته على تقديم الدعم العملي.

لكن إيجناتيوس، وهو يشاهد القسيس يبتلع جرعة الويسكي القوية التي نصح بها المحامي، لم يستطع كبح فضوله.

قال: «هذا تطوُّر مذهل حقًّا. لا سيما بعد أن تناولنا العشاء في منزل «ذا كلوك»، وانطباعاتي التي أخبرتُك بها بعد ذلك.»

ردَّ القسيس متأوهًا: «أتذكر انطباعاتك. فلا تُكررها على مسامعي الآن.»

قال إيجناتيوس: «لا أقصد الشماتة. الحقيقة هي أنني للمرة الأولى أشعر بالإعجاب بعائلة سكودامور. إنهما حقًّا نجمان تركا بصمتهما في سجل الحُب مع بول وفرجينيا.»

تسللت ابتسامة غريبة إلى شفتَيه.

وقال: «من الغريب تصوُّر محامٍ كهل رفيع المقام يرتدي كامل ثيابه حتى غطاء الكاحل، يدور معانقًا عشيقته في عالم الحُب الأبدي. لكني لا أستطيع تخيُّل السيدة سكودامور الوقورة عارية ... ما هو نسيج الحوريات؟»

قال القسيس: «لا ... أعلم.»

قال إيجناتيوس: «ولا أنا. ذات مرة حُزت شرفًا بسداد فواتير سيدة أنيقة مقابلَ الاطلاع على أفكارها المشوشة. ولأن اهتمامي بها كان لغرَض نفساني بحت، لم أتعرف على خزانة ثيابها. لكن أتذكَّر قطعة ثياب واحدة، وهي «نسيج الحوريات».»

وسكت ليتحدَّث إلى الكلب.

«ألا تتَّفق معي، يا تشارلز ديكينز، أن السيد والسيدة سكودامور في هذه اللحظة تحديدًا يتحدَّيان الدوَّامة في مناشف استحمام من نسيج الحوريات؟»

قال القسيس غاضبًا: «اصمت.»

ردَّ إيجناتيوس: «ممتاز. نجحتُ في إثارة انتباهك. لقد وصلتُ إلى بغيتي.»

كان القسيس يضع رأسه بين يدَيه، فرفع عينَيه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة.

قال: «مِن النبل أنك لم تتباهَ بانتصارك. خاصة بعدما تبيَّن أن اللغز يكمن في رأس الحية كما قلت.»

سأل إيجناتيوس: «هل رأيتَ أيًّا من الخطابات المجهولة؟»

أجاب القسيس: «لا. دمَّرتها السيدة سكودامور كلها قبل ... قتلها.»

قال: «لا تُبالغ وتقدِّس السيدة سكودامور يا تيجر. أخبرتك أنني لم أُحبها لأنني رأيتها منافقة. وما زلتُ على رأيي. الحقيقة التي لا ينازعها شيء هي أنها قتلت نفسها؛ لأنها لم تتحمَّل فكرة الفضيحة. لم تمتلك الشجاعة الكافية لتجلس في مكانها ساكنةً، وتركت العجوز المسكين يتحمَّل العواقب ... أتتصوَّر جوان بروك تستسلِم قبل أن يُكشَف قِناعها؟»

قال القسيس: «إنهما من أجيال مختلفة. ولكن ما زلت أراها تضحيةً بلا داعٍ. هكذا وصفها السيد سكودامور المسكين.»

فرك القسيس عينَيه في تعب، ثم قفز على قدمَيه بحيويته السابقة.

وقال: «نسيتُ تمامًا. سيكون الأمر صدمةً كبيرة للآنسة أسبري. سوف أذهب إليها وأنقل إليها الخبر برفق، قبل أن تسمعه من إحدى خادماتها.»

اشتعلت ملامح إيجناتيوس فضولًا كأن شعاعًا من البرق مسَّها.

وقال بلهفة: «سآتي معك. لم يتأخَّر الوقت كثيرًا، أليس كذلك؟»

أجاب القسيس: «لا، لم يناموا بعد.»

لكن عندما اجتاز الرجلان بوابات قصر «سباوت»، لم يكن هناك أي ضوء ينبعث من النوافذ التي كانت ألواحها تتَّخذ شكل الألماس. وبينما كانا يقطعان ظلمة الحديقة، المصحوبة بصوتٍ يُشبه خرير الماء، أحسَّا بوحشة رطبة، كأنهما في منزل عتيق أكل عليه الدهر وشرب.

كان مصباح مدخل البيت مشتعلًا؛ لذا طرق القسيس الباب القديم المصنوع من خشب البلوط.

همس القسيس: «لا بد أنهم جالسون في غرفة المكتب.»

ولدهشتهما، قادتهما أدا التي لمعت عيناها الناعستان برؤية إيجناتيوس إلى غرفة الجلوس الأمامية المكسوة بالألواح الخشبية، حيث جلست الآنسة أسبري في مقعدٍ منحوت له مسند طويل للظهر، تقرأ على ضوء مصباحٍ وحيد. وكانت الآنسة ماك تجلس في بُقعة مظلمة تغزل الصوف.

رفعت الآنسة أسبري رأسها الأشيب، ونظرت إلى القسيس نظرةً يشوبها دهشة خفيفة. أما إيجناتيوس الذي كان يحوم في الخلفية، فنظر بإعجابٍ إلى القسيس، وهو ينقل الخبر إلى السيدة الضعيفة برفقٍ بالِغ.

قال القسيس: «أعتذر لحضوري في هذا الوقت المتأخِّر من الليل، لكني جئتكِ أحمل أخبارًا سيئة. لقد مات كلٌّ من السيد والسيدة سكودامور. كان حادث انتحارٍ مزدوجًا.»

بدت الآنسة أسبري في غاية الهشاشة، إلا أنها أظهرت صلابةً عند سماعها لهذه الأخبار الصادمة. فلم تفقد رباطة جأشها، ولم تبدُ عليها أي أمارات توتُّر عصبي. لم ترتعش شفتاها، ولم ترتجف يداها البيضاوان النحيلتان اللتان كانتا تحمِلان كتابًا ثقيل الوزن. كانت تجاعيد وجهها، وهي تُنصت إلى القسيس، جامدةً كأنها منحوتة في لوحٍ من الرخام.

وحدهُ إيجناتيوس الذي لاحظ تلك النظرات السريعة المُختلسة بين الآنسة أسبري والآنسة ماك.

قالت الآنسة أسبري: «صدمة مُريعة. مريعة حقًّا. لا أصدق ما جرى. كان لُطفًا بالغًا منكَ أيها القسيس أن تأتي وتُخبرني بما حدث.»

طمأنها القسيس: «أنتِ أول من خطر ببالي. كنتُ أعلم كم سيكون الأمر صادمًا بالنسبة لكِ.»

ردَّت الآنسة أسبري: «إنه صادم حقًّا. إذا لم يكن الأمر مؤلمًا جدًّا بالنسبة إليكَ، هل تُمانع أن تُخبرني بالتفاصيل؟»

وأنصتت الآنسة إلى القصة في تعاطف مبتور.

وسألت: «لكن لِمَ أقدما على هذه الفعلة الشنيعة؟»

قال القسيس بصوتٍ يرتجف من شدة الغضب: «لحق بها. أما هي، فدفعتها تلك الخطابات المجهولة السامَّة إلى الانتحار دفعًا.»

سألت الآنسة أسبري: «لم أفهم بعد. ما الذي كانت تخشاه؟»

أجاب القسيس: «الفضيحة. أعتقد أن القرية بأكملها تعلَم بالأمر الآن. لم تكن متزوِّجة بالسيد سكودامور.»

ندَّت عن آنسة أسبري صرخة مكتومة تكاد تُشبه النشيج. لكن إيجناتيوس لاحظ توردًا خفيفًا على وجنتَيها يشي بشعورٍ من الفضول الإنساني. ولفت انتباهه أيضًا الانتعاشة التي دبَّت في حياة رتيبة أخرى من أثر الفاجعة؛ إذ كانت مرافقة الآنسة أسبري تبتسِم ابتسامةً تخفي وراءها شعورًا بالإثارة.

عندما تكلمت الآنسة أسبري، كان صوتها يعتصره الأسف والحسرة.

قالت: «مساكين. يجب ألا نحكم عليهما. فالحزن يُكفِّر الذنب، ولا بد أنهما كانا يعانيان في كل ساعة من حياتهما.»

استدعى القسيس حديث السيد سكودامور الأخير معه للدفاع عنهما.

وبدأ حديثه قائلًا: «كانت هناك ظروف تشفع ...» لكن الآنسة أسبري أسكتته.

وقالت: «لا شيء يُبرر الخطيئة، لكن المعاناة قد تساعد في التكفير عنها.» نظرت الآنسة إلى الساعة الجدارية القديمة التي كانت تواصِل وظيفتها في قياس الزمن بصبرٍ وجلد. وأضافت: «أشكرك على مجيئك. أقدِّر اهتمامك أبلغَ التقدير.»

تحرك القسيس إلى الباب.

وقال: «الوقت متأخِّر، وكلاكما بحاجةٍ إلى النوم.»

هزت الآنسة أسبري رأسها.

وغمغمت: «أظن أنهما سيحظيان بنومٍ هانئ أكثر من أي أحدٍ منَّا.»

التزم القسيس الصمت وهو عائد إلى البيت مع إيجناتيوس. وعندما بلغا حجرة المكتب، قابلهما تشارلز، الذي أشار بوضوح إلى أنه في الوقت الذي يُرحب بهما لتناول الويسكي الرديء، ينشغل هو بحراسة البسكويت الثمين بحياته. فأطعمه القسيس البسكويت، ثم نظر إلى إيجناتيوس، الذي غاص في أحد المقاعد.

وقال: «تبدو شاحبًا يا إيجناتيوس. لقد أرهقتك كثيرًا بمشكلات الأبرشية.»

ردَّ إيجناتيوس: «ما أرهقني هو جوُّ غرفة آنسة أسبري. كان جوُّها مشحونًا وخانقًا أيضًا، وأنا مثل نبتة كزبرة الثعلب، أنغلِق حين تسوء الأجواء.»

علق القسيس: «هذا غريب. فالآنسة أسبري تُشبه الإسبرطيين الذين يعيشون وسط الرياح بصفة مستمرة.»

قال إيجناتيوس: «لا بد أنها تغيرت إذن. ألم تلاحظ أن جميع النوافذ كانت مغلقة بالمصاريع؟»

أجاب القسيس: «لا لم ألحظ. إذن هذا يفسر عدم رؤيتنا أي ضوء.»

قال إيجناتيوس: «لم نرَ أي ضوء لعدة ليالٍ ... كيف لم تلحَظ ذلك؟ ... فور أن دلفتُ إلى الغرفة، ورأيت تلك الألواح الخشبية، راوَدَني شعور غامض أننا في مؤسسة إصلاحية.»

لكن كانت أفكار القسيس في مكانٍ آخر.

قال مناشدًا: «لن تُغادر وتتركني الآن يا إيجناتيوس، أليس كذلك؟»

تباهى الرجل المستاء: «أها! ارتفعت أسهُم إيجناتيوس الآن. لكني سأساعدك يا أبتِ. اجلس ودعني أفكر.»

ارتمى القسيس بكل ثقله على أحد المقاعد، في حين أخذ إيجناتيوس يدخن في صمت. بعد هنيهة، خرجت كلمات إيجناتيوس من بين الضباب الأزرق الذي خلفه دخان السجائر.

وقال: «هذه الخطابات ليس بها أي إيحاء بالابتزاز. وهذا أمر غير مُعتاد. لكنها تشتمل على عبارات وعيدٍ وتهديد. لذلك يبدو أنها وليدة عقل مُضطرب يشتهي تعذيب الآخرين ... غير أنني أشك وبقوة أن هذه الخطابات كُتبت لغرَض مُعين، وقبيح في الوقت نفسه. ما الهدف؟ هذا ما سأعرفه عندما أكتشف سبب عزوف امرأةٍ بعينها عن الابتسام تمامًا.»

كان القسيس قد غطَّ في النوم من فرط تعبه.

على الجانب الآخر من ساحة القرية، كان الطبيب بيري لا يزال مرابطًا في موقعه، وقد بثت الفاجعة المزدوجة النشاط في جسده، فلم يشعُر بالإرهاق. ونسِي همومه الخاصة في خضم انشغاله بأزمة عائلة سكودامور الإنسانية، بما يتواءم مع شخصية المُتفرج الفضولي التي اتسم بها.

ظل الطبيب لبعض الوقت في منزل «ذا كلوك»؛ إذ كان عليه استدعاء المرأة المسئولة عن تحضير الموتى في القرية، وكذلك مقابلة الشرطة المُمَثلة في شخص الضابط جيمس.

وعندما عاد أخيرًا إلى المنزل، كان استقبال زوجته له صادمًا، كأنه تلقى ضربة في وجهه.

قالت: «هوريشيو. هل استلمت الشيك من السيد سكودامور؟»

قال وهو ينظر إليها بجمود: «لا. كان سيُحرره غدًا.» بعد ذلك نظر إلى ساعة غرفة النوم، وأضاف بضحكة متوترة: «ها قد صِرنا بالغد.»

قالت: «لقد خذلك إذن. عليه اللعنة.»

هتف الطبيب: «بربك يا ماريان، كُفِّي عن ذلك.»

قالت ماريان: «بل سألعنه. أنا أفكر في مصلحة طفليَّ. طفلاي المسكينان.»

قال الطبيب: «ستكون أمورهما على ما يُرام، إذا استمعتِ إلى المنطق، وفصلتِ المُمرضة.»

قالت ماريان: «لن أفعل ذلك. لن أسمح بالتضحية بهما. سأموت جوعًا قبل أن أفعل ذلك.»

كانت الجدران الطويلة المشيدة من الطوب الأحمر تكاد تحجُب منزل سانت جيمس عن ساحة القرية؛ لكن كانت نوافذ غرفة النوم مرئية للمارة في الطريق. كانت تتألق في شكل مُربعات صفراء دافئة، فكانت رمزًا لحياة زوجية سعيدة مزدهرة.

لكن الستائر المسدلة كانت تُخفي وراءها امرأةً مبلبلة الخاطر ورجلًا ثائر الفؤاد. وجوهًا غاضبة ... أصواتًا مرتفعة. كان الزوجان على غير طبيعتهما وكأنهما غريبان عن دائرتهما الاجتماعية المقربة. وحاول الطبيب تهدئة زوجته.

قال: «ستكون الأمور على ما يرام في القريب العاجل.»

قالت ماريان بنبرة تأكيدية: «لن تتحسَّن الأمور. ستصير أسوأ من ذي قبل. وسيتهمك الجميع بأنك من كتبتَ تلك الخطابات.»

«ولماذا سيفعلون ذلك؟ أنا نفسي تلقيتُ خطابًا.»

«لكن لا أحد يعلم ذلك.»

«القسيس وصديقه يعلمان. ولقد تكرمتِ بقراءة الخطاب على أسماعهما.»

غيَّرت ماريان وضعيتها متأثرة برياح التناقُض العاصفة.

«وأذاعا فحوى الخطاب. لقد أذاع القسيس وصديقه، في كل زاوية وركن من القرية، أنكَ سمَّمت الآنسة كورنر للحصول على أموالها. أعرف ذلك ... أخبِرْني لماذا توقف العمدة عن استدعائك؟ لو أنه فعل، لحذا الآخرون حذوه. إنهم يتبعونه مثل قطيع من الغنم ... هوريشيو، يجب أن تستعيده مرة أخرى وإلا فسيموت طفلاي جوعًا.»

وعندما ألقت بنفسها على الفراش، في نوبة من البكاء، اتجه الطبيب نحو الباب. فرفعت نفسها، وحدقت إليه عبر خصلات شعرِها السوداء المرفوعة فوق جبينها.

سألت: «إلى أين أنتَ ذاهب؟»

«إلى امرأة أخرى.»

ضحكت ماريان بعد أن تغيَّر مزاجها فجأة. وقالت: «هذه كذبة على أي حال.»

لكن زوجها أوفى بوعده. وخرج مهرولًا من المنزل كالأعمى، واجتاز ساحة القرية، ثم دخل مدفن الكنيسة من بوابةٍ جانبية حديدية صغيرة. شق الطبيب طريقه كالعادة بين قبور الفقراء الغائرة وأقبية الأثرياء المسوَّرة، ثم توقف أمام تلة ترابية حديثة.

لقد جاء إلى صديقته جوليا كورنر كي تُسلِّيه عن همومه.

الفصل الخامس والعشرون

# مشهد ليلي

في اليوم التالي، انتشر الخبر في القرية مثل النار في الهشيم. صُدم الجميع وامتلأت قلوبهم بالشفقة على الراحلين، لكن كان الشعور الغالب هو الإثارة. كان سكان القرية من الرجال والنساء يمتازون بطيبة القلب والتسامح، لكنَّ كلَّ واحدٍ منهم رزح تحت وطأة نظرة السيدة سكودامور الوديعة التوبيخية، وحاجبَيها المرفوعَين في استنكار.

بينما كانت الآنسة أسبري تحكم القرية بقداستها العذبة، انشغلت السيدة سكودامور بحراسة الأعراف والتقاليد. لذلك كان من الطبيعي أن يشعر السكان بالإثارة عندما يرَونها تقع فيما لو وقع فيه غيرها لكانت أول من أنكرت عليه أشدَّ الإنكار.

عندما سمعت فيفيان ابنة العمدة بحادثَي الانتحار، صُعقت من هول الصدمة. كانت فيفيان تتبع بإخلاص القوانين التي سنَّتها السيدة سكودامور بحُكم شخصيتها القوية المُسيطرة؛ كونها فتاة مطيعة تلتزم بالأعراف والقوانين. لذلك لو كانت حادثة وفاة السيدة سكودامور العنيفة قد ملأت قلبها رعبًا، فإن قصة حياتها المزدوجة كانت ضربةً قاضية بالنسبة إليها.

أخذت والدة فيفيان تُثرثر بشأن الفاجعة في غرفة الجلوس الصباحية. فأشعلت فيفيان سيجارتها، وخرجت إلى حديقة الزهور، كي تبتعِد عن مرمى صرصرتها وأنينها.

لم تكن فيفيان تُدخِّن إلا فيما ندر، لذلك سرعان ما هدَّأ التبغ من روعها. كان الصباح مشرقًا — سماؤه صافية ونسيمه عليل — تلألأت فيه حبات الندى في بُقع صغيرة مُركزة على الممشى المزدان بالأزهار، حيث تدلَّت الأزهار المُتسلقة في عناقيد قرمزية اللون.

رغم الأنباء المأساوية، كانت فيفيان منشرحةَ الصدر في ذلك اليوم؛ إذ كانت تنتظِر رسالة من الميجور بلير. لم تكن قد رأته، منذ أن قاطعتهما جوان في تلك اللحظة الحرجة؛ إذ ذهب إلى لندن لقضاء بعض الأعمال. لكنه حادَثها هاتفيًّا ليُخبرها أنه سيُراسلها.

كانت فيفيان تعلم أن الميجور لن يرسل إليها أي رسائل أبدًا، ما دام بإمكانه استخدام الهاتف أو البرقيات؛ لذا أيقنت أنه سيفي بوعده حتمًا. وارتفعت آمالها، وهي تنتظِر ساعي البريد، الذي تأخر في الوصول إلى «ذا هول».

حاولت فيفيان التركيز على وصيفات العروس وخواتم الخطوبة، لكن أفكارها ظلَّت تُصِرُّ على العودة إلى السيدة سكودامور.

قالت: «كنت أخشاها كثيرًا. وكل هذا الوقت ... لا أطيق التفكير في الأمر.»

ظهر ساعي البريد عند منعطف الطريق، فركضت فيفيان إلى بوابة المنزل لاستلام الرسائل. كانت الرسائل كثيرة، فحملتها فيفيان إلى طاولة ريفية بسيطة لفرزِها.

كان أول ظرف التقطَتْه يداها مُوجهًا إليها بخطٍّ الرائد بلير الأسود السميك. ارتعشت أصابعها قليلًا وهي تفتحه. كانت الرسالة مُحرَّرة من ناديه، واستهلها بأكثر جملة افتتاحية يمكن أن تأسر الانتباه.

قال: «هل تقبلين الزواج بي؟»

تسارعت ضربات قلب فيفيان قليلًا؛ إذ لم تكن جيَّاشة العواطف، لكن وجهها الوردي الصغير انفرج عن ابتسامةٍ عريضة، وهي تقرأ الرسالة حتى وصلت إلى نهايتها المُرضية. بعد ذلك، تركت فيفيان الرسالة تسقط على الأرض، وأطلقت العنان لخيالها.

قررت: «ألماس.»

سرعان ما تفقدت فيفيان بقية الرسائل، ووجدت ظَرفًا مُوجهًا إليها بحروف مطبوعة في أسفل كومة الرسائل. فتحت الظرف، وهي تشعر بانقباضٍ مقيت، وأخذت تُحدق في الرسالة المكتوبة بخطٍّ مُضطرب غير واضح.

«لم تتزوَّجي بعد. تذكَّري، قد يحدُث كثير من الأمور بين ليلة وضحاها. انتظري حتى يعلَم الميجور ماضيك. حان دورك وسأكشف حقيقتك للجميع.»

أخذت فيفيان تضغط بأصابعها عبر خصلات شعرها في شرود، وفزعت من أول فكرة واضحة تشكلت في عقلها.

قالت: «حمدًا للرب لن تعرِف السيدة سكودامور بالأمر.»

بدأ الموقف يتكشَّف لها بوضوح، فأطلقت شعورها بالتوتُّر في صورة ضحكةٍ هستيرية.

قالت: «بالطبع سيأتي الخطاب الآن. لكن مَن أرسلَه؟ الشخص الوحيد الذي على معرفة بالأمر، لم يعُد يعبأ بالموضوع. لنفترض أنه مَن أرسل الخطاب بسبب شعوره

بالغيرة. لكن هذا غير معقول. إذا اتهمتُه بذلك، فلن أجني شيئًا سوى فضح نفسي أمامه. أو ربما أُثير الشكوك في نفسه ... يجب أن أتجاهل مسألة الخطاب. إنه أحد تلك الخطابات المتداولة في الوقت الحاضر. وصاحبها أصاب الهدف بالصدفة.»

كانت فيفيان تمتاز بهدوء الأعصاب، ولا تُصاب بالذُّعر بسهولة. واستجمعت الموقف في عقلها بصورةٍ أفضل من السيدة سكودامور؛ لأنها كانت تشعر براحة الضمير بشأن المسألة الأساسية.

لكن بينما كانت تسير الهوينى عائدة إلى المنزل، بدأ السمُّ يتسرب إلى جسدها وعقلها شيئًا فشيئًا، حتى قضى على بهجةِ عرْض الزواج. وأنشأ الشك ينسج خيوطًا سوداء صغيرة في عقلها.

حدثت نفسها: «لنفترض أن بلير تلقَّى خطابًا بشأني. سيمنعه غضبه الشديد من التعامُل مع الأمر بموضوعية. إنه يقيس الأمور بمعيارَين: أحدهما لنفسه والآخر للنساء. وسيوجِّه لي الأسئلة، وربما أكشف نفسي في أثناء ذلك ... أو لعلَّ هذا خطاب حقيقي بشأن الكوخ. في هذه الحالة، فقد انتهى أمري. سيخجل بلير عند أدنى تلميحٍ بفضيحة.»

طاردها الخوف عبر الحديقة، وعبر الدرجات العريضة القصيرة المُفضية للشرفة.

تلكَّأت فيفيان قليلًا في الردهة، حيث تناهى إلى سمعها أصوات والدَيها من غرفة الجلوس الصباحية. لكنها بدلًا من أن تُخبرهما بشأن رسالة الميجور، تركت البريد في الردهة، وأجرت مكالمةً هاتفية إلى لندن.

لم تهدأ مخاوف فيفيان قليلًا حتى قبلت عرض الميجور عبر الهاتف. بعد ذلك، عدلت شعرَها الأملس الأشقر، ببعض الارتباك، ودلفت إلى غرفة الجلوس الصباحية، لتزف إلى والدَيها البشرى.

هتف العمدة: «ظننتُك ستبقَين عانسًا.»

قالت زوجته: «لم تشأ فيفيان أن تترك والدتها.» وأضافت في عجلة: «سأرسل الإعلان إلى صحيفة «التايمز» اليوم.»

اقترحت فيفيان: «من الأفضل أن تُرسليه هاتفيًّا. سيصِل أسرع.»

قالت زوجة العمدة: «سأفعل. لا بدَّ أن أُخبر ليدي دارسي على الفور. سأتصل بها ... والسيدة سكودامور أيضًا.»

علق العمدة في كآبة: «ستواجهين عقبة في الاتصال بالسيدة سكودامور. لقد صار خطها خارج الخدمة للأبد.»

خفضت زوجة الشريف صوتها قائلة: «يا إلهي، نسيت. كم أنا مريعة! أريد أن أرسل زهورًا يا فيفيان. ولكن هل ستُقام لهما المراسم الجنائزية المعتادة؟»

أجاب العمدة بحدة: «الجثث التي ستدفن جثث عادية.»

قالت زوجة الشريف: «لم تفهم قصدي يا أوسبرت. هذا انتحار. ستكون هناك اختلافات على الأرجح. ربما تكون الزهور غير لائقة بالموقف ... ليتَ أحدهم يخبرني كيف ستسير الأمور.»

أدركت زوجة العمدة أنها تفتقد السيدة سكودامور، التي لو كانت بينهم الآن، لعلمت كيفية التصرف في هذا الموقف الاستثنائي. وحتى في تلك اللحظة، راودها خوف غريب أن تسيء إلى حارسة الذوق العام، إذا ما أتت بشيء يفسد جنازتها.

طرفت السيدة بعينيها لتصرِف دمعة شاردة وقالت: «سأذهب لرؤيتها على أي حال، وسأنثر بعضًا من زهور الأقحوان في نعشها، حتى لا تراه الأعيُن. لكني أود أن أزف إليها نبأ خطبة فيفيان. كانت ستُسَر كثيرًا.»

لكن تبين أن ساعي البريد لدَيه هو الآخر أنباء مهمة ذلك الصباح. فقد أحضر إلى إيجناتيوس رسائل، من بينها رسالة واحدة قرأها إيجناتيوس باهتمامٍ شديد.

رفع إيجناتيوس بصرَه عن الصفحات الرقيقة المكتوبة على الآلة الكاتبة وهو يضحك ضحكة خافتة.

قال: «تلقيتُ للتوِّ تقارير من مُحققي السري. إنها تقارير قيمة في ضوء آخر التطورات. فهي تثبت أنني أسير على المسار الصحيح.»

قطَّب القسيس حاجبَيه.

وسأل: «هل تتدخَّل في الشئون الخاصة لأبناء أبرشيتي؟»

أجاب إيجناتيوس: «أخبرتك أنني فعلتُ ذلك. ألا تُصغي إليَّ أبدًا؟ لا أقول شيئًا خارج السياق.»

سأل القسيس: «حسنًا ... ماذا وجدت؟»

ردَّ إيجناتيوس: «تاريخ قصير لسيدتَين بعينهما. لا تقلق. هذه التقارير في غاية السرية.»

«أرى الأمر غير لائق.»

«لن تعرف السيدتان على الإطلاق. فأنا أحترم الحدود. أرغب في استجواب القسيس العجوز الذي تناول الغداء هنا منذ بضعةِ أيام؛ لكني أعلم أنه ربما يجد الأمر مُهينًا، ويرفض تزويدي بالمعلومات، وسيكون له الحق في ذلك.»

تنهَّد القسيس تنهيدةً طويلة بطيئة.

وسأل: «متى ينتهي كل هذا؟»

ردَّ إيجناتيوس: «قريبًا، آمُل ذلك. لكن يجب أن نحصل على نموذج آخر لخطِّ يد صاحبنا المجهول أو بالأحرى الطابع البريدي الذي يستخدِمه. لا نملك سوى ظرف آنسة أسبري. وهُنا يأتي دورك.»

«كيف؟»

أجاب إيجناتيوس: «ألقِ عظة عن الفاجعة، وأوْلِ ذلك جهدًا خاصًّا. استخدِم ما يمكنك من أساليب الإقناع القوية. ولا تطلُب من رعيتك إطلاعك على أسرارهم؛ لأنك لن تحصل عليها. لكن اطلب منهم الظرف الذي أُرسِلت فيه الرسائل. قد يكون أحدهم احتفظ بظرفه.»

سأل القسيس مذعورًا: «هل تعني أن هناك رسائل أخرى غير رسائل السيدة سكودامور؟»

قال إيجناتيوس: «لقد ذاع نبؤها في القرية يا عزيزي. وعرف بأمرها الجميع عدا أنت.»

تلقى القسيس السخرية في صمت. فقد هالَهُ أن يعلم أنه طوال هذا الوقت كان أنبوب مجارٍ سامٌّ يتدفق تحت سطح نهره الصافي الرقراق. لقد تلوَّثت القرية بتيار سُفلي معاكس.

قال القسيس: «ممتاز. سأبذل قصارى جهدي كي أُحفز أحدَهم على أن يتكلَّم.»

في الوقت الذي انتظر فيه العالَم كله أربعًا وعشرين ساعة حتى الإعلان عن خطبة فيفيان رسميًّا، انتشر الخبر محليًّا في غضون وقتٍ قصير، عن طريق شبكة اتصالات القرية اللاسلكية المعتادة. وكان الخبر بمنزلة ترياقٍ لطيف لمأساة عائلة سكودامور.

شخص واحد فقط لم يبعث فيه الخبر سرورًا لا تشوبه أنانية، وهي جوان بروك.

ظلت جوان قلقةً وتعيسة لحالها، وكانت صادقة في ذلك أيما صِدق حتى إنها لم تحمل نفسها على الفرح لفتاةٍ لا تُحبها لما حلَّ بها من سعد.

في ذلك المساء، بعدما اختفت الشمس وراء الأفق، قابلها إيجناتيوس وهي تسير في ساحة خائرة القوى بائسة.

فسألها: «هل تغلبت على خوفك من الظلام إذن؟»

ابتسمت جوان إذ سُرَّت لصحبته الخبيثة لأول مرة.

«أنتَ تمزح، أليس كذلك؟ لديَّ قبضتان وطقم كامل من الأظافر وأيضًا رفسة مثل رفسة الكنغر ... مرحبًا يا إيدي.»

سكتت جوان لتحية فتاة طويلة القامة مفرطة النمو، تبلغ من العمر نحو ستة عشر عامًا، خرجت لتوِّها من جادَّة تُظلِّلها أشجار الكستناء. كانت الفتاة تحثُّ الخُطى وهي تتناول قطعةً مثلثة الشكل من فطيرة الكورنيش، وتحشر قشرتها الخارجية في فمِها، كي تبتلِعها بسرعة.

واصلت جوان: «هل تأكلين كالعادة؟ ستخسرين مُحيط خصرك النحيف. لو رآك أحد لظنَّ أنكِ محرومة.»

اعترضت إيدي: «لا يا آنسة. لديَّ الكثير من الطعام في بيتي. لكن أُمي كانت تخبز وأعطتني هذه القطعة كي أتذوَّقها.»

تأمَّلت جوان قوام الفتاة وهي تبتعِد عن المكان.

وقالت: «تلك الفتاة تُثير قلقي. تذهب إلى المنزل كل مساء لزيارة أمها، وألتقي بها في طريق عودتها وهي تتناول الطعام دائمًا. الغريب في الأمر أنها تزداد نحافة. بمَ تُفسر ذلك؟»

كانت هذه فرصة إيجناتيوس واقتنصها.

قال: «من الواضح أنها لا تحصل على ما يكفيها من الطعام في بيت مخدومتها، ولا تجرؤ على الشكوى، بسبب تحيُّزات أهل القرية. وربما أن والدتها فقيرة، وتعتمِد على أموال الصدقات.»

«أصبتَ الهدف. إن مخدومة هذه الفتاة سخية وتقوم بالكثير من أعمال الخير. لكنها في غاية الرُّقي وترى أنه من غير اللائق تناول الكثير من الطعام. فتقتسِم هي وابنتها بيضةً واحدة على الغداء، كما أن العجوز التي تتولى مسئولية طهي الطعام وتدبير شئون المنزل مومياء عجفاء وتفعل الشيء نفسه ... هذا ليس بخلًا. هنَّ ببساطة لا يفهمنَ أن أي فتاة في مرحلة النمو تزداد شهيتها للطعام. أتوقَّع أنها تحصل على حصةٍ مُحددة من الطعام وأن هذه الحصة لم تتغير أبدًا. ألا يبدو الوضع ميئوسًا منه؟»

أجاب إيجناتيوس: «هذا يوضح وجود فسادٍ في النظام الإقطاعي الذي يعمل بكفاءة هنا على ما يبدو. لا أشك في أن عائلة الفتاة أفضل حالًا من معظم الأُسَر التي تعيش على الإعانة الحكومية. لذلك من الطبيعي أن تمنعها أُمها من الشكوى.»

قالت جوان: «لو فعلت فلن يُصدِّقها أحد. لنتخيَّل، على سبيل المثال، أنني هاجمت سيدتها، حينها ستظن ببساطة أن إيدي تُطلق أكاذيب وستتهمني بإثارة الشغب. لا سبيل للتأثير عليها إلا بضغط الرأي العام. ولا أحد هنا — ولا حتى القسيس — يستطيع انتقاد إحدى ركائز الجماعات الخيرية.»

وهزَّت شعرها المعقوص في هيئة ذيل حصان في نفاد صبر.

وقالت: «ما فائدة الكلام عند العجز عن التصرُّف؟ سأتجول في القرية قبل أن أعود إلى المنزل. أُحب التجول في القرية عندما تضيء شوارعها المصابيح ويدلف الجميع إلى منازلهم.»

رافقها إيجناتيوس حتى نهاية القرية. كانت جوان صامتة مُعظم الوقت، تُحدق في الحدائق المظلمة الزاخرة بالزهور والمكتظة بخلايا النحل، أو تسير الهوينى لتتأمَّل النوافذ المضاءة.

استدارا عندما وصلا إلى امتداد القرية المُظلم وراء نزل «كينج هيد». وفي رحلة عودتهما، تحركت نفس جوان، وأطلعت إيجناتيوس على سِرٍّ آخر.

قالت: «دائمًا ما يسحرني منظر القرية في الليل. فهو يُذكرني بمشهدٍ من مسرحية. لديَّ صديقة كاتبة حوَّلت هذا المشهد ذات مرة إلى قصةٍ مسلسلة مثيرة. كانت تعتقد أن الجميع هنا يعيش حياة مزدوجة. المدهش أنها كانت على صوابٍ فيما يخصُّ عائلة سكودامور.»

سأل إيجناتيوس: «هل قالت إنهما غير متزوجَين؟»

أجابت جوان: «قالت إنهما يعيشان في الخطيئة، ونسجت حكايةً طويلة غير معقولة، تصف فيها منامة السيدة سكودامور الفرنسية المُضحكة السخيفة، ودلوًا من الشمبانيا مزدانًا بشريط وردي مربوط على هيئة عقدة.»

«وماذا قالت أيضًا؟»

«نسيت. أوه، ادَّعت أن الآنسة كورنر تحتسي الخمر سرًّا. وكان هذا أيضًا غريبًا؛ لأنني سمعت أنهم عثروا على زجاجة ويسكي داخل خزانة ملابسها. وقالت أيضًا إن الطبيب كان يُسمِّم زوجته.»

علق إيجناتيوس: «ليته فعل. لكنه لن يفعل. هل أخبرتكِ بشيءٍ آخر؟»

ضحكت جوان قائلة: «أنت فضولي. دعني أُفكر. ما سأُخبرك الآن به مُسلٍّ حقًّا. قالت إن الآنسة أسبري وحشٌ قاسٍ وإنها تسيء معاملة مرافقتها الضئيلة المسكينة.»

«أها. لنتحقَّق من الأمر.»

وقف إيجناتيوس خارج بوابات «سباوت» الحديدية المزدانة بالزخارف الدقيقة، ونظر عبر القضبان إلى طيف شجيرات الزنابق البعيدة. كانت قرقرة الماء الخافتة هي الصوت الوحيد الذي يُمكن سماعه. ولم يكسر الظلام ولو بصيص من الضوء.

همست جوان: «يتدفق الجدول تحت المنزل مباشرة. لذا تكون أرضية غرفة غسيل الصحون رطبة دائمًا. ألا يبدو المشهد غريبًا حين تتخيَّله يتسلَّل في الظلام؟»

«الأغرب من ذلك، بالنسبة إليَّ، هو إغلاق النوافذ في مثل هذه الليلة الحارة، وليس لديَّ سوى تفسيرٍ واحد لهذا الأمر.»

«ما هو؟»

«أن شخصًا ما لا يريد لأحدٍ أن يسمع صوته. فالصوت ينتقل إلى مسافةٍ بعيدة في الليل.»

وبينما كان يتحدَّث، تشبَّثت جوان بمعصمه. كان بالكاد يرى وجهها البيضاوي الأبيض وهي تُحدق إليه بخوفٍ عَبر الظلام.

همست جوان: «اصمت.»

قال إيجناتيوس وهو يسحبها من ذراعها فوق الأرض العشبية في إلحاح: «تعالي معي.» بعد ذلك، توقف عند مدخل مَمشى كواكرز وقال: «سأرافقك إلى «ذا كورت».»

هزَّت جوان رأسها وقالت: «لا. أريد أن أركض. وأركض.»

قال إيجناتيوس: «حسنًا. تُصبحين على خير. ولا تحلمي.»

وتهيَّأ للذهاب لكنه استدار فجأة.

وقال: «سأقول لكِ يا جوان ما قلته للآنسة ماك. إن وقعتِ في مشكلة، هل ستأتين إليَّ؟ ربما يمكنني مساعدتك.»

عضَّت جوان على شفتَيها.

وسألت: «لِمَ تضعني في نفس الخانة مع آنسة ماك؟ أنا لا أفهم حقًّا. لكن هذه هي حقيقة الأمر. عبث. تُصبح على خير.»

ثم قالت: «لا، انتظر. أريد أن أسألك عن شيء.»

ونظرت حولها، إلى الأرض العشبية التي يتخللها ضوء الشفق، قبل أن تتحدث.

«ما الذي سمعته الآن؟»

أجاب إجناتيوس: «سمعتُ ما سمعتِه. صوتُ امرأة ... صوتٌ قاسٍ وغير مألوف. بعد ذلك، سمعت أنينًا خافتًا كما لو أن امرأة أخرى تصرخ من الألَم.»

الفصل السادس والعشرون

# الإنذار الأخير

كانت خطبة القسيس في الأحد التالي لا تُنسى. فلم تكن نموذجًا لحُسن البيان فحسب، وإنما كانت مطبوعةً بطابع الصدق وحُسن النية أيضًا. ولم يستطِع إيجناتيوس، الذي أنصت إليها بروح ناقدة موضوعية، رصْد نغمة واحدة يلوح فيها عدم الصدق.

تحدث القسيس بعاطفةٍ مكبوحة حتى صار جليًّا أنه يبذل أقصى ما في وسعه ليتمالك أعصابه. وذكر أن الفاجعة الأخيرة جريمةٌ ساهم فيها بعض الحاضرين على نحوٍ غير مباشر. ولو لم يكونوا مُذنبين في واقع الأمر، فهم شركاء في الجريمة بسبب صمتِهم العنيد.

ثمة فساد خفي يُدمر روح القرية الجميلة، ولا سبيل للقضاء عليه إلا بتعاون الجميع في المسئولية. أُطلِع القسيس على أول خطابٍ من قبل امرأة تغلَّبت لديها التضحية بالنفس على نفورها الشخصي من ذيوع أمرِها على الملأ. ولسوء الحظ، لم يظهر شخصٌ آخر على قدر كافٍ من الإيثار والشجاعة كي يحذو حذوها. بعد ذلك، طلب القسيس من الحاضرين طلبًا بسيطًا، وهو أن يُعطوه أي ظرفٍ أُرفقت فيه الرسائل.

كان إيجناتيوس يتحرك جانبيًّا في المقعد الخشبي الطويل في الجناح الشرقي من الكنيسة، كي يتسنَّى له تفحُّص الجزء الأكبر من رعية الكنيسة الذين ملئوا جناحها الغربي. ولاحظ أن وجوه الحاضرين لم تظهر هدوءها الخاوي المعتاد كأنهم مُغلَّفون بشريط من السوليفان الواقي. لكن بينما بدت أمارات الجدية والاضطراب واضحة على ملامحهم، بدا أن كلَّ واحدٍ منهم ينشغل بالمسئولية الواقعة على عاتق جاره.

بدا لإيجناتيوس أن صوت فكر الرعية الجمعي كان قويًّا لدرجة أنه وصل إليه فيما يُشبه الكلمات.

«بالتأكيد، بعد هذه الخطبة، سيفعل أحدهم شيئًا.»

كان القسيس يسيطر على نفسه جيدًا حتى نهاية الخطبة، حيث انفجرت مشاعره المكبوتة دون سابق إنذار، مخترقة الغشاوة الرقيقة التي كانت تحجبها، وخرجت في شكل بركانٍ من المشاعر المتأجِّجة. جرفته انفعالاته، ناسيًا الحاضرين وناسيًا نفسه، فقال أكثر مما كان ينتوي قوله، عندما كان يرسم الخطوط العريضة لخطبته.

أخبرهم أنهم لو كانوا مُذنبين، فهو مُذنب أيضًا بالقدْر نفسه. فقد خذلهم لأنه عجز عن كسب ثقتهم. وحتى لو كان حُبه للقرية يفوق حُبه للحياة نفسها، إلا أنه سيضطر إلى تركهم والخروج إلى البرية، إذا لم يتمكن من إقناعهم بالحديث.

قال: «ستكون العاقبة مريرة كمرارة الحنظل. مصيري بين أيديكم.»

راقب إيجناتيوس بسرعةٍ تفوق سرعة ابن مقرض في تعقُّب طرائده، ردود أفعال الحاضرين عامةً على الخطبة. كانت هذه هي المرة الأولى، من واقع خبرته، التي تنسى فيها رعية الكنيسة سلبيتَها المهذبة. لقد صُعقت الرعية من كلام القسيس، وأظهرت ذلك.

ترقرق الدمع في عيني زوجة العمدة. وبدا على مُحيَّا العمدة تعبير مُتجهِّم كأنه ديكتاتور سيحمل الرعية على الإدلاء باعترافٍ عام. واتَّقدت عينا الآنسة أسبري الرماديتان الواسعتان بلهيب التضحية، مثلما يليق بشخصٍ أقدم على التضحية بالفعل في وقتٍ سابق.

التقط إيجناتيوس عدة انطباعات عابرة على وجوه الحاضرين قبل أن ينتبِهَ إلى ضرورة مراقبة سيدة شابة بعينها كانت تُثير اهتمامه. ولاحظ أن الآنسة ماك ابتسمت إلى مخدومتها، كأنها تطلُب منها العون لتعرِف كيف توجِّه مشاعرها. لكن عندما نظر إيجناتيوس إلى جوان بروك، كان قد تأخَّر كثيرًا في الْتقاط الرسالة التي تلوح في عينَيها. جلست جوان تنظر إلى يدَيها المشتبكتَين خافضة الطرف.

ظلَّ إيجناتيوس في مقعده بعد أن خرجت رعية الكنيسة في صفوفٍ إلى مدفن الكنيسة المُشمس. وسرعان ما انضمَّ إليهم أعضاء الجوقة، وانتهت عازفة الأرغن — وهي فتاة من القرية — من وضع الآلات الموسيقية في مكانها. وكانت هي والقندلفت آخر مَن غادر المبنى.

مكث القسيس في غرفة الكهنة بعض الوقت؛ لكن لم يسمع أي همهمات تدلُّ على أن أيَّ فردٍ من رعية الأبرشية قد توانى عن الاعتراف للقسيس. ألقى إيجناتيوس نظرةً على ساعته، ثم قرَّر العودة إلى القسيس بمُفرده.

كاد إيجناتيوس أن يُغادر رواق الكنيسة المُغطَّى، لولا أن سمع وقع خطواتٍ على الطريق المرصوف بالخارج. فتسلَّل عائدًا إلى الكنيسة دون تفكير، واختبأ خلف أحد الأعمدة.

دخل شخصٌ المبنى المُظلم ثم تردَّد قليلًا عند المدخل. تبين أن ذلك الشخص هو الآنسة أسبري. سارت الآنسة أسبري بضع خطواتٍ في مَمشى الكنيسة، وعيناها لا تزالان مُتَّقدتَين وشفتاها مزموتَين في تعبير صارم مُتجهم.

ظن إيجناتيوس أنها تقصد غرفة الكهنة. لكنها توقفت بجانب مقعدها في الكنيسة ثم جلست وجثت على ركبتَيْها للصلاة.

استغرق إيجناتيوس في مراقبة الآنسة أسبري، فلم ينتبه إلى أن الباب فُتح مرة أخرى؛ لكنه عندما سمع وقع خطواتٍ خفيفة أدار ظهره بحدة شديدة حتى كاد يرتطم بآنسة ماك.

ندَّت عن آنسة ماك صرخة خافتة، ثم مدَّت يدَها بكتابٍ للصلوات مُغلف بالعاج، كأنها تشرح له سبب وجودها في المكان.

همست: «هل الآنسة أسبري بالداخل؟ أعتقد أنها نسِيَت كتاب الصلوات وستعود للبحث عنه. لقد أحضرته مع كتابي.»

أجاب إيجناتيوس: «نعم. إنها تبحث عنه الآن ... لكني كنتُ آمُل أن تقتنصي الفرصة كي تتكلَّمي معي على انفراد.»

غمغمت الآنسة ماك قائلة: «لا أفهم ما تعنيه.»

قال إيجناتيوس: «بل تفهمين. ألا تذكُرين أنني عرضتُ عليك المساعدة من قبل؟»

أجابت: «نعم، نعم. كنتَ في غاية اللطف. ولا أعرف السبب. اسمح لي بالعثور على آنسة أسبري.»

اعترض إيجناتيوس طريقها.

وقال في همس: «لا تخافي من التحدُّث إليَّ. إنها لا تعرف أنكِ هنا. لنذهب إلى الخارج.»

فتحت الآنسة ماك شفتَيها لتتحدَّث ثم أطبقتهما مرة أخرى. وفي اللحظة نفسها، أدارت آنسة أسبري رأسها ورأتهما واقفَين عند مدخل الكنيسة. فنهضت من جثوِها وبدت قامتها الطويلة السوداء قاتمة ومهيبة في الضوء الخافت المُتسرِّب من نوافذ الكنيسة الملونة القديمة. تقدمت الآنسة أسبري نحوهما بهدوءٍ وبسرعة شديدَين، حتى إن عباءتها الخفيفة انتفشت في الهواء، مثل سحابة، وكادت تُحيط بهما.

لاح في صوت الآنسة أسبري نبرة توبيخ: «لم أتوقَّع أن تتبعيني إلى هنا يا آنسة ماك.»

ردَّت مرافقتها في تواضع: «أنا آسفة. ظننتُ أنك تبحثين عن كتاب الصلوات.»

قالت الآنسة أسبري: «حسنًا. هذا لُطف منكِ. أشكرك.» والتفتت إلى إيجناتيوس وقالت: «كنت أنوي الذهاب إلى القسيس في غرفة الكهنة. أريدك أن تطلُب منه، نيابة عني، ألا يُنفذ وعيده بالرحيل عنَّا.»

ذكَّرها إيجناتيوس: «كان هذا تهديدًا مشروطًا.»

قالت: «أجل. لا أتصوَّر كيف لشخصٍ أن يسمع مثل هذه المناشدة الحارة ولا يستجيب لها. هلَّا استعطفته حتى لا يأخذ الكل بجريرة البعض؟»

رد إيجناتيوس: «ولكن ألا تعتقدين أن بإمكانك أن تُخبريه بما يدور في ذهنك مباشرة أفضل مني؟ سأنتظرك والآنسة ماك ريثما تنتهِين.»

هزت الآنسة أسبري رأسها نافية، وابتسمت له ابتسامتها النادرة الظهور.

وقالت: «سآتمِن ذاكرتك على رسالتي. وأخبره أيضًا ألا يُعاقب نفسه بذنب الجميع. أعرف ماذا ستعني مغادرة القرية بالنسبة إليه. فأنا أُحبها أيضًا. لنذهب يا آنسة ماك.»

شاهد إيجناتيوس التناقُض الغريب بين المرأتين — إحداهما طويلة ونحيفة والأخرى قصيرة وعريضة — وهما تسيران في الجادة المليئة بأشجار الليم باتجاه بوابة مدفن الكنيسة. وعبس بوجهه، كأنه يسخر من المرأتَين المنسحبتَين، قبل أن يسلك طريقًا مُغطًى بنباتات اللبلاب والأعشاب بكثافة ويفضي إلى غرفة الكهنة على نحوٍ غير مباشر.

كان القسيس لا يزال ينتظر في الداخل مُترقبًا. ونظر بلهفة عندما فُتح الباب ليدخل إيجناتيوس. لكن سرعان ما اربدَّ وجهه في إحباط، وتهدَّلت كتفاه مرة أخرى.

«أهذا أنتَ؟»

أجاب إيجناتيوس بسرعة: «أجل. لقد نسيتَ نفسك في أثناء الخطبة. ولكنها ... كانت رائعة. أُهنئك.»

سأل القسيس: «لماذا؟ إنها لم تلقَ أي استجابة.»

قال إيجناتيوس: «امنحها بعض الوقت. بالإضافة إلى أنها لاقت استجابةً بالفعل. كانت الآنسة أسبري قادمة لرؤيتك، لكن شيئًا ما أثار خوفها فانصرفت.»

قال القسيس: «الآنسة أسبري! لا أريد مَن حصل على الخلاص لروحه. أريد الخطَّائين الذين يحتاجون إلى التوبة ... فيمَ أتت؟»

تأثر القسيس قليلًا عندما نقل إليه إيجناتيوس رسالة الآنسة أسبري بدقةٍ تُضاهي دقة الدكتافون.

علق إيجناتيوس: «بالمناسبة، لقد فاجأتنا جميعًا بقرارك. أهو قرار مفاجئ؟»

أجاب القسيس: «كان مفاجئًا حتى إنه لم يخطُر ببالي، وأنا أصعد درجات المنبر. لكن ... تدفقت الكلمات من فمي هكذا ... ولا بد من الالتزام بها.»

اختتم إيجناتيوس: «قد تكون حركة ضغط فعَّالة.»

قال القسيس: «لا، لا. أنت لا تفهم. لقد أجبرتني قوة خارجة عن إرادتي على الحديث على هذا النحو.»

ظلَّ القسيس منتشيًا بالإلهام الأخير الذي جاءه. لكن سرعان ما باغته السفول الذي يعقب العلو، وهوى في حضيض الكآبة. وظلَّ شبح الاعتزال يُخيم بثقله على روحه.

كان القسيس قد آلمته تبعات فاجعة سكودامور. فقد تولَّى مُحقق وفيات غريب التحقيق فيها، وافتقد تلك البراعة والسرية اللتَين ميَّزتا تحقيقات قاضي الوفيات السابق في قضية وفاة الآنسة كورنر. ونجم عن ذلك أن انكشفت كل وقائع حياة عائلة سكودامور الشخصية على الملأ، وسجلتها الأقلام بأسلوب دقيق خالٍ من المشاعر.

كما راود القسيس بعض القلق؛ لأن جيرمي، قط سكودامور رفض البقاء معه. وشعر أنه حنث بوعدِه للمحامي الراحل، وفي هذا الشعور من العبثية ما فيه.

لكن كان القطُّ يتصرَّف كما يحلو له، ويعرف بالضبط ما يريده. لم يستقر القط في بيت القسيس رغم محاولات مدبرة المنزل الباسلة لاستمالته بالطعام. وأمضى الأيام القليلة الأولى بعد انتقاله إلى بيت القسيس في استطلاع المنطقة، وكان يعود إلى بيت القسيس في مواقيت الطعام المحددة دائمًا. وفي نهاية المطاف، بعدما تأكد من غلق منزل «ذا كلوك» للأبد، استقر به المقام مع عزباء ثرية.

لم يرقَ بيت القسيس لذوق جيرمي. وكان لدَيه اعتراض آخر بجانب اعتراضه على وجود الكلب وعدم انتظام جدول المائدة. لقد جاء من منزلٍ حسَن السمعة، ولم يكن متأكدًا من أن القسيس تجمعه علاقة زواج شرعية بمدبرة منزله.

بعدما توقَّف رنين جرس قداس الأطفال، نهض إيجناتيوس، الذي كان يجلس وحيدًا في بيت القسيس، من مقعده الجامعي القديم وتجوَّل في الحديقة.

خيمت السكينة المصاحبة ليوم الأحد على القرية. كان الأطفال يمكثون داخل الكنيسة، والآباء ينالون قسطًا من الراحة بعد تناول وجبة الغداء الدسمة. واستعاض إيجناتيوس عن أشعة الشمس الحارة بالظلال المُلطفة لزقاق معتم تفوح منه رائحة أشجار الليم، ومرَّ بالحدائق المعزولة الخاصة حتى وصل إلى بوابة صغيرة تستقرُّ في سياج مُقلم من أشجار الغار.

كان هذا الباب المدخل الجانبي لقصر «سباوت». وقف إيجناتيوس يتأمَّل المزيج الخلاب من الخضراوات وشجيرات الفاكهة والأزهار عندما سمع وقعَ كعب عالٍ على الأرض. كانت أدا — التي تحوَّل لون وجهها من الوردي الخفيف إلى الوردي الزاهي — تركض عبر الزقاق الزَّلِق بسبب اكتسائه بالطحالب الخضراء. وكانت ترتدي فستانًا طويلًا مكشكشًا، أوحى بأنها خارج أوقات العمل، وقُبعتها المُفضلة من الكرينولين والقش.

عندما رأت أدا إيجناتيوس، نسِيَت أن تنحني له تلك الانحناءة الرسمية، التي كانت دليل احترامها لأحد أفراد بيت القسيس. وبدلًا من ذلك، تحدثت إليه بحُرية، وهي السمة التي ميَّزت جولتهما، عندما كان مجرد ضيفٍ عابر مُولَع بجمالها على ما يبدو.

قالت أدا: «هل رأيتها؟»

سأل إيجناتيوس: «من؟»

أجابت أدا: «آنسة ماك.»

«لا، لم ألتقِ بأحد.»

«لم تسرْ في هذا الاتجاه إذن. أنا لا أفهم.»

سأل إيجناتيوس: «ما الذي يُحيرك؟»

قالت موضحة: «لقد خرج الجميع. رأيتهم بأمِّ عيني يغادرون، السيدة والخدم. قالت السيدة إنه لا داعي للعودة حتى موعد تقديم الشاي. لكني نسيتُ قفازي فعُدت ... وأنا متأكدة أنني سمعت صوت خطواتٍ تتجول في الطابق العلوي.»

«لماذا لم تصعدي إلى الطابق العلوي للتحقُّق من الأمر بدلًا من الخروج إلى الحديقة؟»

احمرَّ وجه أدا.

وقالت: «شعرتُ بالخوف إذ كان وقع الخطوات غريبًا. كان أقرب إلى الصرير وليس مجرد صوت خطوات عادية ... يقولون إن المنزل مسكون ... لذا أطلقتُ ساقي للريح. وفجأة خطر ببالي أن الآنسة ماك ربما تسللت إلى المنزل من الخلف. لكنها لو فعلت ذلك لكنتَ رأيتها.»

سأل إيجناتيوس: «ولماذا ظننتِ أنها الآنسة ماك؟»

«بدا صوت الخطوات قادمًا من غرفتها.»

«لكن ما الذي يجعلها تتسلَّل إلى المنزل؟»

فجأة، استفاقت أدا من غفوة الحيرة التي اعترتها، وصارت عيناها الزرقاوان في غاية الشراسة.

وصاحت: «سؤال مُهم. كانت لديَّ شكوك. وسأعثر على الإجابة. سأُخبرك بمسألة واحدة فحسب. هناك أشياء تختفي لكنها لا تختفي من تلقاء نفسها.»

سأل إيجناتيوس بلهفة: «أيمكنني المجيء معك؟ لربما يكون شبحًا.»

تذكرت أدا خوفَها من المنزل الفارغ وأومأت برأسها. وسلكت مسلكًا خفيًّا بين سيقان توت العليق الكثيفة وأيكة من شجيرات البندق كي تبقى بعيدةً عن مرمى النافذة. وعندما بلغا الممر المرصوف أمام المنزل، فتحت أدا بابًا صغيرًا يُفضي إلى ردهة.

قالت: «سنسترق السمع من أعلى الدرج الخلفي.»

تبِعها إيجناتيوس، صاعدًا الدرج الضيِّق اللولبي، إلى بابٍ مُغطًّى بالكوخ الأخضر، واربَتْه أدا بحذَر. وامتدَّ أمامهما ممرٌّ طويل تُضيئه نافذة صغيرة في نهايته. كانت ألواح أرضية الغرفة البلوطية العارية المصقولة بالشمع غير مستوية بفعل الزمن، فكانت ترتفع وتنخفض من حين لآخر.

قالت أدا وهي تشير بإصبعها مُحذرة: «اصمت.»

سيطر صمت ثقيل مُميت على المنزل بأكمله. وبينما كانا يرهفان السمع، انسابت أصوات خافتة من إحدى الغرف تُشبه صرير الألواح الخشبية. شخصٌ ما كان بالداخل، يتحرك خلسةً في مهمة سرية.

همست أدا: «إنها ماك العجوز. استيقظتُ في الليل، وظننتُ أنني سمعتُ شخصًا يفتش في سائر أرجاء المنزل خلسةً. ثم قلتُ لنفسي إن ما سمعته هو صوت «الفئران». لكنني فقدتُ لآلئي الجديدة ... أفهمت؟ لقد تسللت عائدةً إلى المنزل، عندما رحل الجميع، لتسرق أي شيءٍ تجده مُلقًى هنا أو هناك. لكننا سنُمسك بها ... انظر.»

أشارت أدا إلى باب قديم من البلوط، كان مزلاجه الحديدي يرتفع ببطءٍ كأن يدًا خفية تحركه.

سأل إيجناتيوس حين ظلَّ المزلاج ثابتًا عند المنتصف: «غرفة مَن هذه؟»

أجابت أدا: «غرفة ماك. إنها تُخبئ ما سرقته. لكني سأواجهها وأُجبرها على إفراغ ما في أدراجها ... آه.»

شهقت أدا عندما فُتح الباب بهدوء، وظهرت الآنسة أسبري عند مدخل الغرفة. كان هناك شيء من السرية والغموض في وضعيتِها المُنحنية الحذرة، وهي تقف وتُرهف السمع، حتى شعر إيجناتيوس أن قلبه يدقُّ بقوة من شدة الإثارة.

فجأة، انكسر صمتُ المنزل القديم بصوت خطواتٍ كثيرة تصعد الدرج المركزي بسرعة. كانت أدا قد أغلقت الباب، حتى لم يعُد بإمكانهما رؤية الممر، لكنهما سمِعا صوت الآنسة ماك يرتفع بصرخة حادة مثل أرنب فقد صوابه من الرُّعب عندما رأى القاقم.

قالت: «اخرجي من غرفتي. لن تجِديه أبدًا. إنه ملكي.»

نزلت أدا على الدرج مسرعة، وإيجناتيوس في أعقابها. وظلَّت صامتةً في حين اجتازا الحديقة بسرعة. وعندما وصلا إلى البوابة التي فُتحت في سياج أشجار الغار، كان صوتها هادئًا.

قالت: «إلى اللقاء يا سيدي. سأعود إلى المنزل لزيارة أمي. آسفة لأنني أزعجتك بلا سبب.»

كرَّر إيجناتيوس: «بلا سبب يا أدا؟»

كانت عينا أدا الزرقاوان خاليتَين من التعبير وهي تُكرر: «بلا سبب يا سيدي. سأتزوج قريبًا وقد وعدتني آنسة أسبري بشراء فستان العرس وكل المفروشات.»

«أعرف. لديكِ مخدومة طيبة القلب.»

«إنها طيبة وعطوفة يا سيدي. وإن كانت قد قست على الآنسة ماك في بعض الأحيان، فإنها تُعاملها بما تستحق؛ لأنها ترى نفسها فوق الجميع، حتى أصبحت بلا نفع لأحدٍ على الإطلاق.»

رفع إيجناتيوس قُبعته وانحنى لها في احترام.

وقال: «أحيي روح القرية. أنا مُعجب بكِ يا أدا. أنت لم تري شيئًا ولم تسمعي شيئًا. وأنا مثلك.»

الفصل السابع والعشرون

# طابع البريد

لم يستطع القسيس النوم في تلك الليلة؛ إذ كان مُثقل الفؤاد مشوَّش العقل. وكلما غلبه النعاس رأى كابوسًا مرعبًا، حيث تخيل نفسه يقاتل خصمًا غير مرئي.

بدأ القسيس يعتبر هذا الحلم المُتكرر رمزًا لصراعه مع كاتب الرسائل المجهولة، رغم أنه يدرك تمام الإدراك أن هذا الحلم ليس سوى انعكاس لأفكاره الداخلية.

تمتم القسيس وهو يزيل رغوة الحلاقة عن وجهه المُنهك: «ألن أتخلَّص منك أبدًا؟»

نزل القسيس على الدرج العريض المُغطَّى بسجادة بروكسل مُهترئة، ووجد البهو مغمورًا بالضوء الذي تدفَّق من باب الحديقة المفتوح. كان تشارلز يُطارد كرة على العشب. وفي المطبخ انشغلت الطاهية بسلق البيض على أنغام أغنية «لقد ارتدت الشمس قُبعتها» (ذا صن هاز جوت هيز هات أون) المُنبعثة من جهاز الجراموفون.

كانت هذه الأجواء نموذجًا للحياة الدافئة المبهجة التي بدأ القسيس يُحبها. لذا استصعب استدعاء ابتسامته المُعتادة إلى شفتَيه، عندما التقى بساعي البريد عند الباب الأمامي؛ إذ كان لا يزال تحت وطأة التهديد بترك هذه الحياة والرحيل عن القرية.

لكن الأخبار التي حملها إلى غرفة الطعام مع خطاباته كانت سارة. لقد رفض القدَر تضحيته، واعتبرها «بادرة كريمة من رجل نبيل»، من أجل حسْم فوري للأمر.

فتح القسيس خطابًا ضخمًا، مكتوبًا بخطٍّ سيئ غير واضح، وأخرج ظرفًا عليه أحرف مطبوعة كان مطويًّا داخله.

صاح القسيس مبتهجًا: «حصلت عليه»، وألقى بالظرف إلى إيجناتيوس، في حين انشغل بقراءة الخطاب المُرفق.

كان الخطاب من امرأة تدعى السيدة بومفرت، وهي امرأة عجوز معروفة بورعها ونسبِها العريق. أوضحت السيدة في خطابها أنها تلقَّت لتوِّها خطابًا مجهولًا، يحتوي على

اتهامٍ فاحش لا أساس له من الصحة، لن تستطيع قوة على الأرض أن تُقنعها بالكشف عنه لمخلوق.

قالت: «أشعر بالخِزي لتلقِّي مثل هذا الخطاب القذِر. لكني أثق بك مثلما يثق الكاثوليكي الروماني في كرسي الاعتراف. لقد تلقيتُ الخطاب يوم السبت في وقتٍ متأخِّر من الليل، ولأننا لا نمتلك نارًا في المطبخ في فصل الصيف، أغلقتُ عليه بإحكام حتى إذا ما سنحت لي الفرصة أحرقته. وفي صباح اليوم التالي، بعدما استمعتُ إلى خطبتك الرائعة، خُضت معركة حامية الوطيس مع ضميري، وأشعر بالرِّضا وأنا أعلن انتصار ضميري في النهاية. لم أكن سأغفر لنفسي إذا أجبر قسيسنا العزيز على الرحيل من قريتنا بسبب سكوتي. لكن لن يعلَم أحد قط الثمن الذي دفعته من مشاعري.»

رفع القسيس عينَيه عن الخطاب، وإذا بإيجناتيوس يُعرِّض الظرف للبخار المنبعث من الغلاية التي تعمل بموقد الكحول.

قال إيجناتيوس موضحًا: «أريد أن أُلقي نظرة على طابع البريد. ربما احتوى على علامة مُميزة، وإن كان هذا أمرًا مستبعدًا.»

علق القسيس: «لم أكن لأُزعِج أي طفل في أثناء لعبه. كل ما أريده أن أشدِّد على ضرورة الحفاظ على سرية هذا الخطاب. لقد قدمت السيدة بومفرت تضحيةً جليلة، ولأن أقطع يدي اليمنى أحب إليَّ من أن أسبِّب لها الألم.»

قال إيجناتيوس وهو ينزع الطابع عن الظرف ثم يُلصقه على زجاج النافذة: «أقبل إهانتك الأولى، ولكني أُعارض الثانية.»

وفجأة أطلق صرخةً رفيعة حادة.

وقال: «يحتوي الظرف على علامةٍ مميزة. ألا ترى ما يُشبه ثقب الدبوس في إحدى الزوايا؟»

قال القسيس: «ما عرفته أنه لم يُبع أي طابع بريدي عليه علامة مميزة.»

قال إيجناتيوس: «بِيع دفتر طوابع واحد لليدي دارسي. كانت السيدة رقم ٣ على قائمتنا. وهذا الطابع به ثُقب في موضع الرقم ٣.»

فرك القسيس عينَيه في حيرة.

وقال: «بالتأكيد أنتَ لا تتَّهم ليدي دارسي بكتابة رسالة بغيضة للسيدة بومفرت، أليس كذلك؟»

أجاب إيجناتيوس: «لا. إنها لا تُجيد هذا التفكير العميق.»

سأل القسيس: «فيمن تشتبِه إذن؟»

بينما ظل إيجناتيوس صامتًا، حدَّق إليه القسيس، ثم أشاح ببصره عنه.

سأل القسيس بفتور: «أتقصد ... جوان بروك؟»

وافقه إيجناتيوس وهو يعود إلى مقعده مرةً أخرى ويبدأ في دهن التوست بالزبدة: «لا يمكن أن يكون أحد سواها. جوان ليست السكرتيرة التي تقضي وقت فراغها في غرفتها تكتب خطاباتٍ على عجل بخطٍّ فوضوي. لا، إنها مثل الورد المُتعرِّش. تتجول هنا وهناك وفي كل مكان. لذا من غير المُحتمل أن تشتري طوابع لاستخدامها الخاص. ستسرق الطوابع البريدية، متى شاءت، من دفتر ليدي دارسي.»

شرع القسيس يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا.

وقال في شرود: «أنتَ لا تعتقد أن جوان كتبت هذه الخطابات أليس كذلك؟ لا أُصدق أنها دفعت عائلة سكودامور إلى الموت. لا يمكن أن تفعل ذلك.»

قال إيجناتيوس: «بل يُمكنها. لكني لا أتَّهمها بكتابة الخطابات. اجلس وأكمل فطورك.»

جلس القسيس، وحشر التبغ في غليونه بصورةٍ آلية، في حين واصل إيجناتيوس الحديث.

قال إيجناتيوس: «يجب أن أُفكر في جميع الاحتمالات. والآنسة بروك أحد هذه الاحتمالات. إنها فتاة ذات شخصية قوية، وإرادة غير عادية، وحُب للإثارة. تأكد أنها على وعيٍ بجاذبيتها، وتعتقد أنها تستحقُّ من الحياة معاملةً أفضل مما حصلت عليها. لذا قد تنفجر، على هذا النحو، وتشنُّ هجومًا شاملًا على الأشخاص الأوفر حظًّا منها، الذين يملكون ما حُرِمت منه. سيروقها الخطر الذي ينطوي عليه هذا الهجوم؛ لأنها ليست جبانة.»

نظر إيجناتيوس إلى القسيس نظرةً ذات مغزًى وهو يضيف: «تذكر أنها تعيش حياة غير طبيعية.»

قال القسيس بامتعاض: «لا. إنها مُستقلة ماديًّا ولديها وظيفة رائعة. هناك مئات الفتيات في نفس وضعها ويعشنَ حياة نافعة سعيدة.»

«هذا صحيح. لكن الآنسة بروك لديها لمسةٌ من الغموض تُحيط بشخصيتها وقدراتها تميزها عن بقية الفتيات. إنها تُهدِر حياتها في رعاية امرأة مُصابة باضطرابٍ عقلي ... كان يحسُن بها الزواج.»

نظر إيجناتيوس إلى القسيس بطرف عينَيه، مثل قزم خبيث، وهو يبتسم.

وقال: «أنتَ محظوظ. فلن تُضطَرَّ إلى مغادرة القرية الآن.»

وافقه القسيس قائلًا: «نعم. لكن — بعد ما حدث — لم يعُد الأمر يُهمني كثيرًا ... لقد أخبرتني أنك تريد عينةً من الخطاب. وقد حصلتَ عليه ... أين نقف الآن؟»

ردَّ إيجناتيوس: «ليس لدينا موقع واضح. نحن نترنَّح بين الاحتمالات. يجب أن يكون لديَّ دليل دامغ قبل توجيه الاتهام لأي شخص. ربما أُعطِي الطابع لشخصٍ آخر مصادفةً على سبيل الاستعارة. أريد ظرفًا آخر لمقارنته بالذي بين يدي.»

تنهَّد القسيس تنهيدةً طويلة إزاء تأجيل الاتهام.

وقال: «في غضون ذلك، ستظلُّ شكوكك تحوم حول جوان.»

أجاب إيجناتيوس: «لا، إنها بريئة حتى تثبت إدانتها. لقد تلقَّيتُ استجابةً سريعة جدًّا لمناشدتك، وقد يُحالفنا الحظ ونحصل على المزيد من الردود. لا يمكن أن تكون السيدة بومفرت صاحبة الضمير الحي الوحيد في المكان.»

واصل القس عبوسه.

وقال: «لا أستطيع ترك الأمور على هذا النحو. لا أطيق هذا التوتر. يجب أن أواجه جوان بالأمر. أعلم أنها جديرة بالتصديق.»

قال إيجناتيوس بلهجةٍ آمرة: «لا، لا بد أن تترك الأمر لي. ستُدمر كل شيء لو فعلت ذلك. تذكر تعهُّدك للسيدة بومفرت بالْتزام السرية ... كيف يُمكننا التواصل مع الآنسة بروك بصورة طبيعية؟»

اقترح القسيس: «يُمكننا زيارة ليدي دارسي بعد الظهيرة. سأتحدَّث مع السيدة، وأُتيح لك الفرصة لتستخلص المعلومات من جوان. لا خيار أمامي سوى أن أثِق بك. لا تُخيفها. وامنحها كل الثغرات لتبرئة نفسها ولا تحكم بالظاهر.»

اكتفى إيجناتيوس بالابتسام في سخرية. بعد ذلك، أقلَّ القس وكلبه المُلازم له إلى «ذا كورت»، بعد الظهر، بسيارته التي قطعت المسافة بسرعةٍ شديدة حتى بدا الاستياء واضحًا على تشارلز — الذي كان يتوقَّع أنهم ذاهبون في نزهة — وشعر أن هذا سوء استغلال لملكيته.

كان الطقس في ذلك اليوم حارًّا هادئًا، حيث وقفت الأشجار في الحديقة بلا حراك تحت المظلات الخضراء الداكنة، ورقصت أسراب الناموس في أشعة الشمس، فبدت مثل لفائف من الشاش البرونزي.

عندما وصلا إلى الرواق المُعمد للصرح الجورجي الضخم، المطلي باللون الأصفر الفاتح، خاب أملهما برؤية سيارة أخرى في المدخل. ولأنهما غافلان عن أيادي القدَر، لم يتخيَّلا أن زوَّار ليدي دارسي سيكون لهم دور كبير في استجلاء لغزهما.

تبين أن الزوَّار هم ابنتا عائلة مارتن من منزل «تاورز»؛ وقد تناهى إلى سمع القسيس وإيجناتيوس صوتهما قبل دخولهما لغرفة الجلوس. بدت السيدة دارسي ضائعةً تمامًا أمام وابل حديثهما الذي كانت تُمطَر به، وبذلت جوان — التي كانت تجلس في هدوء وترتدي فستانًا أبيض أظهر جسدها الذي سفعته الشمس فأضفت عليها جاذبية — قصارى جهدها في استعادة ليدي دارسي، وحمايتها من ضرباتهما المباشرة.

وحتى بعد انقطاع الحديث بوصول الرجُلَين، سيطرت الآنسة مارتن على الجو العام بإرادتها القوية وصوتها العالي. كانت هي وأختها مثلما توقَّع إيجناتيوس من وصف السيدة سكودامور لـ «التواضع» بالمقارنة بالثراء؛ فقد كانتا لطيفتَين وصريحتَين حدَّ الوقاحة.

اقتصر حديثهما على أسفارهما أو بالأحرى على موضوع خاص يرتبط بأسفارهما.

قالت إحدى الفتاتَين: «العرب لصوص بشِعون. يرفعون أسعار كل شيء. والقاهرة عتيقة وبالية للغاية. تكتظُّ بالسائحين ولا توجَد بها رائحة التخفيضات. لكن الصينيين أكثر أمانة بعض الشيء. اشترينا بعض الأوشحة الرائعة بسعرٍ زهيد من مدينة كانتون، أليس كذلك يا كون؟ ... إيطاليا دولة جميلة. سماؤها زرقاء رائعة ليست كهذه. كدنا نشتري متجرًا قرويًّا بأكمله. إنهم لا يعرفون قيمة بضائعهم. أما روما فلا يوجد بها شيء باستثناء المعالم السياحية.»

وافقت كونستانس مارتن أختها في كل ما قالته، وأضافت بعض المعلومات التفصيلية، حول كيفية الحصول على صفقة جيدة.

قالت الآنسة مارتن: «نريد رؤية الحدائق، وسنرحل بعدها على الفور. سنرد جميع الزيارات في يومٍ واحد حتى ننتهي منها بسرعة.»

قالت كونستانس: «أجل، لقد قدِمنا للتوِّ من «سباوت». تبدو السيدة العجوز كأنها تنهار أخيرًا.»

اندهش الجميع بعض الشيء من هذا الوصف للقديسة الخالدة أسبري. حينئذٍ قاطعت جوان نظرة سريعة تبادلها إيجناتيوس والقسيس. وبينما كان الرجلان يستعدَّان للمغادرة طرحت جوان سؤالًا.

قالت: «أخبرني، يا أبتِ، إلى أي مدًى تتحمَّل الزهور التي وضعتها في المذبح الحرارة؟»

أجاب إيجناتيوس بسرعة: «إنها تسقط أوراقها في كلِّ مكان.»

«كنت أشك في قدرة الجريس الأبيض على الصمود. سأجلب بعض الزهور الجديدة في المساء».

تذمَّر القسيس والسيارة تجتاز الحديقة في طريق العودة: «أهدرنا فترة ما بعد الظهيرة بلا جدوى.»

قال إيجناتيوس: «لا أظنُّ ذلك. إن شخصية الآنسة بروك تُثير فضولي. ما مدى ذكائها بالضبط؟ أكانت هذه حركةً ذكية منها كي تؤمِّن لنفسها ملاذًا آمنًا؟»

«كيف أدركت أننا سنُحقق معها؟»

أجاب إيجناتيوس: «ما كان عليها سوى أن تنظر إليك لتعرِف أن ثمَّة ما يدور في ذهنك. كما أنها تعلم هوَسك الخاص. إنها أذكى منك. لكن هل هي أذكى منِّي؟»

كان إيجناتيوس يقِف حارسًا عند بوابةِ بيت القسيس، في مساء ذلك اليوم، عندما أُبلغ القسيس بوصول جوان إلى الكنيسة. وبعد دقائق معدودة، دخل الرجلان المَبنى القديم من الباب الغربي. وفور أن رأتْهما جوان، تركت مكانها على الدرج الذي يقود إلى المذبح، واتَّجهت نحوهما.

قالت وهي تُومئ ناحية المزهريات: «انتهيتُ من تنسيق الأزهار.» بعد ذلك التفتت إلى القسيس مباشرة. وسألته: «لن ترحل عن القرية، أليس كذلك؟»

أجاب القسيس بجدية: «ليس الآن.»

قالت جوان: «أوه ... هل أرسل لك أحد شيئًا؟ ما هو؟ خطاب مجهول أم مجرد الظرف؟»

أجاب: «الظرف ... هل تعرفين شيئًا عن الأمر؟»

هزت جوان رأسها نافية، وضحكت بخفَّة.

«ومن أين لي أن أعرف؟ إلى من أُرسِل الخطاب؟»

«لا يُمكنني إخبارك.»

«حسنًا. تريد أن تسأل وأنا أجيب. آسفة. لا يُعجبني ذلك.»

لاحظ إيجناتيوس قلة حيلة القسيس أمام ابتسامتها الساخرة. فتدخَّل في تلك اللحظة، وكانت عيناه فاحصتَين، وشفتاه قاسيتَين مثل سلك ملتوٍ. أجبرت ملامحه جوان على التزام الجدية ونظرت إلى الوجه عديم الرحمة أمامها. قال إيجناتيوس بصوتٍ حادٍّ كالسوط: «لقد قادنا الخطاب إليكِ يا آنسة بروك.»

كررت جوان: «أنا؟» وكان صوتها هادئًا، لكن بدا الحذَر عليها جليًّا. وقالت: «كيف ذلك؟»

«من طابع البريد.»

«ما زلتُ لا أفهم؟ هل أخبرك الطابع بشيء؟»

«أجل، كان يحمِل علامة مميزة.»

«هذا مُثير للاهتمام؛ لأنني لم أشترِ أي طوابع منذ أن أتيتُ إلى هنا. أنا لا أكتب رسائل على الإطلاق.»

«كيف تتواصلين مع عائلتك وأصدقائك إذن؟»

«أتَّصل بهم وأتحدَّث معهم عبر الهاتف.»

قال إيجناتيوس بنفاد صبر: «كفى يا آنسة بروك. هل تتوقَّعين مني أن أُصدق أنكِ لم تكتبي ولو رسالة صغيرة على الأقل؟»

قالت: «لا أفعل ذلك إلا بشكلٍ عارض. لذا آخُذ أحد طوابع ليدي دارسي. فهذه من امتيازات السكرتيرة كما تعلم. أليس هناك مَثَل عن عدم تكميم فم الثور الدارس أو شيء من هذا القبيل؟»

عندما أدلت جوان باعترافها القاتل، ألقى إيجناتيوس نظرةً على القسيس، ورأى كيف كان وقع الكلام عليه ثقيلًا كأنه تلقَّى ضربة قوية. في تلك اللحظة، أخذته الشفقة بالفتاة التي كانت تعتقد أنها أثبتت براءتها بثقتها الزائدة. وكاد يُوجِّه لها مزيدًا من الأسئلة لولا أن قاطعه القسيس.

«هذا يكفي. لستَ المدعي العام.»

لانت نبرة صوته والتفت ناحية جوان.

وقال: «أتساءل إن كنتِ ستغضبين إن وجَّهتُ إليكِ سؤالًا يا جوان. مهما كان جوابك، سأُصدقك. وسيُغلق هذا الموضوع للأبد.»

فتحت جوان فمها عفويًّا لتقول شيئًا ثم تردَّدت. لاحظ إيجناتيوس تسارُع أفكارها عندما ضغطت على أسنانها بإصبعها قبل أن تنظر إلى ساعتها.

قالت: «بالطبع سأُجيب على أي سؤالٍ ما دام لا يتعلق بعمري الحقيقي. لكن أوجِز في الكلام؛ إذ يجب أن أعود إلى «ذا كورت» لأكمل مجموعةً من أربعة لاعبين استعدادًا للعب البريدج بعد العشاء. لذا يجب أن أتعجَّل في الرحيل. إذا صحبتني إلى الخارج، بينما أرمي هذه في فتحة الموقد، فسيوفر ذلك بعض الوقت.»

عندما حمل القسيس سلتها الفارغة، انتزعت باقة الزهور الميتة وركضت خارجة من الكنيسة باتجاه مبنى الموقد. اتَّبعها إيجناتيوس كي يعرض عليها المساعدة، لكنها شِبه دفعته بعيدًا وهي تصعد الدرج الصغير وتواجِه القسيس.

سألت جوان: «ما سؤالك؟»

نظر القسيس في عينَيها الصافيتَين نظرة فاحصة.

وسأل: «هل كتبتِ خطابًا مجهولًا؟»

نظرت إليه جوان بثباتٍ دون أن يرفَّ لها جفن. وأجابت: «لا. أبدًا.»

أجاب القسيس: «أشكرك.» وحبس أنفاسه. وسألها: «هلا تُسامحينني؟»

قالت: «لم ترتكِب ما أُسامحك عليه. ولستَ بحاجةٍ للاعتذار. أعطِني السلة. أشكرك. إلى اللقاء يا أبتِ. أنا سعيدة لأنك لن ترحَل عن القرية.»

لم تولِ جوان أدنى اهتمامٍ لإيجناتيوس الذي كان يرمُقها بابتسامة عريضة ساخرة.

قال إيجناتيوس بعد أن خرجت جوان من فناء الكنيسة بخطواتٍ واسعة: «تُعجبني تلك الفتاة. لم أسمع كذبةً مقنعة كهذه من قبل.»

كرر القسيس: «كذبة؟»

أجاب إيجناتيوس: «بالطبع كذبة. ألم تلحَظ واقعةً مُهمة؟ ألم يلفت انتباهك أنها فور أن أدركت أن أمرها أوشك أن يفتضح، لم تسمح لك بطرح هذا السؤال داخل الكنيسة؟ لقد انتابها ما يُشبه الاشمئزاز الروحي أو خوفٌ وهمي من أن تُقتَل في مكانها بسبب شهادتها الكاذبة.»

قال القسيس بغضب: «لن أُنصِت إلى هذا الافتراء.»

قال إيجناتيوس: «حسنًا، حسنًا. لكنها اختلقت مسألة فوهة الموقد. لم تشتعل النار في مبنى الموقد منذ فترةٍ طويلة، كما لم تُستخدَم حاوية للقمامة.»

ساد صمت طويل بينما كان القسيس يستوعِب الحقيقة تدريجيًّا.

سأل القسيس بصوتٍ خفيض: «ماذا أفعل؟»

أجاب إيجناتيوس: «لا شيء. بعد تلك الكذبة، أمتنع عن الحُكم على الآنسة بروك. أريد مزيدًا من الأدلة للإمساك بها، مثل نموذج آخر من الخطاب المجهول.»

أشرق وجه الرجل الضخم إشراقةً مفاجئة تشي بمدى تشبُّثه بكلمات صديقه الضئيل.

سأل إيجناتيوس: «هل تُصدقها؟ أم استيقظتَ من حلمِك؟»

أجاب: «لا يُهم. أنا أثق بها.»

لم يتحدث القسيس في أثناء تناول العشاء تقريبًا. وفي منتصف الوجبة، هبَّ واقفًا على قدمَيه فجأة، ووضع صحنَه على السجادة.

ونادى: «تشارلز، عشاؤك. أيُمكنني أن أستعير سيارتك يا إيجناتيوس؟»

الفصل الثامن والعشرون

# الرفقة

لم يرَ إيجناتيوس القسيس مرة أخرى، حتى صباح اليوم التالي، حينما جاء لتناول الفطور وهو لا يزال به أثر النعاس.

سأله إيجناتيوس بفضول: «متى عُدت إلى المنزل؟»

«في وقتٍ متأخر جدًّا من الليل. أشكرك على السيارة. خرجتُ بها في نزهة ليلية.»

«أظنك كنتَ ذاهبًا إلى «ذا كورت»، أليس كذلك؟»

«بلى، ذهبت.»

«حسنًا ... هل أُهنئك؟»

غضب القسيس من السؤال.

وسأل: «ألا ترى أنك ذهبتَ في تماديك كل مذهب؟»

ردَّ إيجناتيوس: «ربما. لا أُريدك أن تشاركني أسرارك ... أعطِني المربَّى فحسب ... أشكرك ... خذ راحتك.»

ابتسم القسيس بكآبة.

قال: «أرى أن استنتاجك منطقي. أخبرتُك أنني أثِق في جوان، لذا من البداهة أن أحاول إثبات براءتها بالطريقة الوحيدة المُمكنة. لكن ... وصلتُ إلى طريق مسدود.»

لم يكن إيجناتيوس يندهش عادة، لكن القسيس نجح في جذب انتباهه هذه المرة. كان إيجناتيوس يعلم أن جوان تطمح إلى الشعور بالأمان، وأن لدَيها مشاعر قوية نحو القسيس، إلا أنه لم يستطِع تصديق خبر رفضها الزواج منه.

قال القسيس: «تحُول هذه الرسائل اللعينة دون زواجِنا. لا أُحب الخوض في شئوني الخاصة مع الآخرين، ولا حتى معك، لكن المسائل يرتبط بعضها ببعض. لقد عرضتُ على جوان الزواج الليلة الماضية على اعتقاد أنها ستقبَله. لكنها غيَّرت رأيها فجأة.»

سأل إيجناتيوس بلهفة: «كيف؟»

أجاب القسيس: «قالت إنه حتى العثور على كاتب الرسائل فستظلُّ الشكوك تحوم حول جميع سكان القرية، لا سيما هي حسبما يبدو. ومهما أقسمتُ على ثِقتي في براءتها، لم يُثنِها ذلك عن رأيها، لأنها رأت ضرورة إثبات براءتها أولًا. وتعلَّلت بأنه بعد زواجنا، إذا حدثت مشكلة، فسأتذكر هذه المسألة وأشكُّ فيها.»

اشتعل وجه إيجناتيوس النحيل حماسة.

هتف: «يا لها من فتاةٍ ذكية! تُريدك كلَّك لا جزءًا منك. إنها عازمة على الاستحواذ عليك تمامًا.»

ردَّ القسيس: «إن كانت كما تقول فهي تُعبر عن ذلك بطريقة غريبة.»

قال إيجناتيوس: «لا، يا تيجر، هي مُحقة. سيأتي ذلك اليوم الأسود حين يحملك الشيطان على الشكِّ فيها. حسنًا، أرى أنه لا بدَّ لي من استجلاء هذا اللغز، مكافأة لها على شجاعتها ورغبتها في التملك.»

قال القسيس في ملل: «أعترف أنني لا أعرف موقفنا الحالي على الإطلاق. هل يجِب أن نطلب مساعدة الشرطة بعد كلِّ ما حدث؟»

«من الأفضل أن تستشير العمدة. لكن أريد أن أُحذرك من خطورة هذه الخطوة. فستنصب الشرطة فخًّا محكمًا لا يُشبه ما أعدَّتْهُ مديرة البريد الضئيلة الخاصة بكم.»

لاح الخوف القديم في عيني القسيس عند ذكْر مسألة الفخ.

وراح يحثُّ إيجناتيوس على الكلام قائلًا: «أفصِح عما في نفسك. فيمن تشتبه؟»

أجاب إيجناتيوس: «إنهما شخصان، أحدهما الآنسة بروك. أعترف أنني أميل للاختيار الثاني من مُنطلقٍ نفسي. لكن لا أزال في حاجة إلى نموذج آخر من الطابع البريدي لإثبات صحة فرضيتي.»

سار القسيس عبر طرقات قريته المحبوبة بقلبٍ مُثقل بالهموم. كان الجو صافيًا كأنه ينظر إلى الحدود الخضراء البارزة لتلال داونز البعيدة عبر مسطحٍ مائي رائق. زخرت حدائق الأكواخ بالزهور. كان موسم الصيف يمدُّ يدَه ليُلامِس أنامل موسم الخريف حتى يتشاركا في عطاياهما. ونمَتْ زهور الداليا وعباد الشمس والخطمي والقبس جنبًا إلى جنبٍ مع زهور الثالوث والقرنفل والأذريون وحنك السبع.

جعلت مظاهر الجمال الوفيرة، في ظلِّ مزاجه الكئيب، الواقع المخالف أكثر حدَّة. حتى الموت، في الأيام الخوالي، كان يحترم طابع القرية المُتأنِّي؛ إذ لم يقُم بزيارة رسمية لأيٍّ من سكان القرية دون أن يطرق الباب أولًا.

لكن، في غضون ثلاثة أشهر، أُزهقت أرواح ثلاثة من أبرز شخصياتها بلا رحمة. تُرى من سيكون التالي؟

طرأت هذه الفكرة في ذهن القسيس، وإذا بشخصٍ مألوف كان يقف عند النصب التذكاري للحرب، يقطع البساط الأخضر المُرقَّط بأشعة الشمس، ويسير بجواره.

قَبِل القسيس صُحبته أمرًا مُسلَّمًا به، دون أن يُخالجه ذلك الخوف الشديد الذي اعتراه عندما لمح شبحًا أسود، أول مرة، يترصَّده ويُلاحقه.

لم يعلم القسيس حينَها أنه يسير بصحبة الخوف، إلا أن تيار أفكاره كان يسير في منحنًى سوداوي. انشغل فكرة بالقبور الثلاثة الجديدة في فناء الكنيسة، وتساءل عن موعد الوفاة التالية.

كانت القرية مُشبعة بروح المكيدة تحت الغطاء الجميل الذي يُغلفها من الخارج.

كانت ثمة سلسلة سرية من الخطابات تنتقل من بابٍ لآخر، ولكنه لم يرَ منها سوى حلقةٍ مكسورة من حينٍ لآخر. لقد اشترك الجميع في المؤامرة إما على نحوٍ مباشر أو غير مباشر.

لقد تغيَّر المكان نفسه. كانت المروج مُقلَّمة وأسيجة الزهور كثيفة؛ لكن لم تعُد حفلات الحدائق تُقام كل أسبوعَين كالمعتاد، ولم تُستخدَم مضارب التنس أو الكروكيت إلا في المباريات العائلية فحسب.

مَن المسئول عن ذلك؟ عندما طرح السؤال، همس الخوف في أذنه بعدَّة أسماء محددة.

أبعدت فيفيان ابنة العمدة القسيس عن طريقها ببوق سيارتها بينما كانت تُقلُّ الميجور بلير إلى «ذا هول». ابتسم لها القسيس ابتسامةً عريضة تحيَّةً لها، حاول أن يبثَّ فيها تهانيه على خطبتها، لكنها تجمَّدت على شفتَيه باستجابتها الباردة له.

لم يرَ القسيس على وجه الفتاة أي قدْر من الإشراق المتوقَّع رؤيته على وجه عروس مُستقبلية. كانت ترتدي قبعةً محبوكة بيضاء، وبدا وجهها المتورد، الذي كشفت عنه حافة القبعة التقليدية، أصغر من المُعتاد كأنها انكمشت من فرط شعورها بالقلق.

تساءل القسيس في نفسه: «الندم؟ أهو أنت؟»

لقد شخَّص الطبيبُ كاتبَ الخطابات بأنه مُضطرب نفسيًّا، وذكَّره الخوف بتوافر جميع مقومات هذه الحالة المرضية في سكان «ذا هول». فقد كان العمدة يقهر زوجته وابنته؛ لذا ربما دفع إحداهما إلى التنفيس عن نفسها بهذه الطريقة الملتوية.

بعد ذلك انتقل الخوف إلى فرضيةٍ أخرى أكثر إثارة.

كان العمدة، في النهاية، تجسيدًا لشخصية جون بول بكل فضائله الوطنية، في حين كان «ذا هول» نموذجًا نمطيًّا للحياة الأسرية الإنجليزية. لهذا من المُرجَّح أن تكون سعادة عائلة العمدة وثراؤها قد أثارا غيرة شخصٍ حُرم تلك المميزات لسوء حظه. شخص يرى أن سماته الشخصية الجذابة تخول له انتظار معاملة أفضل من الحياة.

لا شك أن فيفيان صارت، منذ خطبتها، محط أنظار الحاسدين أكثر من ذي قبل. ولو أنها صارت ضحيةً أخرى لا مُتهمة، لكان خفوت بريقها مسوَّغًا.

هتف القسيس: «لكني أَثِق في جوان. لِمَ ستحقد على فيفيان وهي قد رفضت خطبتي لها؟»

فسَّر الخوف بالتفصيل سبب قيامها بهذه الحركة. لقد أتت بهذه الحركة الجريئة لإبعاد الشك عنها. لأنها كانت في موقفٍ صعب. فقد انتهى الطابع البريدي عندَها بعد تتبُّعه كما أنها كذبت عن عمدٍ.

لكن لا يزال سبب إقدامها على الكذب مُبهمًا. ربما كان ذلك جزءًا من سياسة إيجناتيوس، أن يجعلها تعتقد أنها بعيدة عن الشك، فتندفع إلى ارتكاب حماقةٍ أخرى. خطوة خاطئة أخرى، وستهوي إلى المُستنقع.

لم يكن بمقدوره الثقة بإيجناتيوس. فلم يعهده سوى رجلٍ غريب الأطوار ذي ثروة طائلة جعلت منه صديقًا نافعًا في أثناء دراستهما في الجامعة. كيف للمرء أن يعرِف ما يعتلج في صدر غيره؟ ربما كان إيجناتيوس يشعر بالحقد والملل من حياته المُحبِطة.

ملأ الخوف نفس القسيس برغبة عارمة في توجيه ضرباتٍ عشوائية للصديق والعدو. فلم يعُد يستطيع التفريق بينهما في ظلِّ ذلك الكابوس المُضلِّل. كان كمن سقط في هوةٍ سحيقة من الحيرة والضياع.

إذا دعا العمدة لاستدعاء الشرطة فسيُشغِّل ماكينة تعمل بدقة لا هوادة فيها. وإذا اعترضت جوان سبيلها، فسيُلقى القبض عليها وينتهي أمرُها. فلا جدوى من المجادلة مع المعدن، أو مِن طلبِ الرحمة من إنسانٍ آلي.

كانت الشمس ساطعةً إلا أن القسيس شعر بالبرد. سرَت في جسده قشعريرة، عندما نكزه الخوف في أضلُعه بأنامل باردة، فقط ليظهر للعالَم أنهما على وفاقٍ لا أكثر.

حدَّث القسيس نفسه: «إذا لم أفعل شيئًا فسيوجِّه العدو ضربةً جديدة في القريب العاجل. ستقع مأساة أخرى. سيُحفَر قبر آخر.»

توقف القسيس أمام كوخ تيودوري الطراز، في حين كانت الآنسة أسبري تجتاز ممشى حديقتها في عظمةٍ وشموخ. وقبل أن يتمكَّن من تقديم رفيقه المُثير للاهتمام إليها، أبصر الخوف — بعد أن تعرَّف على الآنسة أسبري — امرأة داكنة البشرة تسير على العشب، وأسرع يرافق ماريان بيري كفارسٍ شهم.

تأمل القسيس ملامح الآنسة أسبري المُتعبة الشاحبة، وشعر بانفراجةٍ مفاجئة في صدره.

سألها القسيس: «أكنتِ تزورين هاربر؟»

أجابت الآنسة أسبري: «بلى. جاءه الطبيب بيري لذا غادرت. التقَينا بجوار فراشه وتجادلنا كالعادة. إنه رجل رائع لكنه يؤمِن بالمادة مثل معظم الأطباء. ولن يعترف بالدور الذي تُساهم به الروح في صحَّة الجسد.»

«أظن ذلك يعتمد على نوعية المرض.»

«هذه هي وجهة نظري. بالطبع شرحتُ مبادئ التغذية والتهوية للسيدة هاربر، وشدَّدتُ على تنفيذ تعليماتي بدقة. لكن روح هاربر مريضة وشفاؤها في الصلاة.»

لم يستطع القسيس مُعارضتها؛ إذ عرَّضته خبرته الواسعة لحالاتٍ مرضية خاصة استعصت على الأدوية.

قال القسيس: «أنتِ أفضل من يُقدم له العلاج الروحاني. تجعلينني أشعر بالانتعاش دائمًا.»

سألت آنسة أسبري دون أن تبتسِم: «حقًّا؟ في الآونة الأخيرة، تساءلت إن كانت قدراتي قد بدأت تضمحِل. لم تعد إرادتي تفرض سيطرتها مثلما كانت في السابق.»

قال القسيس: «يمكنكِ السيطرة عليَّ دائمًا.»

أشرق وجه الآنسة أسبري مكافأةً له على مُجاملته. وودَّعته بإيماءةٍ وقورة من عنقها الرشيق، قبل أن يصِل الطبيب بيري إلى البوابة.

علَّق الطبيب باستخفاف: «اللعنة على هذه المرأة القديسة. لقد تغلَّبت عليَّ مرةً أخرى. كانت عائلة هاربر تفرغ الدواء الذي وصفتُه في البالوعة.»

سأل القسيس: «ما خطب هاربر؟»

أجاب الطبيب: «ها أنت الآن تتعدَّى على تخصُّصي يا أبتِ. كل ما يمكنني أن أقوله إن لدَيه صُحبة جيدة؛ إذ يشتكي من نفس ما يشتكي منه العمدة. لكنني منحتُ حالتهما المرضية اسمَين مختلفَين من باب التمييز بين فواتيرهما.»

سأل القسيس دون تفكير: «وكيف حال العمدة؟»

أجاب الطبيب: «وأنَّى لي أن أعرف؟ فهو ليس مريضي.»

قال القسيس: «آسف يا بيري، نسيت. لكن لا يبدو في صحَّةٍ جيدة. إنه يفتقدك.»

قال الطبيب: «على العكس، إن طبيبه الخاص أعلَمُ منِّي بكيفية علاجه، على الأرجح. ما يعجز عنه هو مجاراته مثلما كنتُ أفعل.»

تحرك قلب القسيس بذلك الإعجاب القديم، رغم ما وقع بينه وبين الطبيب من قطيعة. اتَّسم هدوء الطبيب بالطمأنينة والثبات. كانت تعلوه سحابةٌ من الشبهات المُبهمة حول محاولته لكسب ودِّ إحدى مريضاته، بهدف الحصول على أموالها، إلى جانب الاشتباه العام الذي ناله بالإهمال في إعطاء مريضةٍ دواءً منومًا. كانت عواقب الأمر جيدة جدًّا بالنسبة إليه، وفي ظلِّ زيادة دخله من هذا الإرث، شعر سكان القرية بشيءٍ من الخوف من خدماته المِهنية.

لكن عندما كانوا يلتقون به شخصيًّا كانت الولاءات القديمة ما زالت قائمة. مدَّ القسيس يد الصُّلح دون أن يتروَّى في الأمر.

سأله: «لِمَ توقفتَ عن زيارتي في المساء؟»

أجاب الطبيب: «لديك مُحققك الخاص يا أبتِ العزيز. وقد أُعطِّل سير عمليات التحقيق الحسَّاسة.»

مرَّت في ذهن القسيس تلك الذكرى الخاطفة لواقعة الطوابع المميزة. وعلى ما يبدو لم يكن سريعًا بالدرجة الكافية في مساعيه لإخفائها.

قال القسيس: «أنت تقصد إيجناتيوس براون. لكنه يُحبك.»

قال الطبيب: «أشكرك على التلميح. سألتزم الحذَر الآن.»

قال القسيس: «حسنًا، إذا لم ترغب في القدوم، فلا بأس من تجاذُب أطراف الحديث مرةً أخرى. أتمنَّى لو تُخبرني إذا كنت تعتقد أن الآنسة أسبري بدأت تفقد السيطرة على نفسها.»

أجاب الطبيب بلا اكتراث: «لا. ستعيش للأبد.»

قال القسيس: «ممتاز. وكيف حالك يا دكتور؟»

أجاب الطبيب: «مُمتازة، أشكرك. الأسرة تكبر، والأمور على أفضل ما يكون.»

قال القسيس: «أنت محظوظ ... هل تتذكَّر عندما حذَّرتني من وجود أماكن مُظلمة، حتى هنا؟ لم أُصدِّقك حينها. لكن منذ ذلك الوقت ...»

وحين سكت عن الكلام، أكمل الطبيب عبارته.

«منذ ذلك الوقت، صارت الأمور أكثر تشويقًا. على ذِكر ذلك، ما رأي الآنسة بروك في مسألة خطبة فيفيان؟ بالنسبة إليَّ، أجد الأمر مُسليًا. تبدو مشغولة الذهن بعدما حقَّقت أقصى ما كانت تطمح إليه.»

سأل القسيس في جرأة: «أنت لا تُحبها، أليس كذلك؟»

قال الطبيب: «الجميع يعلم أنني كنتُ مولعًا بها في الماضي. لذا قد أكون في المرحلة الثانية من الصداقة. يجب أن أرحَل. إلى اللقاء يا أبتِ.»

سار الطبيب إلى منزله بخطواتٍ وئيدة. وعندما مر أمام النوافذ الخالية لمنزل «ذا كلوك» نظر إليها نظرة متأمِّلة.

وقال في نفسه: «أتساءل إن كان المخرج الذي اختاراه قد حظي بالنجاح المتوقَّع. لا بد أن الفناء يجلب الراحة. حسنًا، على الأقل وجدا حلًّا لمشكلتهما.»

ودفع بوابة منزله ليفتحها، ثم أخذ خطوتَين للوراء، عندما رأى زوجته تندفع للقائه. لقد علَّمته التجارب المؤلِمة أن يربط بين اندفاعات زوجته العاصفة للترحيب به وبين الطلبات الجديدة.

كشفت له نظرته السريعة الأولى أن ماريان في حالةٍ من القلق الشديد؛ نتيجة عشر دقائق أمضتها في صُحبة غريب قاتم. كان الخوف في مزاجٍ اجتماعي في ذلك اليوم؛ إذ أصرَّ على مرافقة السيدة إلى منزلها، لرؤية طفلَيها الساحرَين الوسيمَين. وقد استغلَّ تلك الفرصة أيما استغلال.

لقد انقضَّت ماريان على الطفل الأكبر وفحصته في هلع، واكتشفت أنه يُعاني من تسمُّم في الدم الإنتاني. هذا ما ألمحت إليه المُمرضة الخبيرة على الأقل؛ لأنها أكدت مرة أخرى على فوائد زيارة ساحل البحر.

لكن ما حدث حقًّا أن ميكي لدغته حشرة، اختارت ألا تكشف عن نفسها، تماشيًا مع الجو السائد في القرية. كانت الحشرة تعلَم أنها مجرد حشرة ذليلة، وأن لدغتها لا يمكن أن تُحدث أي ضرر.

لكن ميكي كان مثابرًا بطبيعته، ولم يُضِعْ وقتًا. كان لميكي بشرة شاحبة حساسة، استجابت لحكِّه القوي، فحصل على نتائج ممتازة مباشرة. ودخلت أمُّه في حالةٍ شبه هيستيرية عندما رأت بشرته المُلتهبة.

صرَّحت المرضة: «لقد لدغته بعوضة. ألم تلدغك حشرة طائرة شقية يا عزيزي؟»

صحَّح ميكي قائلًا: «لا. بل فأر.»

كان قد تعلَّم كلمة «فأر» منذ فترةٍ قصيرة ويحاول استخدامها. صرخت ماريان، ثم رأت زوجها يفتح بوابة المنزل.

صاحت: «هوريشيو! اذهب إلى ميكي على الفور.»

فحص الطبيب بيري ذراع الطفل بتأنٍّيه المُعتاد، ثم حمله إلى العيادة بِصمت.

قال لزوجته بنبرةٍ جادة: «أحضري لي ضمَّادتَين جراحيَّتَين كبيرتَين.»

سألت بصوتٍ واهن: «أنت ... أنت لن تُجري له عملية جراحية، أليس كذلك؟»

أجاب: «سترَين ما سأفعله لإنقاذ حياته.»

تسلَّل شبح ابتسامةٍ إلى شفتي الطبيب، وهو يضع مُستخلص «ساحرة البندق» على ذراع ميكي، قبل أن يلفَّ يدَيه الاثنتَين بالضمَّادات، فشعر الطفل بالبهجة.

قال الطبيب: «لا تنزعي الضمَّادات حتى يختفي الالتهاب. سيهدأ التهيُّج قريبًا لأنه لم يعد قادرًا على حكِّ بشرته ... وأنتِ أيتها المُمرضة، قلِّمي أظافره. لا أعتزم أن أجعل ابني مثل الماندريين الطويلي الأظافر.»

بعدما غادرت المرأة الغرفة في حالة صدمة، وهي تحمل ميكي، التفتت ماريان إلى زوجها.

قالت: «لماذا تحدَّثت إليها على هذا النحو؟ هذه إهانة واضحة.»

ردَّ الطبيب: «بلى، لكن هل ستفهمها؟ هلَّا منحتني أي أمَلٍ في ذلك؟»

كانت كلماته شرارة اندلاع العاصفة؛ إذ انهالت عليه ماريان بالتوبيخ والإساءات. لم يحاول الإنصات إليها ولا مُجادلتها، كان كل ما يشغله هو الإزعاج والضوضاء فحسب.

وبنفس اللامبالاة، نظر إلى زوجته، وأدرك أنها — إذا ما تجرَّدت من جاذبيتها ورصانتها المختلفتَين — مجرد امرأة نحيفة تُلوِّح براحتي يدَيها الغائرتَين المبسوطتَين.

كان الطبيب مغرمًا بأطفاله، ويُحب زوجته حبًّا جمًّا؛ لكن شعوره بالسلام والطمأنينة كان جزءًا لا يتجزأ من سعادته. ربما كان سيرضى كامل الرضا مع زوجة تَبرُز عروقها من تحت بشرتها البيضاء كالحليب مثل فيفيان، أو يقبَل بثاني أفضل اختيار، وهو أن يظلَّ أعزب وحياته خالية من الفوضى.

قالت ماريان في انفعالٍ شديد: «أنتَ غير جدير بالأبوة.»

بدا سكوت الطبيب علامة تأييدٍ لكلامها. لكنه في الواقع، كان يرى أمامه وجهًا أحمر مرحًا وعينَين باسمتَين تحت شعرٍ رمادي معدني كثيف. كان قلبه يعتصر شوقًا لصديقته جوليا كورنر.

كانت ستُساعده في اجتياز هذه الأزمة، لا بمالها فحسب — إذ حوَّلت الاقتراض إلى مجرد رابط آخر من روابط الصداقة — وإنما بسماحة نفسها وتعاطُفها، وذكائها الشديد المؤثر الذي لم يكن يعرفه أحد سواه.

لكن جوليا في قبرها الآن. كم هي محظوظة!

وبينما كان الطبيب يفكر في خواء الفَنَاء ونعمائه بحُزن وحنين، أعاده تعليق عابر إلى العيادة، حيث كان وابلٌ من أشعة الشمس ينهمِر إلى الداخل من السقف الزجاجي.

قالت ماريان بحدة: «أجب يا هوريشيو. اسمح لي باقتراض المال الذي نحتاجه لذهاب الأطفال في عطلةٍ إلى الشاطئ من السيدة زوجة العمدة. إنها امرأة بالِغة الكرم، وستُقرضني إيَّاه، عندما تعلم بظروفنا.»

لمعت عينا الطبيب وسط وجهه الشاحب، وفجأة اهتز صوته المُنخفض من فرط الانفعال.

قال: «إيَّاك يا ماريان والحديث عن شئوني الخاصة مع أي شخصٍ في القرية.»

«لكنك اقترضتَ من السيد سكودامور.»

قال الطبيب: «كان ذلك ضدَّ إرادتي تمامًا. لكنه كان مُحاميَّ الخاص وصديقًا قديمًا لي. بالإضافة إلى أنني كنتُ أطلب منه دفعةً مقدمة من ميراثي لا أكثر ... لكنني لن أسمح بأن أجعل مشكلاتي المالية مشاعًا للعامة. أتفهمين؟»

قالت ماريان: «أجل. أفهم أنك ستُضحي بأطفالك من أجل كبريائك السخيفة. ولن أعِدَك بشيء. ولا أكترث إذا تركتني وذهبت إلى امرأتك الأخرى.»

لم تكن جادةً في كلامها، وشعرت بارتباكٍ شديد عندما كرَّر كلماتها.

«امرأتي الأخرى؟ انتبهي إلى كلامك. فقد آخُذه على محمل الجد.»

حاولت ماريان أن تضحك، لكنها جفلت عندما رأته ينظر إليها بثبات.

قالت بتوسُّل: «لا تنظر إليَّ هكذا يا هوريشيو. أنتَ تُخيفني. لن أتفوَّه بكلمة واحدة، أعدك ... كدتُ أُصدِّق أنك ... قبِّلني يا حبيبي. أخبِرني أنه ليس هناك امرأة أخرى في حياتك.»

ولفَّت ذراعيها حول عنقه بإحكام، حتى كادت تخنقه من شدة ضغطها عليه؛ لكنه لم يرَ الشفتَين اللتَين قبَّلهما.

كانت عيناه محجوبتَين بقبرٍ حُفر حديثًا.

قال: «إذا كانت هناك امرأة أخرى، تذكَّري هذا: إذا دفعتِني إلى فراشها فلن أُغادره أبدًا.»

الفصل التاسع والعشرون

# السخي

مرَّت الأيام، دون أن تأتي بأدلة أخرى على ثقة الرعية بقسِّيسها فازداد غمًّا فوق غمِّه. أحسَّ أن كل فردٍ في القرية إما أنه ينتظر جاره أن يقوم بالتضحية بالنيابة عنه، أو يفضل أن يخسر القسيس في القريب العاجل على أن ينتهك خصوصيته الجوهرية.

ولم يجد ما يفعله سوى أن ينتظر ويُسرِّي عن نفسه بالتفكير في احتمالية أن يكون إيجناتيوس قد أخطأ في فرضيته، بشأن الإرسال الجماعي للخطابات المجهولة.

انزعج إيجناتيوس، أيضًا، من هذا التعطيل. وذات صباح، فاجأ القسيس بفكرةٍ جديدة.

سأل إيجناتيوس: «هل سافرت الآنسة ماك من قبل؟»

أجاب القسيس: «ما أدراني؟»

«هل تعتقد أنها قد تُحب القيام برحلة قصيرة إلى القارة الأوروبية؟»

«أظن ذلك.»

أضاف إيجناتيوس: «إذن ما رأيك في أن ندعوها إلى واحدة؟ أشعر أنني أريد أن أبسط يدي هذه الأيام.»

نظر القسيس إلى وجه صديقه الخالي من التعبير، ولم يرَ سوى نظرةٍ خبيثةٍ وليدةٍ في عينَيه.

سأل القسيس في ارتياب: «ما الذي ترمي إليه؟»

«لا شيء. كل ما أرجوه أن أتأكد أنني ما زلتُ على الطريق الصحيح. حتى الآن، لديَّ فرضية واحدة، لكن كل الأمور بدأت تتَّسق معًا بإحكام شديد، ولا يحتاج الأمر إلا إلى نموذجٍ واحد من رسالة؛ لإثبات صحة فرضيتي. وحتى ذلك الحين لا يُمكنني المبالغة في تصديق صحَّة فرضيتي.»

وسكت عن الكلام، لينظُر خارج النافذة، بين أغصان أشجار الأرز الوارفة التي تُظلِّل الحديقة. كانت هناك سيارة صغيرة تقِف خارج البوابة، يوشِك مالِكها على مغادرتها.

قال إيجناتيوس متذمرًا: «إنها ابنة عائلة مارتن. التقت بي أمس، وراقتها سيارتي كثيرًا. ارفض كلَّ الدعواتِ نيابةً عني.»

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه القسيس، لعلمِه أن الآنسة مارتن ستستهدف أي عَزَبٍ ثري تلقائيًّا. خرج القسيس من النافذة الفرنسية، واستقبل كونستانس مارتن في ممرِّ السيارات.

صاحت: «أريدك وصديقك أن تتناولا الغداء معنا اليوم.»

بذل القسيس غاية ما في وسعه في المسألة، لكن انتهى به الأمر أن وعدَ الآنسة بالحضور؛ إذ كان يرفض الكذب نيابةً عن إيجناتيوس.

خرج الرجل المستاء من مَخبئه، عندما عاد القسيس إلى غرفة الطعام، وغضب عند سماعه للاتفاق.

قال: «على الأقل سيكون معي ذكرى شيقة تشدُّ من أزري في هذه المحنة. أتوقع أن أحظى ببعض التسلية في قصر «سباوت».»

سأل القسيس: «كم ستكلفك هذه الرحلة السخية النادرة؟»

أجاب إيجناتيوس: «حوالي خمسين جنيهًا على ما أعتقد. لكن لا أتوقع أن يُطلب مني الدفع. سترفض الآنسة ماك عرضي.»

«لا تكن واثقًا إلى هذا الحد.»

«ألم يخطُر ببالك أن الآنسة أسبري ستمنعها من الذهاب؟ «

«لن تفعل شيئًا من هذا القبيل مطلقًا».

عندما وصل الرجلان إلى الباب الأمامي لقصر «سباوت»، نظر القسيس إلى إيجناتيوس قبل أن يطرق الباب.

سأله: «هل أطلُب مقابلة الآنسة ماك؟»

أجاب: «لا، الآنسة أسبري. ستكون الآنسة ماك معها.»

وكان إيجناتيوس مُحقًّا في توقُّعه؛ إذ عندما قادتهما الآنسة روز إلى غرفة المكتب، كانت السيدتان معًا. وقفت الآنسة أسبري عند النافذة، في حين جلست الآنسة ماك إلى المكتب، تفتح الأظرف بجدٍّ وطاعة.

همست الآنسة ماك بلهفةٍ مشوبة بالخضوع للاختفاء من المشهد: «أيمكنني الذهاب؟»

قالت الآنسة أسبري بلهجة آمِرة: «لا، ابقَي من فضلك. سأحتاج إليكِ فيما بعد.»

ورحَّبت بالقسيس بابتسامتها الوقورة، التي شعر إيجناتيوس أنها مصطنعة. حتى القسيس نفسه شعر أن جوًّا من الكآبة يُخيم على الغرفة العتيقة المُظلمة؛ إذ كانت النافذة البابية أصغر من المعتاد، وتطلُّ على حديقة معتمة حيث تدفَّق الينبوع البُني المضطرب بين أحجار الإفريز.

تحدَّث القسيس إلى الآنسة أسبري باحترامٍ عن الأمور المعتادة؛ كي يُمهد الطريق لصديقه لتقديم عرضه. وبينما كان يفعل ذلك، أحسَّ بجوٍّ من السكينة من حوله صنَعَته الآنسة أسبري بحضورها الهادئ. وهدأت مخاوفه شيئًا فشيئًا، وتوقَّف عقله عن دوَرانه المتواصِل المُضطرب.

لكن إيجناتيوس بدَّد هذه السَّكِينة بسؤاله المفاجئ.

سأل: «هل سافرتِ كثيرًا يا آنسة أسبري؟»

نظرت إليه الآنسة بدهشةٍ تكاد لا تُلحَظ.

أجابت: «في شبابي.»

سأل إيجناتيوس: «وأنتِ يا آنسة ماك؟»

حملقت فيه الآنسة ماك بعينَيها المُستديرتَين الزرقاوَين الصافيتَين.

وأجابت: «لا.»

«هل ترغبين في السفر؟»

«أوه، بلى.»

«حسنًا. إذن يُمكنكِ إسداء خدمةٍ لأصدقاء لي. هذا إذا وافقت آنسة أسبري على الخطة.»

ومضى يُزيِّن كذبته بحماسته الفطرية التي تُصاحب مِثل هذه الشطحات الخيالية.

قال: «إليكِ المعلومات. خطَّط أولئك الأصدقاء — وهن أربعة نسوة — للذهاب في عطلة قصيرة إلى سويسرا والبحيرات الإيطالية. لسوء الحظ، اضطرَّت إحداهن إلى الانسحاب في آخِر لحظة، فصار عددهن ثلاثًا، وهو عدد غير مناسب بعض الشيء. لذا توسَّلنَ إليَّ لسدِّ هذا النقص.»

سألت الآنسة ماك: «هل ستذهب؟ هذا رائع.»

قال: «أخشى أنَّ جِنسي يحرمني من هذه المتعة. لكن نظرًا لإتمام الحجوزات وسداد مقابلها، طلبت صديقاتي أن أعثر لهنَّ على شخصٍ رابعٍ مناسب. شخص حسَن الخلق،

ليِّن الطبع، رصين، مُتفهِّم، هادئ النفس؛ إنهنَّ يبحثنَ عن رفيقٍ مثالي في الحقيقة. بطبيعة الحال، فكرتُ في الآنسة ماك.»

ثم التفت إيجناتيوس إلى الآنسة أسبري.

وسألها: «أيمكنكِ الاستغناء عنها أسبوعَين؟»

أجابت الآنسة أسبري دون تردُّد: «بالتأكيد.» نظر إيجناتيوس إلى الآنسة ماك التي كانت تبتسِم في حيرة. وسأل: «هل ستأتين؟ هل يُمكنني أن أراسل صديقاتي وأخبرهنَّ أنني نجحتُ في مسعاي؟»

لاحت اللهفة في عيني المرأة الضئيلة، لكن بدا عليها التردُّد، وهي تختلِس النظر إلى الآنسة أسبري.

قالت: «أنا ... أنا لا أعرف حقًّا.»

قال إيجناتيوس: «ألا يُعجبك العرض؟ لا يوجد أي التزامٍ ماديٍّ من أي نوع، وستكون صديقاتي في غاية الامتنان لكِ. بالمناسبة، تُحب صديقاتي الراحة. لن يُمارسنَ رياضة التسلُّق ولا السير على الأقدام. سيسافرنَ بالسيارة، وسيتوقفنَ من حينٍ لآخر، ويبِتْنَ في أرقى الفنادق. وسيكون الطعام شهيًّا.»

لعقت الآنسة ماك شفتَيها الورديتَين الباهتتَين بطرف لسانها.

وقالت: «يبدو العرض مُغريًا جدًّا. هل أنت متأكد أنني لن أدفع أيَّ شيء؟»

أجاب: «ولا بنسًا واحدًا.»

قالت: «هذا لطف بالِغ منكم. أظنُّ أنني أُحب القدوم.»

سُرَّ القسيس فأشرق وجهه المُكفهر، لكن بدا أنه يجد الموقف مضحكًا عندما نظر إلى إيجناتيوس.

سألت الآنسة أسبري: «متى ستُغادر صديقاتك إنجلترا؟ يجب أن نبدأ في تجهيز أغراض الآنسة ماك على الفور.»

بدت الآنسة أسبري مسرورةً حقًّا بالعطلة التي تنتظر مرافقتها؛ حتى إن إيجناتيوس لم يدفع الخمسين جنيهًا فحسب وإنما دفع ضعفها؛ إذ تعهَّد بإيجاد مرافق للآنسة ماك.

قال إيجناتيوس: «نحو أسبوعَين من الآن. لا أذكر اليوم بالتحديد، لكن سأبحث في الخطاب الذي تلقيتُه من صديقاتي، فور عودتي إلى بيت القسيس.»

قالت الآنسة ماك: «لا، من فضلك لا تُزعج نفسك. فقد اكتشفتُ أنني لن أستطيع القدوم على كل حال.»

سألت الآنسة أسبري بنبرةٍ حاسمة: «لِمَ لا؟»

أجابت: «لا أريد أن أتركك يا آنسة أسبري.»

صُعق القسيس من الصدمة عندما رفضت الآنسة ماك العرض؛ لا سيما أن إيجناتيوس رمقه بنظرة انتصار. كان وجه الآنسة أسبري هادئًا، فلَمْ يكشف عن مشاعرها الحقيقية، حين بدأت تُجادل مرافقتها بالنبرة الهادئة المُسيطرة التي تُستخدَم للتأثير على الأطفال.

قالت: «لكن يا آنسة ماك، هذه فرصة يجِب ألا تُضيِّعيها. أستطيع إدارة أموري جيدًا في غيابك. أتمنَّى أن تسافري حقًّا.»

غمغمت الآنسة ماك: «أنا آسفة يا آنسة.»

سأل إيجناتيوس: «ألا ترغبين في السفر؟»

حمل بريق اللهفة الذي لاح في عينَي المرأة الإجابة على السؤال.

ردَّت المرأة: «أجل. أريد السفر حقًّا. لكنَّ مكاني بجوار الآنسة أسبري العزيزة. أنا أسعد ما يكون هنا، وأنا أقوم بعملي. أعلَم الأصلح لي. ولن يستطيع أحد أن يَثنيني عن قراري.»

ونهضت عن مكتبِها واتَّجهت نحو باب الغرفة.

سألت وهي تُغادر الغرفة: «أتأذنين لي بالانصراف يا آنسة؟»

التفت القسيس إلى الآنسة أسبري، التي جلست في مكانها بلا حراك، كأنها تمثال من الحجر.

وقال دون رويَّة: «ما أروع الولاء الذي تبثِّينه في الآخرين!»

ارتسمت ابتسامةٌ خافتة على شفتَي الآنسة أسبري لذلك الثناء، في حين تحدَّث إيجناتيوس بنبرة بها مسحة تهكُّم.

قال: «في تلك الحالة، لا بد أن الآنسة أسبري لها تأثير على شخصٍ طيِّع كالآنسة ماك. هل يُمكنني الاعتماد عليك في إقناعها؟»

ردَّت ببرود: «لا أستطيع أن أَعِدك بشيءٍ من هذا القبيل. الآنسة ماك امرأة حُرة. ولا أومن بالإكراه. لقد أذِنتُ لها بالذهاب كما رأيت.»

لم يُعلق إيجناتيوس، ولكنه واصل تفحُّص الآنسة أسبري بعينَيه، في حين تحوَّل تعبير وجهها من الورع إلى غطرسة تكاد لا تُلحَظ. وعندما تحدَّثت أعطت انطباعًا يُوحي بقبولِ تحدٍّ.

قالت: «ينجح الغريب أحيانًا فيما يفشل فيه الصديق. ما رأيك يا سيد براون أن تخوض تجربة إثناء امرأة عن قرارها؟ أريدُها أن تذهب حقًّا ... قد يكون من الحكمة أن تلتقي بها بمفردها. قد تتأثر بوجودي دون وعيٍ لأنني مخدومتها في نهاية المطاف.»

كان عرضها عادلًا أيما عدل. لكن كانت المسألة واضحة لكلٍّ منهما وضوح الشمس. لن تستطيع قوة على الأرض أن تحوِّل الآنسة ماك عن ولائها لمخدومتها.

همس القسيس بينما كان الرجلان يسيران في ممرِّ السيارات: «ستُجرب حظك، أليس كذلك؟»

ضحك إيجناتيوس ضحكةً خافتة مبتهجة، وهو يخبط على جيبه: «نعم، سألعب اللعبة. لكن أموالي بأمان. هل وصلك قصدي؟»

سأل القسيس بنبرة دفاعية: «أي مقصد؟»

أجاب إيجناتيوس: «أن السجين قد يتشبَّث بزنزانته حتى بعد أن تَفتَح له الباب.»

لم يعلق القسيس. وسقط ضحيةً للكآبة مرة أخرى، في حين كان إيجناتيوس في سعادةٍ غامرة. كان مُبتهجًا حتى إنه نسِيَ أن يتذمَّر في طريقهما إلى قصر «تاورز» بالسيارة.

علَّق إيجناتيوس: «بما أن سيارتي هي مصدر الاهتمام وليس شخصي، أظنُّ أنه سيُخصَّص لها مكان على مائدة الغداء.»

عندما وصلا إلى المنزل الضخم، الذي كان يعجُّ بالأبراج والنوافذ الزجاجية البراقة، شعر إيجناتيوس بالنفور منه، لاكتظاظه بمظاهر الترَف وجوِّه المُضطرِب. كانت فتيات عائلة مارتن متحمِّسات على نحوٍ مُفرط، وأربكنَه بثرثرتهنَّ التي لا تتوقف. تحمَّل إيجناتيوس وجبة الغداء الدسمة التي مرَّت ببطءٍ بتذكير نفسه بأن انزعاجه إلى زوال.

عندما كان يدخن سيجارة، بعدما انتهى من تناول الغداء، شعر بقُرب لحظة انفراج كربه، فحاول أن يتعامَل بلُطفٍ مع كونستانس مارتن التي التصقت به.

سألها إيجناتيوس بنبرةٍ ودودة: «هل استقررتما تمامًا؟»

ردَّت كونستانس: «أجل، فنحن من السكَّان القدامى. بل إنني تلقيتُ أحد تلك الخطابات المجهولة اللعينة حتى أشعر بالترحاب.»

سأل إيجناتيوس بسرعة: «أين هو؟»

أجابت: «لقد أحرقتُه بالطبع. لا أحتفظ بمِثل هذه القاذورات حولي حتى لا تقرأه خادمتي.»

سأل إيجناتيوس: «وهل أحرقتِ الظرف أيضًا؟»

أجابت: «نعم. لكن يُمكنني أن أصِف لك فحوى الخطاب إذا كنتَ تجد ذلك مُسلِّيًا. لقد احتوى على كلام فارغ بشأن الصفقات الرابحة التي حققناها بالخارج، كما أشار إلى صفقاتٍ أكثر ربحًا لم نتحدَّث عنها. لا أستطيع تذكُّر الكلمات التي استخدمها بالضبط، لكنه اتَّهمنا بسرقة المتاجر صراحة.»

عضَّ إيجناتيوس على شفتَيه في خيبة أمل، إذ تحسَّر على فقدان فرصةٍ أخرى.

هتف في انفعال: «اللعنة!» فتوهمت كونستانس أنه متعاطف معها.

فقالت موافقةً كلامه: «إنه لسيئ حقًّا. لقد فتحت الخطاب، لكنه على أي حال قد يكون مُوجهًا لأي واحدةٍ منَّا. كان الخطاب مُوجهًا إلى «الآنسة كيه مارتن»، وجميع أسمائنا تبدأ بالحرف نفسه. فأختي الكبرى تُدعى «كاثلين»، والصغرَيان اللَّتان لم تُقابلهما بعْدُ «كارول» و«كيري».»

كان من الواضح أن كونستانس تُريده أن يشعر بأنه جزء من عائلتها؛ إذ تحدثت عن تقديمه لهما في المستقبل.

قالت: «ستأتي الأخريان قريبًا، وسنبقى هنا لبعض الوقت. فلقد أكثرنا التنقُّل في العامَين الماضيين، على أي حال؛ لذا حان وقت الاستقرار.»

أكَّد إيجناتيوس على تطلُّعه لِلقاء بقية عائلتها؛ لكنه ظل صامتًا ونزقًا في طريق عودته مع القسيس إلى البيت. وحدَه الكلب من حظي بثقة إيجناتيوس، عندما غاص في أحد المقاعد، وهمس في أذن تشارلز الحريرية قائلًا:

«الجاني هو ذلك الشخص الذي دارت حوله شكوكُنا. لكن يجب أن نُثبت ذلك بالأدلة لأولئك الأقل ذكاءً.»

الفصل الثلاثون

# الظرف

بعد مرور أسبوع، حين تلقَّت فيفيان ثالث خطاب مجهول، لجأتْ لرفيقها المألوف، الخوف، طلبًا للنصح.

كان الخوف قد أصبح ملازمًا لها، ربما بدافع من الإخلاص؛ لأنها من أدخلته بنفسها إلى القرية، حيث حقَّق نجاحًا مُبهرًا على المستوى الاجتماعي.

سيطرت روح، هي مزيج من المرح والثقة، على حفل الشاي الذي أقيم بمنزل الآنسة كورنر، فكانت أشبه بمكنسةٍ جديدة تطرُد كل أشباح الخوف من ثنايا النفس مثلما تزيل الغبار من الزوايا. ولم يخترق ذلك الوميض الأسود الغرفة المضاءة بنور الشمس إلا بعدما خشِيَت فيفيان انكشاف حماقةٍ ارتكبتها في الماضي، فحاولت عقد معاهدة مع الخوف لحماية نفسها.

جلست فيفيان إلى مائدة الإفطار، تعضُّ على شفتيها في أثناء قراءة الخطاب، ونظرت إليها زوجة الشريف في قلق. لاحظت السيدة أن وجه ابنتها صار شاحبًا، وأن هالات سوداء تشكَّلت تحت عينَيها.

ربما كانت الإثارة وراء شحوب وجه فيفيان، إلا أنه لم يكن ثمَّة شكٌّ في أنها فقدت حيويتها. كانت خطبتها هي أقصى ما تطمَح إليه، غير أنها لم تجد مُتعة في الردِّ على رسائل التهنئة التي انهالت عليها منذ إذاعة نبأ خطبتها في الصحافة رسميًّا.

في واقع الأمر، كانت فيفيان في غاية القلق. فقد أصبح الخوف هو المُحرك الرئيس لأنشطتها اليومية. لم تكن فيفيان تخشى على مُستقبلها؛ إذ رفض حسُّها المنطقي أن يتركها فريسة للهلع. لكن طغى عليها إحساس بالمسئولية.

ورغم ما اتسمت به شخصيتها من سطحية، فقد كانت يقِظة الضمير، وتتَّسم بالرصانة والجدية. وقد كانت وفاة السيدة سكودامور ضربة قاسية لها؛ لأنها كانت

تفضل صحبة النساء الأكبر سنًّا دائمًا، لغياب المنافسة، ولتزمُّتها على عكس الفتيات الأخرى.

كانت زوجة المحامي قدوتها ومصدر إلهامها؛ لذا بعدما تبدَّدت الصدمة الأولى للفضيحة، شعرت أنها فقدت شخصًا عزيزًا عليها.

كانت فيفيان بريئة من إخفاء أي أدلةٍ محورية في ذلك الوقت، إلا أن موقفها اختلف بوصول أول خطابٍ لها. فقد شعرت فيفيان أنها وحدَها من يملك خيطًا يقود إلى كاتب الخطابات. ورغم أنَّها لا تتردَّد في أخذ حمَّام شمسي، شِبه عارية على الملأ، فقد خشيت أيما خشية أن تنكشف شئونها الخاصة على الملأ.

جلس الخوف بجوار فيفيان، وهي تقرأ التحذير المطبوع، ونظر من فوق كتِفها.

قال: «ربما استلم شخصٌ آخر في القرية خطابًا اليوم. إذا لم تتحدَّثي فقد يُقدِم أحدهم على الانتحار.»

وإحقاقًا للحق، لقد أقدم على عملٍ طيب في ذلك اليوم؛ ففي الوقت الذي حقَّق فيه هدفه وجعل قلب فيفيان مضطربًا وشفتَيها شاحبتَين، دفع فيفيان للوقوف على قدميها فجأة، وعيناها الزرقاوان مُتقدتان بالقرار الذي اتَّخذَته من رحِم اليأس.

نظرت إليها أُمها خائفة بعض الشيء؛ فقد كان الخوف يُولِي اهتمامًا شاملًا بجميع السيدات، إلى جانب أنه أمضى بعض الوقت في صُحبة زوجة العمدة. لم تنسَ السيدة ذلك الكبت الرهيب الذي ألمحت إليه الآنسة كورنر.

سألت زوجة العمدة: «إلى أين تذهبين يا فيفيان؟»

أجابت فيفيان: «لزيارة القسيس يا أمي.»

قالت السيدة: «انتبِهي لما ستقولينه للقسيس.»

حدَّقت فيفيان إليها في دهشة، في حين حاولت تقديم تفسيرٍ غير مُتناسق.

أضافت السيدة: «ظننتُك تحتاجِين بعض النصائح الروحية فيما يخصُّ الزواج. وأرى أنه يجِب عدم إغفال ذلك الجانب. لكن عندما يتحدَّث المرء إلى رجل دين، يجد نفسه يميل إلى الكشف عن أكثر مما كان ينتوي كشفه.»

ابتسمت فيفيان وقالت: «أشكرك على النصيحة. كل ما سأفعله هو أنني سأصعقه بماضيَّ المُخجِل.»

بعد أن طمأنت فيفيان والدتها بكلامها، قادت سيارتها تحت ظلال الممرِّ الضيق المُشجر الذي تتخلَّله أشعة الشمس، حتى وصلت إلى فتحة النفق الذي تُحيط به أشجار

الكستناء من الجانبَين، واتخذتها مرأبًا لسيارتها. وتمكَّنت بفضل هذا الإجراء الاحتياطي من مباغتة القسيس وإيجناتيوس، اللذَين كانا يجلسان ويُدخنان أول غليونٍ لهما في الصباح تحت أشجار الأرز.

ذهب القسيس لاستقبالها، فنظرت إليه نظرةً فاضت توسُّلًا ويأسًا.

قالت: «جئتُك في وقتٍ مبكر من الصباح. لكن لم أستطِع التحمُّل. أنا ...»

حاول القسيس تشجيعها على الكلام بابتسامته.

سأل: «هل قدمتِ لمسألة الإعلان عن الزواج؟ أم تُريدين الحصول على تصريحٍ خاص؟»

أجابت فيفيان: «لا، لا، لا شيء من هذا. جئتُك في مسألةٍ خاصة.»

تغيَّر لون القسيس.

وسأل وهو ينظر ناحية إيجناتيوس: «هل نذهب إلى مكتبي؟»

أجابت فيفيان: «لا. أريد أن يسمع السيد براون ما سأقوله.»

أُعجِب إيجناتيوس، الذي كان يتفحَّصها بعينَيه، برَباطة جأشها. كان جسدها الأبيض الصغير يبدو وكأنه غرِق في أعماق مقعد الفارستي الضخم؛ وهي وإن كانت مثل نبات اللبلاب المُتسلِّق في هشاشتها، إلا أن وجهها كان هادئًا ويداها ساكنتَين.

قالت فيفيان: «ليس من السهل عليَّ تفسير ما سأقوله. لكني تلقيتُ ثلاثة خطابات مجهولة.»

قاطعها إيجناتيوس في غيظ: «وبالطبع أحرقتِها كلها، أليس كذلك؟»

أجابت: «بالتأكيد ... أسوأ ما في الأمر أنني أعرِف كاتب الخطابات للأسف. وبطبيعة الحال لا أودُّ حتى مجرد التفكير في الأمر، فما بالك بإخبار أحدٍ عنه.»

قال القسيس بجدية: «لكن هذا واجبك. لقد وقعت مأساة بالفعل. ولا بد أن نَحُول دون وقوع أخرى مهما كان الثمن.»

ردَّت فيفيان: «أعرف. وهذا ما يُخيفني. أن تقع جريمة أخرى إذا لم أتحدَّث.»

ضمَّت فيفيان يدَيها بإحكام، وبدا أنها انحرفت عن الموضوع.

قالت: «أتذكُران وقت الحرب؟ عندما لم يكن الوقت يتَّسع للزواج في بعض الأحيان، فيترك المرء العنان لشهوته ... حسنًا، لم يحدُث ذلك لي. أريدكما ألا تنسيا ذلك. بعد أن قُتل حبيبي، حزنتُ لأنني لم أحظَ بمِثل شجاعة الفتيات الأخرى. كانت الفكرة شنيعة، لكن هذا كان شعوري ... أما الآن، فقد اختلفت الأمور تمامًا. لنفترِض أنني فعلتُ مثل

بقية الفتيات. لكما أن تتخيَّلا شعوري حينها. كان الخوف من الفضيحة سيقودني إلى الجنون. ولأنني كدتُ أقع في هذا الأمر، أتفهَّم سبب إقدام السيدة سكودامور على الانتحار ... لذا أعرفُ ما قد تَعنيه هذه الخطابات لشخصٍ أقدم على هذه الفعلة.»

قاطعها إيجناتيوس: «لحظة يا آنسة فيفيان. هل نفهم من ذلك أنكِ تعرضتِ للتهديد بالفضيحة من أجل هفوةٍ صغيرة؟»

أجابت فيفيان: «أجل. هفوة صغيرة.» تشبَّثت فيفيان بالكلمة. وأضافت: «سأُخبرك بكلِّ شيء.»

استفاضت فيفيان في الحديث عن زيارات الكوخ وما تلاها؛ إذ أرادت التأكيد على أنها لم تأتِ والشابُّ بيلسون بما لا يليق، وأنهما كانا يتعاملان برسمية.

قالت: «لم نكن حتى صديقَين حميمَين إذا كنتما تفهمان ما أعنِيه. كنا صديقَين فحسب. لذلك من الظُّلم البيِّن ... بل من المُشين، أنه أساء الظن فيما حدث.»

سأل إيجناتيوس: «كيف عرفتِ أنه أساء الظن؟»

قالت: «لأنه تغيَّر تمامًا. لم يعُد يُعاملني كالسابق منذ تلك الواقعة.»

أمدَّ إيجناتيوس القسيس بالمعلومات بحذق؛ إذ كانت أمارات الحيرة باديةً عليه.

سأل إيجناتيوس: «أنتِ تتحدَّثين عن الرجل الذي قرع الجرس، ثم نظر من نافذة الكوخ، أليس كذلك؟ أتشُكِّين أنه من كتب هذه الخطابات؟»

قالت: «هل هناك غيره؟ هو الوحيد الذي يعلَم بهذه الواقعة. ولا بد أنه يعلَم الكثير من أسرار مرضاه.» رفع القسيس حاجبَيه الكثَّين بصورة ملحوظة. وسأل: «هل تتَّهمين الطبيب بيري؟» ولكن لم تُجِب فيفيان على السؤال.

قالت: «لقد أخبرتكما بكلِّ ما أعرفه. يجب أن أرحل الآن. إلى اللقاء.»

اكفهرَّ وجه القسيس لكنه أجبر نفسه على الابتسام.

قال: «كان هذا مؤلِمًا جدًّا بالنسبة إليكِ. أشكركِ من كل قلبي. لقد كنتِ في غاية الشجاعة.»

قالت: «لم أفعل سوى ما يُمليه عليَّ الواجب.»

نظرت فيفيان إلى إيجناتيوس نظرةً خاطفة، لكنه لم يُقدِّم لها أي مجاملات؛ إذ كان يفكر بالأدلة المحروقة.

قالت: «لا تصحبني إلى البوابة من فضلك. لن ألفتَ إليَّ الأنظار إذا خرجتُ بمفردي. ولا أريد أن يعلم الطبيب بقدومي إلى هنا. فقد تساوره الشكوك.»

سارت فيفيان عبر ممر السيارات، بخفة مثل فراشة بيضاء، لكن سرعان ما عادت حاملة شيئًا قدَّمته للقسيس.

قالت: «كدتُ أنسى. ها هو الظرف الذي طلبتَه ... ولا تنسَ من فضلك. لم أفعل ذلك أبدًا.»

لم يُدرك القس أن الشكَّ كان واضحًا على وجهه، حتى تكلَّم إيجناتيوس، كأنه يُجيب عن سؤال مسكوت عنه.

قال: «لا لَمْ تفعلها يا تيجر. فليس لديها الجرأة. لكن إن روت لك الآنسة بروك هذه الحكاية في يومٍ من الأيام، فالأفضل أن تتحقَّق من صِحة روايتها.» وتناغُمًا مع التغيُّر المفاجئ الذي طرأ على مزاج إيجناتيوس، أرسل بيدِه قبلةً للفتاة البيضاء، التي كانت تنسلُّ من البوابة في خفة.

قال: «نحن مَدينان بكل الفضل لهذه السيدة الرقيقة المناضلة. هلا تُعطيني الظرف من فضلك؟ يجب أن أتصل بالمرأب لإحضار سيارتي. سأذهب إلى لندن على الفور. وسأعود الليلة.»

سأل القسيس: «ماذا ستفعل؟»

«في لندن؟ سأُخبرك لاحقًا. أما الآن فسأدخل إلى غرفة المكتب، وأكتُب رسالة للدكتور بيري. قد يكون هذا سابقًا لأوانه، لكنه قد يكون مُهمًّا. هلا تتولَّى إرسال الرسالة إلى دكتور بيري يدًا بيد، ودون تأخير؟»

حدَّق القس إلى وجه إيجناتيوس القاسي بعينَين مُضطربتَين. وتمتم: «أيجب أن تفعل ذلك؟ أنا أحب الرجل رغم كل شيء.»

اكتفى إيجناتيوس بالابتسام. لقد كوَتْه فيفيان بنار الشك، عن غير قصدٍ منها، عندما أخفت الظرف المُهمَّ حتى آخر لحظة. وقلَّدها دون قصدٍ منه، إذ ظل صامتًا حتى اللحظة التي تحركت فيها سيارته.

علَّق: «لقد حالفنا الحظ عندما تناولنا الغداء في «تاورز». فحينها أخبرتني الآنسة مارتن أن صديقنا المجهول قد ارتكب ذلك الخطأ المتوقَّع.»

الفصل الحادي والثلاثون

# المَخرج

أدى القسيس أمانته على أكمل وجه رغم الاضطراب الذي عصف بذهنه. فأوصلت مدبرة منزله الرسالة إلى يد الطبيب في غضون عشر دقائق من رحيل إيجناتيوس إلى لندن.

نظر الطبيب، الذي كان في عيادته، إلى كلمة «عاجل» المكتوبة على الظرف في ضجَر. فلم يكن ثمة شيء ذو أهمية له في ذلك اليوم، وبالأخص الشئون العاجلة للآخرين.

خلال الأسبوع الماضي، فقدَ الطبيب حُبَّه للاستطلاع، أو بالأحرى انصبَّ فضوله على أمرٍ واحدٍ بعينه. كان يُفكر في الطريقة الأكثر فاعليةً للانتحار، لكن من منظورٍ أكاديمي بحت.

بالطبع لم يكن ينوي إنهاء حياته على الإطلاق. هكذا ظلَّ يُطمئن نفسه مرارًا وتكرارًا. كان حاضره مليئًا بالمشكلات التي على رأسها الموازنة بين دخلِه والنفقات.

كان من المُفترض أن يكون الأمر هينًا؛ إذ تجمع كل العائلات الراقية، حسبما صرحت جوان ذات مرة، بين أصالة النسَب والدخل الخاص. وقالت أيضًا إن الجميع متزوِّجون، وهنا تكمُن المشكلة.

لو أن الطبيب ظلَّ أعزب، لكان من المُمكن الآن أن يعيش في أحضان منزل «سانت جيمس» الدافئة، دون الحاجة إلى أي دخلٍ جانبي مع دخله الأساسي القادم من حِصته من أرباح أسهُمه. لكن منذ زواجه بماريان، اضطرَّ إلى بيع أسهُمه مرارًا، للوفاء بمُتطلباتها التي لا تتوقَّف.

رغم كل ذلك، كانت الحياة مليئةً بالأحداث الصاخبة المُمتعة، حتى وصول الخطاب الأول. راح الطبيب يتذكَّر في حُزن وشوق ذلك الماضي البائد الذي انتهى وانتهت معه عائلة سكودامور وجوليا كورنر.

ربما لم تكنِ القرية الحياة نفسها، وإنما مجرد صورة منعكسة لها في المرآة السحرية لِبركة بلورية. لم يكن بهذه الصورة قُبح أو اضطرابات لكي تجعلها انعكاسًا واقعيًّا للحياة؛ إذ لم يكن بها سوى جمال الأحلام وأوهامها.

لكن هبَّت ريح على الماء، ولوَّثت سطحها، فأصبح كمرآةٍ كدرة. ولم يبقَ شيء على عهده منذ ذلك الحين.

تدفَّق ضوء الشمس عبر سقف العيادة الزجاجي، وراح يخترِق صفوف القناني ويصبغ الجدران والسقف بألوان قوس قزح. وكانت هذه البُقَع المضيئة تتمايل مثل الجنيَّات كلما هزَّت الرياح الأشجار بالخارج. تأمَّل الطبيب المشهد، شِبه مسحور بتراقُص الألوان على الجدران والسقف، وهو يتنهَّد حسرة على ذلك الهدوء الذي تلاشى، عندما كانت أيام راحته مليئة بالزيارات المِهنية التي تختلف عن الزيارات الاجتماعية، وكان الاختلاف الجوهري بينهما أنه كان في الأخيرة يتقاضى المال من أجل احتساء كوبٍ من الشاي.

لقد ذهبت مع الريح العوانس الأثرياء والأرامل الميسورات الحال اللائي حرصنَ كل الحرص على تجنُّب الأمراض، وعلى دفع فواتيرهنَّ في مواعيدها. لا تزال تلك النسوة يسكنَّ في القرية، إلا أنهنَّ كنَّ يعشنَ في كوكبٍ آخر، في حقيقة الأمر.

لم يخطُر ببال الطبيب الانتحار قط. كانت هذه الفكرة أبعدَ ما تكون عن ذهنه. كان يرى الموقف في المُجمَل مُسليًا إلى حدٍّ ما. فلا يزال هؤلاء الأشخاص الطيبون أصدقاءه. ولو اطلع أحدُهم على ظروفه المادية الحالية، لتكالبوا على خدماته الطبية.

لولا همهمات سرَت إلى العلَن، تُلمِح إلى وجود صلةٍ غير مُحددة بينه وبين الخطابات السامة. لم يُصدِّق أحد تلك الشائعة، لكن ظلَّ كل جارٍ ينتظر جاره، كي يتَّخذ زمام المبادرة ضدَّ هذه الخطابات. كانت غريزة القطيع وراء اندفاع الناس للخوف جماعات، ليتفرَّقوا بعدَها مباشرة إلى أحزاب متشكِّكة.

حدث الطبيب نفسه: «هم ليسوا قساة. إنهم خائفون فحسب.»

وقعت عينا الطبيب على الرسالة القابعة في يدِه المُرتخية. كان على وشك أن يفتحها رغم عدم اكتراثه بها، لولا أن سمع خطوات زوجته في الردهة، تعلو حينًا على الأرضية الخشبية وتخبو فوق السجادة أحيانًا أخرى.

لم يكن يرغب في رؤيتها في تلك اللحظة. فقد كانت في حالةٍ مزاجية حادة للغاية على مائدة الفطور، ولم تدَعْه وشأنه بل ظلَّت تلسع ذهنه مثل بعوضة، حتى إنه ما زال يشعر بأنه متورِّم وعاجز عن التفكير بترابُط منطقي.

اندفعت زوجته إلى العيادة بحيوية نابضة تُناقض خموله وفتوره أشدَّ التناقُض.

سألت على الفور: «ممَّن جاءت الرسالة؟»

وضع الطبيب الرسالة في جيبه بدافع الغريزة.

وأجاب: «لا أحد بعينِه. إنها من بيت القسيس.»

نظرت إليه ماريان نظرةً بها مسحة سخرية، وقالت: «إجابة واضحة جدًّا! هل استيقظتَ هذا الصباح يا هوريشيو؟»

«لا أعرف. أشعر بالخمول إلى حدٍّ ما.»

«إذن لِمَ لا تفعل شيئًا بحقِّ السماء؟»

«لا يُوجَد شيء أفعله.»

قالت ماريان بسرعة: «سأُخبرك إذن بما أريدك أن تفعله. تقول المُمرضة إنه إذا لم يذهب الطفلان إلى البحر، فإن أفضل شيءٍ نفعله أن نضع ستارًا واقيًا من الشمس على السطح ليكونا بمعزِل عن البعوض.»

علق الطبيب: «كم هي امرأة عبقرية! لقد استنتجت مباشرة أن الناموس لا يُمكنه السير للأعلى.»

اشتعلت ماريان غضبًا عندما انتبهت إلى لمحة الاستهزاء في نبرة الطبيب الهادئة.

وهتفت بغضب: «على الأقل تهتمُّ بمصلحة طفليَّ أكثر مما يفعل أبوهما. تبًّا، لا تنظر إليَّ هذه النظرة البلهاء ... استيقِظ.»

قال: «هذا آخر ما أودُّ فعله.»

قالت: «حسنًا، عُد إلى النوم إذن، وخُذ كفايتك منه.»

قال بصوتٍ يكاد لا يُسمع: «غريب أنكِ تقولين هذا. ولكن للأسف لا بدَّ للنائم أن يستيقظ في نهاية المطاف.» استدارت ماريان واتجهت ناحية الباب.

وقالت: «لا نفعَ منكَ وأنتَ في هذه الحالة. لو كنتُ مكانك لأخذتُ حمامًا باردًا.»

قال: «فعلت ذلك.»

قالت: «خُذ حمامًا ساخنًا إذن. فقد يبثُّ فيك النشاط للقيام بشيءٍ ذي نفع.»

كانت نبرة صوتها تقطُر ازدراءً، لكنها ذابت في التغيُّر المفاجئ الذي طرأ على مزاجها. وفي لمح البصر، انحنت ماريان راكعةً بجوار زوجها، وعانقته بقوة.

قالت وهي تُقبِّل زوجها بحرارة: «فكِّر بي يا حبيبي.»

تمتم الطبيب: «غريبٌ تصرفكِ هذا.»

كانت صفعة الباب قوية، فأعادته إلى وعيه قليلًا، حتى إنه بدأ يفكر في اقتراح ماريان. حمَّام ساخن؟ كان من اللافت للنظر حقًّا أنها أعطته نصيحةً مناسبة للموقف كهذه.

بينما كان الطبيب شاردًا في التفكير في طُرق الانتحار المختلفة، استحوذت على عقله طريقة واحدة بعينِها، وهي قطع وريد. لقد شهد بنفسه الرحيل الصادم والصاخب للمُحامي، في حين أنهت السيدة سكودامور حياتها بشكلٍ مُذلٍّ ومُخزٍ. كانت السيدة سكودامور، في نظره، سيدة راقية ذات هيبة، وما كان يليق بها أن تُنهي حياتها في غرفة غسيل الأطباق.

أكد الطبيب على نفسه مرةً أخرى أنه لا ينوي الإقدام على الانتحار. كانت فكرة مُثيرة للاهتمام لا أكثر. وبدأت أُذناه تشتعِلان حرارة، وتذكَّر تلك الخرافة القديمة.

في تلك اللحظة، كان الطبيب محور حديث شخصَين، في مكانٍ آخر في القرية. ففي حديقة جميلة تقليدية، انشغلت سيدتان ترتديان أحذيةً مسطحة تتناسب مع مشط القدم، بتفقُّد أحواض الأزهار المُحيطة بحدود الحديقة والحديث عن الآلام الأولية التي تُنذر بقدوم الشيخوخة.

أعلنت الأخت الصغرى في تحدٍّ: «لا يُهمني. لن أرسل في طلَب طبيبٍ غريب. سأظلُّ وفيةً لطبيبي العزيز الدكتور بيري.»

كان أنف السيدة ذا شكلٍ مميز؛ إذ كان سمةً موروثة من عائلتها، غير أن فمَها كان رقيقًا. ارتفعت زوايا فمِها لتتشكَّل على شفتَيها ابتسامة بسيطة عندما طرحت شقيقتها الكبرى اقتراحًا.

«إذن لِمَ لا تُرسلين في طلبه؟»

سألت الصغرى: «أيُمكننا ذلك؟ لا يستدعيه العمدة أبدًا في الوقت الحالي. لم أسأل عن السبب على الإطلاق؛ لأنني أرفض الخوض في شرَف طبيبي العزيز. لكن الرجال يفهمون هذه المسائل أفضل من النساء.»

ردَّت أختها بحدة: «العمدة مسئول عن نفسه، لا عنك. لا بدَّ أن تقومي بذلك بنفسك. تعلمين أن حمَّى القش التي تُصيبك في نهاية الصيف على الأبواب. من الأفضل أن تطلُبي من ماركام استدعاء الدكتور بيري.»

واستمر الجدل ... في غضون ذلك، أجبر الطبيب نفسه على صعود السلالم العريضة المنخفضة والذهاب إلى غرفة النوم، ولم يزل لم يقرَبِ الرسالة.

توقف الطبيب عند بسطة الدرج المربعة، يتأمل الردهة من أعلى كأنه يشاهد مشهدًا من مسرحية. تسلَّل إليه، من الباب الأمامي المفتوح، قبسٌ من العشب المُشمس والأزهار المتلألئة، والظلال المنهمِرة بفعل الرياح مثل حبَّات المطر. وتناهى إلى أُذنَيه هديل الحمام، وضحكات طفلَيه وصيحاتهما. كما انصبَّ انعكاس أحمر من النافذة الزجاجية المصبوغة، على الأرضية البلوطية، فبدا مثل وردة قرمزية.

دلف الطبيب إلى الحمَّام، وثقل العالم لم يبرَح كاهله بعد، وفتح صنبور الماء الساخن. كانت أرضية الحمام مُتسخة لكنها لم تلفت انتباهه. لقد عجزت الفوضى، التي كانت نتيجةً منطقية لاغتسال طفلَيه، عن إعادته إلى وعيِه وإثارة نفوره.

خلع الطبيب معطفه، وطرحه على أحد المقاعد، فانقلب رأسًا على عقب وانزلقت الرسالة من الجيب إلى أرضية الحمام. نظر الطبيب إلى الرسالة، دون أن يتكبَّد عناء الْتقاطها من فوق الأرض؛ إذ انشغل تفكيره بالقرية مرة أخرى.

قال: «حلم جميل هي القرية. كل سكانها لا يعيشون حياةً حقيقية، باستثناء القسيس وجوان بروك اللذَين لا يشعران بالانتماء. العمدة نفسه ليس إلا فضلةً من فضلات الماضي البائدة رغم كل ما يُثيره من صخَب وضجيج. السكان في معظمهم امتداد لأسلافهم لا أكثر. نحن نبدو كشخصياتٍ من رواية ذات حبكةٍ درامية مُمتعة.»

حتى جوليا كورنر، بعدما خفتت ألوانها البراقة وانحسر صوتها في صمتٍ أبدي، بدت للطبيب نتاجًا لخيالها الأدبي. بعد ذلك، خطر بباله استثناء واحد لكل هذا وهو زوجته بشغفِها بالحياة الذي قادها إلى المُستقبل، مثل مُذنَّب ملتهب.

لم تكن زوجته ترضى بالتنازُلات وتأخذ الحياة بقوة، وتتحمَّل عذاباتها ومشاقَّها؛ تستلذُّ بالرياح، وتفرح بالاستيقاظ على يومٍ جديد؛ إذ ينتظرها انتزاع صفحة جديدة من صفحات التقويم الحياتي. كانت حياتها مُفعمةً بالشغف، والألَم والاضطرابات؛ ويداها مُشرعتَين، تتشبَّثان بالحياة بحلوها ومُرِّها.

رقَّ قلب الطبيب لماريان فجأة. وبينما انشغل تفكيره بها، ترك الخوف جانب ماريان — وكان لا يزال الفارس المُخلِّص لها — ليؤدي دور الخادم لزوجها.

همس الخوف: «أنتَ تُحب زوجتك وطفليك. تريد تأمين مُستقبلهما، أليس كذلك؟ اسمع. لم تُنفق من رأس مالك سوى جزءٍ صغير. ولا يزال يتبقى الكثير الذي يمكن زيادته من خلال وثائق التأمين على الحياة الخاصة بك. إذا اضطرَّت زوجتك إلى الاعتماد على نفسها، فستُجبَر على ترشيد نفقاتها من أجل طفلَيها. وسيكفيها دخلها ولو كان صغيرًا. ولن تموت جوعًا.»

سرَت رجفةٌ خفيفة في جسد الطبيب؛ إذ أقرَّ بأن الكلام منطقي تمامًا. ولم يرَ به أي خللٍ يَعيبه.

كان حوض الاستحمام مليئًا عن آخره، فاختبر حرارة الماء بمرفقه. وجد الطبيب الماء ساخنًا مهدئًا، فتخيل المُتعة التي سيحظى بها عندما يستلقي في أعماقه، كأنه في أحضانٍ دافئة يمكن أن ينام فيها للأبد.

همس الخوف: «أنتَ تُعاني من مسمار القدم. ألم يكن من الأفضل أن تُحضر حقيبة الأدوات؟»

ارتدى الطبيب روب الحمَّام بسرعة، لكنه كان في غاية الإنهاك فلم يربط الحزام حول خصره. وعندما وصل إلى الردهة، شعر بدفء الأرضية الخشبية تحت قدمَيه؛ إذ كانت أشعة الشمس تسقط عليها. وكانت هناك هرَّة صغيرة، توقَّفت عن اللعب بالكرة، كي تركض خلف أذيال روبه المُتدلية على الأرض. فاتَّبعته الهرة إلى العيادة، ثم صعدت الدرج وراءه.

لكنها عندما وصلت إلى الحمام، أبصرت الرسالة القابعة على الأرض، وبدأت في افتراسها. كانت القطة تستلقي على ظهرها، وهي تُمسك بالرسالة بمخلبَيها الأمامِيَّين وترفسها بساقَيها الخلفيتَين بقوة، مما دفع بشبَح ابتسامة إلى شفتي الطبيب. دفعت الغريزة الفطرية، لإنقاذ الأشياء من التدمير، الطبيبَ لالْتقاط الرسالة بفتورٍ وتراخٍ من فم الهرة.

سأل الطبيب: «أُتريدين أن تعلمي ما بداخلها؟ حسنًا، سأقرؤها عليك يا قطتي.»

فتح الطبيب الرسالة فحلَّت دهشةٌ عارمة على وجهه. كانت الرسالة من إيجناتيوس.

كان نصُّ الرسالة كالآتي: «ربما يُهمك أن تعلم أنني توصَّلت إلى الشخص الذي كان ينشُر الخطابات المجهولة بالدليل الدامغ. قبل حلول الليل، ستكونُ قد غادرَتِ القرية، وبحلول الغد، سيعلم الجميع اسمَها. هذا إعلان سابق لأوانه؛ لذا لا بد أن تعتبِرهَ سرًّا. لكن لديَّ دافعًا للاعتقاد بأنك تأذَّيتَ من هذه المسألة بشكلٍ شخصي؛ لذا أردتُ أن تكون أولَّ من يسمع بالخبر. خلاصة القول، أُحب أن أقتبس مقولتك العربية الشهيرة: «انقضى الليل أيها الحمَّال».»

بينما كان الطبيب يقرأ الرسالة، تدفَّقت الدماء إلى عقله، ودبَّت فيه الحياة من جديد. هبَّت نفحة أمَلٍ في الجو، تهمس إليه بأن القرية ستعود إلى سابق عهدِها في القريب العاجل. ونسي الطبيب مسمار القدَم، وهو يُدندن فرحًا في أثناء اغتساله.

خرج الطبيب من الحمام، والهرة جاثمة على كتفِه، وإذا بماريان تلتقِي به على بسطة الدرج.

سألت ماريان: «هل استمتعتَ بحمَّام منعش؟ تبدو وقد استفقتَ أخيرًا.»

ردَّ الطبيب: «أشعر ببعض البهجة. لقد تملَّك منَّا البؤس حتى نسِينا أن الوقت يمضي دائمًا.»

وفي أثناء حديث الطبيب، دق جرس الهاتف عاليًا. أسرعت ماريان تُجيب الهاتف، وأشارت بيدِها إلى زوجها، وهي تُنصت إلى الرسالة.

«هنا منزل لوريلز. معكِ خادمة الاستقبال الآنسة فيذرستون. هل الطبيب في المنزل؟»

الفصل الثاني والثلاثون

# زيارتان

مرَّ الوقت ببطء شديد على القسيس حتى عاد إيجناتيوس إلى القرية. كان ذهنه يدور في حلقات مفرغة من الترقُّب والرجاء والخوف. وعندما أسرع لاستقبال سيارة صديقه، أنبأته النظرة الأولى إلى وجهه أنه قد عاد مُنتصرًا.

تحدث إيجناتيوس إلى سائقه ثم قفز على الأرض.

قال: «نريد، أنا وبيرجِس، شطيرة سريعة وكوبًا كبيرًا من الشراب قبل أن ننطلِق في طريقنا مرةً أخرى. اتركها هنا يا بيرجِس. ستُحضر لك مُدبرة المنزل بعض الطعام.»

تقدَّم الرجل الضئيل الطريق إلى غرفة الطعام حيث استرخى في أحد المقاعد.

قال مُحدثًا القسيس: «قُدتُ السيارة في طريق العودة إلى هنا. أشعر بالإنهاك. حسنًا، أيها القسيس، في القريب العاجل سأُخلِّص القرية من غريبٍ غير مرغوب فيه.»

كرر القسيس بفتور: «غريب؟ إذن ... فالطبيب بريء.»

قال إيجناتيوس: «ليس الطبيب، حمدًا للرب. إنها امرأة بالطبع ... متى جئتَ إلى هنا يا تيجر؟»

أجاب القسيس: «منذ نحو ثلاث سنوات.»

قال إيجناتيوس: «حسنًا. أعتقد أنكَ إذا كتبت رسالةً إلى إحدى بنات مارتنز، ستضع اسمها الأول على الظرف تجنُّبًا لأي خلط، أليس كذلك؟»

أجاب: «بالطبع. فالجميع هنا يُنادونهنَّ بأسمائهن الأولى. فهنَّ فتيات لطيفات ويتعاملنَ بلا رسميَّات.»

هبَّ إيجناتيوس واقفًا وقال: «هذا كل ما في الأمر»، ثم خرج من غرفة الطعام وهو يتناول شطيرةً بشهية. سأل: «أتريد أن تعلَم أين كنتُ؟»

«أجل.»

«حسنًا، ستعلم قريبًا.»

ظل القسيس صامتًا، لخوفه مما قد يسمعه من ناحية، ومن ناحية أخرى لرغبةٍ مشوشة لدَيه في اختبار قوة شخصيته. وحدَّث نفسه بأنه إذا عجز عن تحمُّل الترقُّب وعذابه، لفترة محددة من الزمن، فما هو إلا جبان ضعيف.

علاوة على ذلك، لاحظ القسيس الحالة المِزاجية غير البشرية التي تلبَّست إيجناتيوس، حيث بدا أشبهَ بأحدِ عناصر الكون الأسطورية، وأقدم من التلال نفسها.

أراد إيجناتيوس عرض ما سوف يقوم به، لاهيًا عن أي شيءٍ حوله في الطبيعة، على غرار مُخرج استعراضٍ مسرحي. قاد إيجناتيوس الطريق، وهو يحشر شطيرة أخرى في فمِه، إلى السيارة المنتظرة حيث أملى أوامره على السائق.

قال: «إلى «ذا كورت».»

جلس القسيس صامتًا يتفصَّد عرقًا، في أثناء الجولة القصيرة بالسيارة. وعندما بلغا المنزل، طلب إيجناتيوس من الخدم رؤية الآنسة بروك. وانتظر هو والقسيس في غرفة الاستقبال، حيث نظرا من نوافذها الضخمة إلى حديقةٍ مُنسَّقة، تزدهر فيها زهور سيف الغراب بدلًا من السوسن. بعد برهة من الزمن، ركضت جوان إلى الغرفة ووجهها يشعُّ ترقبًا ولهفة.

سألت، وهي تنظر إلى القسيس، في لهفة: «هل أردتَ مقابلتي؟»

قال إيجناتيوس: «أنا مَن طلبتُ مقابلتك. ألديك آلة كاتبة محمولة؟»

أجابت: «هاه ... أجل.»

قال: «إذن هلا أحضرتِها إلى بيت القسيس في صباح الغد للقيام ببعض أعمال السكرتارية الخاصة والسرية؟» فحدقت جوان إليه في دهشة.

أجابت: «لا أجرؤ على طلب الإذن بذلك من ليدي دارسي.»

قال إيجناتيوس: «ستوافق إذا علِمَت بالظروف الحالية. أريدكِ — بمساعدة القسيس — أن تنسخي عدة نُسَخ من اعتراف الشخص الذي كان يكتب الخطابات المجهولة، وتُرسلي نسخةً لكلِّ شخصٍ في القرية.»

فغرت جوان فاها، واتسعت عيناها في ذهول. وشهقت وهي تقول: «أتعرِفه؟ مَن هو؟»

نظر إليها إيجناتيوس وعلى مُحيَّاه ابتسامته العريضة القديمة المُتغضِّنة.

قال: «ستعلمين بالغد. ليكن عزاؤك أنك ستحصُلين على الطبعة الأولى من الخبر قبل أي شخصٍ آخر في القرية.»

أبدت جوان إيماءة تبرُّم وسخط.

وقالت: «ولكن لا أُطيق الانتظار.» وأومأت ناحية القسيس وسألت: «أيعلم هو؟»

أجاب إيجناتيوس: «لا، لذا لا تحلمي بالحصول على تلك المعلومة منه. لكن، في القريب العاجل، سيأتي معي للقاء السيدة المُتهمة في القضية.»

نظرت جوان إلى إيجناتيوس في انتباهٍ وبدأ يلوح في عينَيها نظرة فزع، وقالت: «سيدة؟ يا إلهي! أستطيع تخمين وجهتِك المقصودة.»

ردَّ إيجناتيوس: «أجل، أعرف ذلك.»

«هذا مُرعب ... لكن يبدو وكأنني كنتُ أعرف الحقيقة منذ البداية.»

قال إيجناتيوس: «أجل، لقد كنتِ تقِفين في الكواليس. أتذكُرين الليلة التي تجوَّلنا فيها في القرية؟ بالمناسبة، لقد أعطيتِني تلميحًا مفيدًا.»

سألت: «أنا؟ متى ذلك؟»

أجاب: «عندما أشرتِ إلى أهمية الانطباع الأول.»

تهلَّل وجه جوان وهي تنظر إلى القسيس وقالت: «أنا مسرورة لأنني كان لي ولو بعض النفع. لكن لا أصدق أن القرية ستعود إلى سابق عهدها حقًّا.»

أعلن إيجناتيوس: «في غضون أسبوع ستنجبِر حلقتُك الاجتماعية المكسورة مرة أخرى.»

هتفت جوان: «رائع جدًّا! ستعود الأيام الخوالي. وندين لك بالفضل والشكر في ذلك.»

كان القسيس يعلم ماذا تعني بكلامها. فقد انخفض الحاجز الذي كان يقف حائلًا بينهما. ولم تكن ابتسامة جوان سعيدة فحسب بل مُسيطرة وتملُّكية أيضًا. فشعر بالحيرة والارتباك أمام هذه الدفقة المفاجئة من الحظِّ السعيد.

أعاد صوت إيجناتيوس الحادُّ العاشقَين إلى أرض الواقع.

قال: «ليس هناك ما أشكرك عليه، على أي حال، يا آنسة بروك. لقد ضلَّلتِ الآنسة كورنر التحقيق في المرَّة الأولى، وأنتِ في الثانية. كانت كذبتك غبيةً وخطيرة في آنٍ واحد. كان من المُمكن أن تُوقعكِ في ورطةٍ خطيرة. لا شكَّ أنك كنتِ خائفةً من خسارة وظيفتك. أليس كذلك؟»

عضَّت جوان على شفتَيها في تردُّد، فحاول إيجناتيوس طمأنتها.

قال: «لقد زال الخطر الآن؛ فلن يخرُج شيء من باب هذه الغرفة. بالإضافة إلى أن جدَّتُكِ رحلت عن الحياة منذ أمدٍ بعيد ... لماذا كتبتِ الخطاب المجهول للسيدة بومفرت؟»

اصطبغت ابتسامة جوان بجرأة مفاجئة.

وقالت: «خلتُ ذاكرتك ستُمدُّك بالإجابة. ألا تذكُر المرة الأولى التي الْتقَينا فيها عندما قصصت عليَّ قصة عن كلب؟»

أجاب: «أجل. كانت من تلفيقي.»

علقت جوان: «حقًّا؟ هذا مُسلٍّ، لأنها أعطتني نصيحةً مفيدة. كانت السيدة بومفرت تُجوِّع خادمتها الشابة. أخبرتُك بذلك عندما التقَينا بها، في مساء ذلك اليوم.»

أخفى إيجناتيوس انزعاجَه.

وقال: «هذا صحيح. لقد تحدَّثَت السيدة بومفرت عن اتهامٍ بغيض لا أساس له من الصحة. أكان خطابك جارحًا؟»

أجابت جوان: «بالطبع لا. كتبتُه مثل سيدة تخاطب سيدة أخرى. تظاهرتُ أنني إحدى صديقاتها. قلت إنني شعرت بالاستياء من الشائعات المُشينة والكاذبة المتداولة في القرية حول شحوب إيدي ونحولها. أخبرتها أنني لم أُصدِّق أيًّا منها، شخصيًّا، لكني فكرت أن من واجبي أن أخبرها بالأمر.»

قاطعها القسيس قائلًا: «لكنكِ تتَّهمينها اتِّهامًا شنيعًا يا جوان. السيدة بومفرت آخِرُ شخصٍ يمكن أن يُعامل فتاة بقسوة.»

نظرت جوان إلى إيجناتيوس نظرة عابسة ذات مغزًى.

وسألته: «ماذا قلتُ لك؟ لن يُصدِّق أحد الأمر. لكن الأمور على ما يُرام الآن. ما حدث كان خطأً وصُحِّح. وهي أيضًا فزعت من الاتهام ... كانت كذبتك موفقةً يا سيد براون.»

قال إيجناتيوس: «وكذبتكِ أيضًا. فقد منحتني فرصةً لإدراك معدنك الحقيقي. عمتِ مساءً يا آنسة بروك.»

غادر إيجناتيوس الغرفة كي يمنح القسيس الفرصة لوداع جوان على انفراد. وعندما نزل القسيس درج الرواق المُعمَّد — بوجهٍ وقلبٍ مُثَّقدَين كالجمر — سرَت في جسده قشعريرة عندما سمع الوجهة التي أمر إيجناتيوس السائق بالتوجُّه إليها.

«إلى سباوت مانور.»

بدت الرحلة إلى هناك للقسيس كابوسًا خياليًّا، وكانت دلالة العنوان صادمة وبعيدة عن التصديق. عادت إلى ذاكرته تلميحات قديمة سمِعها في السابق، لكنها صارت مُحمَّلة بمعانٍ قبيحة. وما كانت عينا جوان المُتسعتان وشفتاها الفاغرتان إلا دلالة على معرفتها بما يعرفه إيجناتيوس، أمرٌّ هذه الذكريات وأقساها.

فكَّر القسيس أنه فقد الكثير من مُثله العُليا، وعانى أشدَّ المعاناة من خيبة الأمل. لذلك لن يُطيق أن يشهد سقوط قديسةٍ من عليائها.

بدأ الليل يرخي سدوله والنهار ينقضي بزخةٍ خفيفة من المطر. وصل القسيس وإيجناتيوس إلى قصر «سباوت» وسط شفَقٍ رطب. وبدا المنزل القديم خاويًا بلا أي بصيصِ ضوء؛ وبينما كانا ينتظِران أن يُفتح لهما الباب، سمِعا خرخرة الماء الحبيس في كل مكانٍ من حولهما.

بدا المكان مسكونًا بالخطيئة والمعاناة. وعندما فتحت خادمة الاستقبال النحيفة الباب، تراجع القسيس، الذي كان قد وصل إلى أقصى درجات الجلد، إلى الخلف كأن هناك ما يلوث الأجواء داخل القصر.

أحسَّ القسيس أن القصر القديم تعيس ومريض مرَض الموت. لقد ذهبت عنه سكينتُه، ولم يعُد يحلم بأيام الماضي مِثله تمامًا.

قادتهما روز إلى غرفة الاستقبال المكسوَّة بالألواح الخشبية، والتي كانت خانقةً بسبب غياب التهوية إلى جانب أنها كانت دافئةً ورطبة. كانت جميع المصاريع مُوصدة بإحكام، وراحت نار خافتة تحترق ببطءٍ في موقد البيت المعدني المنخفِض.

كانت السيدتان تجلسان في مكانيهما المُعتادين، حيث جلست الآنسة أسبري في بقعة من الضوء، والآنسة ماك في الظلام. رفعت كلتا السيدتَين رأسها عندما دخل الرجلان، لكن قبل أن تتفوَّه الآنسة أسبري بكلمةٍ واحدة، اتَّجه إيجناتيوس نحو الآنسة ماك وناولها الظرف الذي أعطته له فيفيان.

قال: «هذا لكِ.»

نظرت إليه الآنسة ماك بابتسامتها الهادئة المُعتادة. كان لوجهها اللامع وعينَيها الزرقاوَين الصافيتَين الهادئتَين أثرهما على القسيس؛ إذ ذكَّرته بالدُّمى الخزفية. بعد ذلك، ألقى القسيس نظرة سريعة على الآنسة أسبري، ولاحظ كيف برزت عروق يدَيها مثل الحبال المُنتفخة وهي تقبض على ذراعي مقعدِها.

كانت وضعية الآنسة أسبري المتوترة وتعبير وجهها الجامد يشهدان بوضوح على شدة خوفِها. بدت كأنها تترقَّب نزول صاعقة عليها ستُدمِّرها.

أخذت الآنسة ماك الظرف وتفقَّدته بسرعة، ثم اتجهت صوب مقعد الآنسة أسبري.

قالت: «هذا لكِ.»

سرَت رجفة عنيفة في جسد الآنسة أسبري، تركتها جامدة مُتخشِّبة، كأنها صُعقت بتيارٍ كهربائي سلبها حياتها.

كسر صوت إيجناتيوس الحاد حاجز الصمت.

قال: «كنتُ أنتظر أن تخطي الخطوة الخاطئة يا آنسة ماك. وقد فعلتِ عندما وجهتِ ذلك الخطاب إلى «الآنسة كيه مارتن». أي ساكن في القرية لم يكن ليقع في مِثل هذه الزلَّة؛ لأن أسماء الشقيقات الأربع تبدأ بالحرف نفسه.»

ظلَّ وجه الآنسة ماك خاليًا من أي تعبير، في حين واصل إيجناتيوس تفسيره. قال: «كانت عائلة مارتنز بالخارج عامَين؛ لذا فإن الشخص الذي أرسل الخطاب لا بدَّ أنه قد مضى على إقامته بالقرية أقلَّ من عامَين. وبطبيعة الحال كان هذا الشخص سيفترِض أن السيدتَين الموجودتَين في منزل «تاورز» في الوقت الحاضر هما «الآنسة مارتن» و«الآنسة كيه مارتن» على التوالي، لا سيما وأنه لم يتعرَّف عليهما بشكل رسمي.»

ردَّت الآنسة ماك بلا اكتراث: «ربما كان الخطاب مُرسلًا لأي واحدة منهن. فجميعهنَّ يتفاخرنَ بصفقاتهنَّ الرابحة.»

علَّق إيجناتيوس: «ملحوظة ذكية. لكن ... مِن أين عرفتِ بمحتوى خطابهنَّ المجهول؟»

لم تحاول الآنسة ماك تبرئة نفسها؛ إذ ظلت سيدة الموقف بفعل ابتسامتها الهادئة.

سألت الآنسة ماك: «لماذا جئتَ إليَّ تحديدًا؟ فالآنسة بروك حديثة العهد بالقرية مقارنة بي.»

ردَّ إيجناتيوس: «ملحوظة ذكية أخرى. لولا أنني أمتلِك نموذجًا لخطِّ يد الآنسة بروك. عُدت للتوِّ من لندن، حيث سلَّمت ظرف الآنسة بروك، والذي بين يديَّ الآن، لأحد المُختصِّين في خطوط اليد. وقد جزم المُختصُّ بأن الآنسة بروك لم ترسِل هذا الظرف.»

قالت الآنسة ماك وهي تحاول بصعوبة الإفلات من المصيدة من جديد: «بالطبع لا. هي من كتبته.»

وأشارت إلى الآنسة أسبري، التي جلست في مقعدها، شاحبة ومُتخشبة مثل امرأة ميتة.

سأل إيجناتيوس بهدوء: «هل يمكن إثبات ذلك؟»

أجابت الآنسة ماك: «يُمكنني إثبات أنها من كتبت الخطاب الأول، الخطاب المرسَل إليها. لقد بدأت الآنسة اللعبة مع نفسها، حتى لا تُثير شكوك أحد. لكني أملك نسخةً من الخطاب مكتوبة بخطِّ يدِها. وعندما يراه الناس هنا، سيعلمون مَن كان يرسل هذه الخطابات، وساق عائلة سكودامور والآنسة كورنر إلى حتفِهم.»

تقلَّصت عضلات الآنسة أسبري مرة أخرى فصارت هادئةً حدَّ التجمُّد. نظرت الآنسة ماك إلى مخدومتها، في حين واصلت الحديث.

قالت: «ستُجبَر على الرحيل من القرية. الجميع يعلم أن لا أحد يكتب خطابًا لنفسه، يقول فيه إن حقيقته تُخالف ظاهره، إلا إذا كان لدَيه سِرٌّ يُخفيه.»

نظر القسيس إلى الآنسة أسبري، وانتظر أن تُنكر التهمة. لكنه شعر بخيبة الأمل من منظرها المُثير للشفقة؛ إذ انعكس على وجهها شعورها بالخِزي والذنب. كان وجه الآنسة الشاحب قرمزيًّا، وعيناها مطرقتَين، وارتجفت أصابعها وهي تُحاول أن تُمسك بذراعي مقعدها.

نظر إيجناتيوس إليها أيضًا، وهو يتحدَّث بصوتٍ لم يخلُ من مسحة احترام.

قال: «أجل، لا أحد يُمكنه أن يكتب مِثل هذا الخطاب إلا الآنسة أسبري، مثلما قلتِ يا آنسة. ولا جدوى من أن أحاول أن أشرح لكِ مدى طُهر نفسٍ لا تحمل من طبائع الدنيا مثقال ذرة، وكأنها تنتمي إلى دُنيا الملائكة وكبرائهم. والآنسة أسبري لا تقنع بما هو أدنى من الكمال، وهذا مما تعجز عنه الطبيعة البشرية. وليس لها مثالب في شخصِها؛ لذا أثقلت نفسها بالتفكُّر في آثام الآخرين.»

وبينما كان القسيس يُنصت إلى الحديث الدائر، خشِيَ أن يكون إيجناتيوس قد تعدَّى حدود السذاجة؛ إذ لا يمكن لأحدٍ أن يتقبَّل مِثل هذا المدح المبالَغ فيه.

لكن أصابته استجابة الآنسة أسبري بالدهشة؛ إذ سرعان ما تفاعلتْ مع هذه الجرعة المُفرطة من الثناء. ففي غضون جُملتَين اثنتَين، اختفى شعورها بالخزي والذنب، واستعادت هدوءها ومهابتها.

اتضح للقسيس أن إيجناتيوس يعرف بالضبط كيفية التعامُل مع الموقف الحسَّاس، لذا لم يعد قلقًا بشأن مآل الأمور، وراح يتابع المبارزة الكلامية بينه وبين الآنسة ماك باهتمامٍ شديد. لم يكن ثمة شك في أن محاولة الإيقاع بالآنسة ماك ستكون في غاية الصعوبة؛ إذ كان عدم اكتراثها البادي في ابتسامتها الهادئة يُخرجها من أي مصيدة مثل الشعر من العجين. ولم تحاول الآنسة ماك تبرئة نفسها، واكتفت بتحدِّي إيجناتيوس بأن يُثبت جرمها؛ إذ كانت تثِق في قدرتها على الإفلات من أي فخ.

قال إيجناتيوس: «أنا سعيد لأنكِ ذكرتِ مسودة الخطاب الأول. كنتُ سأفتح هذا الموضوع بنفسي. أعلم أن لديك المسوَّدة بكل تأكيد ... وأنا أريدها من فضلك.»

ابتسمت الآنسة ماك وقالت: «وأنا أيضًا. هل لدَيك لي عرض؟»

«أجل.»

«وما السعر الذي ستدفعه لي في مقابل ذلك؟»

«وعْد من الآنسة أسبري بألَّا تُقاضيك.»

سألت الآنسة ماك وهي ترفع حاجبَيها الأشقرَين: «تُقاضيني؟»

«بأي داعٍ؟»

«بداعي الابتزاز.»

«كيف علمتَ بذلك؟ فالآنسة أسبري لا تكتب لي أي شيكاتٍ باستثناء شيك راتبي.»

خشي القسيس أن يكون إيجناتيوس هو الذي تلقَّى ضربةً قاضية. لقد كان في مواجهة عدوٍّ غير ملموس لا يقوى على قتاله؛ وهو روح القرية التي كانت تكرَه الكشف عن أي مسائل شخصية. كان الرجل الضئيل يُدرك هذه الحقيقة، وبدت ثِقته بنفسه مبالغًا فيها نوعًا ما، وهو يستميل الآنسة أسبري.

قال: «سأحصل على شهادة الآنسة أسبري بأنها دفعت لك مبالِغ مالية، من وقتٍ لآخر، كي تشتري صمتك. وستكون كلمتُها في مقابل كلمتك.»

هزَّت الآنسة أسبري في كبرياء باردة.

وقالت: «أنا آسفة، لكنني أفضل ألا أفعل شيئًا من هذا القبيل.»

سكت إيجناتيوس هنيهة، قبل أن يلتفت إلى الآنسة ماك، وهو يشعر بالثقة من جديد.

قال: «في هذه الحالة، يا آنسة ماك، فأنت مسئولة عن تبرئة نفسك. يُمكنكِ أن تُطلعينا على دفتر التوفير البريدي، لنرى هل تتوافق المَبالغ التي تُودعينها في حسابك مع راتبك الشهري.»

فهمت الآنسة مقصده، إذ هزَّت رأسها بدورها.

وقالت: «لا. كما أنه لا جدوى من ذلك. فلديَّ مسودة الخطاب. وهي لا تُريد أن يعرف أصدقاؤها أنها من كتبته.»

سرت تلك القشعريرة العنيفة في جسد الآنسة أسبري مرةً أخرى، لتُمزِّق هدوءها الخارجي. فتحدث إيجناتيوس بنبرة ثقةٍ هادئة لطمأنتها.

قال: «لن يعلم أحد على الإطلاق. فقد لجأت الآنسة أسبري إلى كرسي الاعتراف. ولن يخذلها.»

والتفت إلى الآنسة ماك.

وقال: «هذا عرضي لكِ. لقد اعترفتِ ضمنيًّا أنكِ تتعاملين مع مكتب البريد في معاملاتك المالية، مما يعني أن الأموال التي دفعَتْها لك الآنسة أسبري لا يمكن أن تتخطَّى رقمًا بعينِه. وأعتقد أن الآنسة أسبري ستُفضِّل تجاهل خسارتها المادية عن التعرُّض للمُضايقة.»

أحنت الآنسة أسبري رأسها المهيب علامة الموافقة.

واصل إيجناتيوس كلامه: «لذا لن تُقاضيك. ستنقلكِ سيارتي إلى لندن الليلة، وستتركك في نُزل سانتا مونيكا للسيدات حيث سيكونون في انتظارك. هناك سيوفرنَ لكِ وظيفةً مجزية وسهلة. فنحن نأخذ في الاعتبار الظروف الغريبة المُحيطة بوضعك. وستواصل الآنسة أسبري عنايتها بك، لكن من بعيدٍ وبشكلٍ غير مباشر. وأُحذرك من أن أفعالك ستكون خاضعة للمراقبة؛ لذا من الأفضل أن تكوني أكثر حيطةً في المستقبل. أليس هذا العرض جيدًا وسخيًّا؟»

أجابت الآنسة ماك: «أجل.»

قال إيجناتيوس: «فكري في السيناريو البديل. سيَنفَد مالك في القريب العاجل. كيف سيكون مُستقبلك بلا أصدقاء ولا وظيفة ولا توصية حينئذٍ؟ كما أنكِ لستِ جذَّابة بما يكفي لحياة الليل، ولا بارعة بما يكفي لحياة الجريمة. ستعودين إلى حيث كنتِ قبل أن تُصاحبكِ الآنسة أسبري ... امرأة فقيرة مُعدمة.»

وافقته الآنسة ماك: «أجل.»

واصل إيجناتيوس: «يسعدني أنكِ تتصرَّفين بعقلانية. في المقابل، سأطلب منكِ شيئًا واحدًا فقط، وهو مسوَّدة خطاب الآنسة أسبري، مع توقيعك على هذا الاعتراف ... هل تودِّين قراءته أولًا؟»

ردَّت الآنسة ماك: «أجل، إذا سمحت.»

تناولت الآنسة ماك الورقة المطبوعة، وتفحَّصتها بتأنٍّ، قبل أن تُعيدها إلى إيجناتيوس.

قالت: «أنت تريد شيئًا مقابل لا شيء. أشكرك. لن أرحل. يُمكنني إطلاع العمدة على المسوَّدة. أجزم أن الآنسة أسبري ستُفضل بقائي معها على أن أفعل ذلك. أليس كذلك يا آنسة أسبري؟»

أجابت الآنسة أسبري بنبرة مُنخفضة: «أجل.»

ظنَّ القسيس الذي كان لا يعرف الأوراق الرابحة التي في جعبة إيجناتيوس أنه قد هُزم. لكن كان الرجل الضئيل قد احتفظ بالأوراق الرابحة إلى نهاية اللعبة.

قال إيجناتيوس: «لا، سترحلين الليلة. هناك أمر آخَر لم أذكُره بعْدُ. لقد أخفت الآنسة أسبري مِهنتك الماضية، في تصرُّفٍ نبيل في غير محلِّه. لذا ستكونين شاهدة غير

جديرة بالثقة، وهدفًا للنقد والتقريع. وحينئذٍ لن يُصدِّق أحد كلامك في مقابل كلام الآنسة أسبري.»

أبدت الآنسة أسبري معارضةً حادة لذلك.

قالت: «لا يا سيد براون. لن أسمح بحدوث ذلك. فليس من مبادئي إذلال الساقطات. هذا سرِّي ... وسرُّها.»

ذكَّرها إيجناتيوس: «يُمكنكِ التصرُّف كما يحلو لك فقط لو كنتِ تملكين السرَّ وحدكِ. لكني أخذت على عاتقي مهمة التفتيش عن ماضي هذه السيدة المُثيرة للاهتمام. وسأكشف عن ماضيها من أجل الصالح الأخلاقي العام، إذا رفضت الآنسة ماك أن تُصغي لصوت العقل.»

حافظت عينا الآنسة ماك الزرقاوان الصافيتان على هدوئهما في حين جلست تُفكر في كلامه. وسرعان ما ابتسمت لإيجناتيوس.

قالت: «لقد عرضتَ عليَّ السفر إلى الخارج. وأرغب في قبول عرضك والانضمام إلى تلك النسوة.»

كانت غطرستها الشديدة مُسلِّية للغاية لإيجناتيوس، حتى ظنَّ القسيس للوهلة الأولى أنه سيرضخ لطلبها. لكن مِثل هذه الاستجابات المُتسرعة لم تكن من شِيَمه.

قال إيجناتيوس، وهو يدير السكين على رقبتها بقسوة مُتعمَّدة: «دعيني أتذكَّر. تقصدين التنقل المريح السهل والطعام الفاخر. مَعذرة يا آنسة ماك، لكن الفرصة لا تطرُق الباب إلا مرةً واحدة ... ليكن في ذلك تحذير لك من رفض عرضي الثاني.»

قالت الآنسة ماك بهدوء: «سأوقِّع.»

أخرج إيجناتيوس قلَمَ الحبر السائل من جيبه، ووقف فوق الآنسة ماك، يُراقبها وهي تجرُّ القلم على الورقة بثباتٍ وتأنٍّ، موقعةً على الاعتراف باسمِها.

قال: «أشكركِ. كم ستستغرقين من الوقت في حزم أغراضك؟»

أجابت: «عشرين دقيقة.»

قال: «سأمنحك نصف ساعة لحين وصول السيارة.»

قالت: «حسنًا ... هل سائقك متزوِّج؟»

تسللت ابتسامة ساخرة إلى شفتَي إيجناتيوس، مرة أخرى، لهذا الاحترام الزائد.

أجاب: «لا، لكنه في غاية الاحترام. يُمكنك الوثوق به ... أحضري المسوَّدة عند نزولك إذا سمحتِ.»

تفقد إيجناتيوس ساعة معصمه، في حين خرجت الآنسة ماك من الغرفة بخطواتٍ خفيفة في خضوع.

قال إيجناتيوس: «إذا سمحتِ لي يا آنسة، أرغب في مرافقة الآنسة ماك إلى حدود القرية. أخشى أن مبادئ العدالة الصارمة والأخلاق لا ترضى بالتسوية التي أجريتُها، لكن هذا أفضل ما يُمكنني فعله في ظلِّ الظروف الراهنة.»

ردَّت الآنسة أسبري: «أشكركَ على ما أظهرته من كياسة وصبر.»

قال إيجناتيوس: «اتفقنا. أيُمكنني فتح النوافذ؟»

أجابت: «أرجوك أن تفتحها. وعلى مصراعَيها.»

انتظر إيجناتيوس القسيس كي يفتح المصاريع. وتنفَّست الآنسة أسبري الصعداء عندما اجتاح هواء الليل الغرفة في صورة هبَّةِ ريح ماطرة.

سأل إيجناتيوس ليكسر جوَّ الصمت المُربك: «هل سافرتِ إلى فلسطين من قبل يا آنسة؟»

أخبرته الآنسة أسبري أنها قد سافرت إلى الأرض المقدسة في شبابها، وانقضت فترة الانتظار في تبادل خبرات السفر والمُقارنات. وبعد برهةٍ من الزمن، عادت الآنسة ماك، ترتدي معطفًا من التويد مُزرَّرًا، في مظهرٍ جذَّاب متواضع.

قالت الآنسة ماك وهي تناول إيجناتيوس ظرفًا مُغلقًا: «تفضل. إلى اللقاء يا آنسة أسبري. وأشكركِ على حُسن معاملتك.»

وقبل أن تصِل إلى الباب، ناداها إيجناتيوس.

قال بسلاسة وهو يمدُّ يدَه بالورقة التي انتزعها من الظرف: «دقيقة واحدة، من فضلك، يا آنسة ماك. يبدو أن هناك خطأً صغيرًا. هذه ليست النسخة الأصلية من المسوَّدة. أعترف أنها نُسخة تُشبه الأصل تمامًا، لكن بها بعض السِّمات الدقيقة التي لاحظتُها في توقيعك منذ قليل ... أريد المسودة الأصلية إذا سمحتِ.»

فتحت الآنسة ماك حقيبة يدِها الكبيرة، بابتسامةٍ لم تفارق شفتَيها، وسلَّمته ورقة ثانية — مُتسخة ومتغضِّنة — وقبِلَها بعدما تفحصها بعناية.

قال إيجناتيوس وهو يُسلم الورقة إلى الآنسة أسبري: «هذه ملككِ.» ثم التفتَ إلى الآنسة ماك.

وقال وهو يفتح لها الباب ويتبعها إلى خارج الغرفة: «اسمحي لي بمُرافقتكِ إلى السيارة.»

تحدث القسيس إلى الآنسة أسبري بعدما صارا بمُفردهما في الغرفة. وسألها بلهفة: «أتسمحين لي بحرق المسودة؟»

أجابت: «أجل، من فضلك.»

لقَّم القسيس النار المُحتضرة بالورقة بأصابع مرتعشة. وبينما كان يراقب اشتعال الورقة واستحالتها إلى رماد، تردَّدت أصداء تنهيدةٍ في جنبات الغرفة.

كانت تنهيدة قديسة صارت آمنةً مطمئنة في عليائها.

الفصل الثالث والثلاثون

# تفسير إيجناتيوس

كان المطر يهطل بغزارة عندما عاد الرجلان من «سباوت مانور»، وبدت غرفة المكتب خالية من مظاهر البهجة، فشرع القسيس يُشعل المدفأة بأعواد الثقاب. وكاد يشعل المصباح لولا أن أوقفه إيجناتيوس.

قال: «لا. أريد أن أحكي لك حكاية. والحكايات الشيقة ينبغي روايتها حول النيران.»

انتفش الرجل الضئيل زهوًا وفرحًا، مما جعله ينتبِه إلى جميع المؤثرات الدرامية من حوله. جلس إيجناتيوس مُنحنِيَ الظهر في مقعده الضخم، يُعانق ركبتَيه اللتين أسند عليهما ذقنه البارز، فبدا مثل قزم خرافي يسترِق النظر من بين جذور شجرة بلوط جوفاء.

خفق وهج النيران على وجه إيجناتيوس المُجعَّد، فأبرز أجزاءه الغائرة، وضخَّم المكر الذي في ابتسامته. لوَّح إيجناتيوس بأصابعه في الهواء كي يلتزم القسيس الصمت.

قال: «لا أريد أسئلة، من فضلك، إلا إذا كانت ضرورة حتمية للفهم.»

وسكت إيجناتيوس، كي يخلُق جوَّ الإثارة اللازم، قبل أن يشرع في الحديث.

قال: «تتذكَّر مرَض العمدة، وكيف أن السمَّ سرى في جسده لاختلاطه بالجيلاتين بطريق المصادفة. آنذاك، فكَّرتُ باحتمالية وجود تشابُهٍ بين حالته المرضية وبين مشكلتك البسيطة. وقد كنت محقًّا.

كانت الآنسة ماك هي السُّمُّ في مشكلتنا؛ فقد مكثت في القرية لما يقرُب من العامَين ومع ذلك كانت إضافةً سلبية. فهي بطبيعتها قاسية، منعدمة الضمير، ناكرة الجميل، خائنة للأمانة، وليس لديها وازع أخلاقي، وقلبها مُغلق لا يعرف الخِزي إليه سبيلًا.

لكنها غبية لحُسن الحظ؛ لذا لم تعرف كيفية تحرير — أو دعنا نقول تسويق — الشر الذي بداخلها.» ثم توقف إيجناتيوس عن سرد قصته، للاستطراد.

قال: «لهذا غرقت الآنسة ماك في الابتزاز العشوائي لاحقًا. كان لينجم عن هذه السياسة أمور خطيرة، بكل تأكيد، وكنت أتوقَّع أن تتبنَّاها الآنسة بروك لو أنها اختارت أن تحيد عن جادة الصواب بدلًا من أن تكون فتاةً في غاية اللطف. لكن الآنسة بروك لديها الطباع التي لا تمتلكها الآنسة ماك.

واستكمالًا لقصتي، ظلَّت الآنسة ماك مثل سُمٍّ خامل في جسد القرية؛ ولكن حتى وهي في طورها المُحتقن ذاك، أظهرت قوتها الشريرة. فالآنسة ماك لديها إرادة لا تعمل بالضغط بل بالسحب وجذب الناس إليها دون وعيٍ منهم. وأعتقد أن البعض منكم قد اختبر قوتها الاستنزافية، التي نُسبت إلى الآنسة أسبري بطبيعة الحال؛ بوصفها سيدة «سباوت مانور». فمَن قد يخطر بباله أن يُخمن أن تلك المرافقة الضئيلة المُتواضعة التي تجلس بخنوع في زاويتها يمكن أن يكون لها مثل هذا التأثير المُخدِّر الذي يستنزف الآخرين، كما في حالتنا تلك؟

لكن طوال الفترة التي عاشتها الآنسة ماك مع الآنسة أسبري، كانت إرادتها القوية تفرض سيطرتها على مخدومتها شيئًا فشيئًا، رغم أنها لم تستغلَّها إلا في طلَب خدمات بسيطة، مثل وجبات الطعام الخاصة، والرفاهيات، وتقليل مهامٍّ عملِها إلى الحد الأدنى، بسبب افتقارها للذكاء. وبعد ذلك، ذهبت الآنسة ماك إلى مدًى أبعد، حين أجبرت الآنسة أسبري على الإذعان لرغبتها وإغلاق النوافذ بسبب كراهيتها للهواء المُنعش. لكني أعتقد أن الآنسة أسبري لم تُدرك الوضع الحقيقي في البداية.

والآن يجب أن أزوِّدك ببعض المعلومات عن شخصية الآنسة أسبري الحقيقية. الجميع يعتقد أنها قديسة. هي في الحقيقة تكاد تكون كذلك؛ لما تتَّسِم به من إيثار وعطاء وتديُّن وخلو من الخطايا إلى حدٍّ استثنائي ... لكنها لديها عيب بشري واحد وهو الغرور. فهي تُحب احتفاء الناس بها. ولا تطيق أبدًا أن تتعرَّض للفضيحة أو السخرية.

لقد عانت الآنسة أسبري، منذ طفولتها، من إعاقة أخفتها تحت ستارٍ من التقشف الصارم وضبط النفس المُتقن. إنها ضحية العاطفية الحادة. فقد تعرضت لانهيارٍ عصبي في المدرسة مرَّة، وعندما أُجبرت على التخلِّي عن عملِها الإغاثي مرة أخرى.

واصلت الآنسة أسبري جهودها في مساعدة الآخرين رغم إجبارها على الانسحاب من العمل الإغاثي. فقدمت المأوى كرمًا منها إلى جيرترود ماك التي أمضت للتوِّ فترة عقوبة في السجن بتهمة السطو على المتاجر. كانت في غاية اللطف مع الآنسة ماك، لكنها كانت رسميةً جدًّا في تعاملها على ما يبدو. هذا استنتاج منِّي. فقد كانت الآنسة أسبري تتعامل

مع شخصياتٍ منحرفة للغاية. ولا شك أن الآنسة ماك نفرت من مُعاملتها. لكنها، طوال ذلك الوقت، بينما كانت تبدو خانعة بلا إرادة، كانت تستنزف قوى الآنسة أسبري العقلية حتى حوَّلتها إلى كتلةٍ رخوة ضعيفة.

لكن ... ظلَّ السُّمُّ خاملًا.

وسرعان ما بدأت الآنسة ماك تعود إلى عادتها القديمة. فكانت تسرق أشياء عديمة القيمة من الخادمات، وفي إحدى المناسبات، سرقت دبوس زينة من الآنسة بروك. ولم تكن الآنسة أسبري لتقدم على تسليمها للعدالة؛ لأنها خشِيَت بالطبع أن تدمر الفضيحة أي فرصة للآنسة في حياة جديدة. لذا، من أجل حماية أصدقائها من سرقاتها، اضطرَّت إلى تقييد حُريتها. وهكذا بدأت الآنسة ماك تكرَه مخدومتها ... وفي تلك المرحلة أتيتَ أنتَ يا صديقي.»

هتف القسيس: «أنا؟»

ردَّ إيجناتيوس: «لقد طلبتُ منكَ ألا تقاطعني ... أجل، أنت يا صديقي الضخم، بما لديك من جسد قوي، وتأثيرٍ سحري مثل التنويم المغناطيسي، وصوت جهوري مثل الرعد. لا ألومك بالطبع. فلو لم تُمهد الآنسة ماك الطريق لكَ وتركت الآنسة أسبري ضعيفةً مثل جوزة فارغة، لوجدت الآنسة أسبري متعةً روحيةً ومنافع شتَّى في مواعظك الدينية الحماسية.

لكن، في ظل الظروف الراهنة، سقطت كلماتك على أرضيةٍ من الهستيريا المُشتعلة بداخلها. لقد دفعتَ تلك الروح المسكينة المُنهكة لاتهام نفسها بذنبٍ لم تقترفه. ربما كانت تُعاني أيضًا من القلق بسبب الكبت؛ أو ربما أثرت بعض الرواسب المُتبقية من عملها الإغاثي.

على أي حال، صارت الآنسة أسبري مذنبةً بائسة ملعونة، لا تجد وسيلةً لتطهير نفسها من الذنب. كانت ترغب في بديلٍ لكرسي الاعتراف ... فسلكت مسلكًا استثنائيًّا بأن كتبت لنفسها خطابًا مجهولًا، تتَّهِم فيه نفسها بخطيئةٍ وهمية؛ ذاك الخطاب الذي أطلعتْكَ عليه. وعندما منحتها الغفران — إن جاز التعبير — مرَّت الأزمة. هكذا أخرجت الآنسة السُّمَّ من جسدها؛ ولهذا نجحت خطتها في نهاية المطاف.

لكن لسوء الحظ، روَّج أحدهم شائعاتٍ وانتشر موضوع الخطاب. حامت الشبهات حول الآنسة كورنر، فكتبت لنفسها خطابًا بدَورها، كي تُثبت أنها الضحية لا المُجرم. وللأسف الشديد، قضت الآنسة كورنر نحبَها؛ إذ كانت شاهدة مُهمة على الحدَث. وبعد وفاتها بدأت المتاعب؛ إذ سيطر شعورٌ بغيض على الأجواء، وانتشرت شائعة الانتحار.

كان هذا بمثابة الضوء الأخضر لعقل الآنسة ماك البليد كي ينهض من سُباته. وفور أن كتبت الآنسة أسبري خطابها، وجدت مُسوَّدة أولية له في سلة النفايات. آثرت الآنسة ماك الاحتفاظ بالمسوَّدة وإن لم تُدرك قيمتها. وبعد وفاة الآنسة كورنر، أدركت قيمتها. كانت تلك المسودة الدليل على أن الآنسة أسبري هي مَن كتبت الخطاب الأول؛ وهكذا ستتَّجه إليها أصابع الاتهام حال كتابة خطابات أخرى.

في الحقيقة، لا أفهم كيف لأي شخصٍ عاقل أن يُصدق أن الآنسة أسبري بريئة، في ظلِّ هذا الدليل الدامغ. فمَن ذا الذي سيُصدِّق — سواي — تلك الرواية الخيالية عن «رغبتها» في إطلاع كاهن أبرشيتها على انحلالها الأخلاقي الذي تزعُمه عن نفسها؟

هنا فعَّلت الآنسة ماك قواها الاستنزافية. فقد أدركت أن الآنسة أسبري ستُضطر إلى مواجهة عارِ دفْعِ الآنسة كورنر للانتحار؛ إذ كانت هذه هي الفكرة الغامضة التي تسيطر على الأجواء. ولهذا نشرت شائعات كاذبة بمهارة، وبدأت حملتَها للخطابات المجهولة.

عزمت الآنسة ماك على خلق جوٍّ عام من الخوف والريبة، سيُنسب إلى الآنسة أسبري بطبيعة الحال. ولا شك أنها كانت تُوجِّه ضربات عشوائية في الظلام. كانت تكرَه كل مَن يمتلك المال والأمان، لكنها كانت أشبهَ بطفلٍ شرس يضرب شخصًا بالغًا تحت الحزام. واعتقدت أن هؤلاء الوجهاء مُحصَّنون ضد هجماتها.

لذا أتخيَّل ردة فعل الآنسة ماك على انتحار عائلة سكودامور. فلقد رأيتُ النظرة التي لاحت في عينَيها عندما سمعت بالخبر. أظنُّ أنها شعرت بالقوة حتى الثمالة. بعد ذلك، لا بد أنها حصلت على بعض المعلومات السرية؛ إذ بدأت في مُضايقة الطبيب بيري بقسوةٍ بالغة، وهو ما ألحق به ضررًا كبيرًا.

طوال الوقت، كانت الآنسة ماك في مأمنٍ من أي مخاطر، مثل قنَّاص محترف يحتمي من الرصاص خلف جسد شخصٍ آخر. كانت الآنسة أسبري ستتلقى اللوم على كل ما فعلته الآنسة ماك. وبدأت الآنسة ماك في استنزافها ثمنًا لسكوتها. وفي وقتٍ لاحق، وسَّعت نطاق شبكتها، كي تشمل الآنسة مارتن. وأنتَ تعلم النتيجة.»

سكت إيجناتيوس عن الكلام. وفي ضوء اللهيب المُتصاعد، غارت عيناه في مِحجرَيهما، فبدت مثل حفرتَين مجوفتَين فوق ابتسامته البدائية.

سأل إيجناتيوس: «هل فهمتَ الآن كيف أن الخطاب الأول البريء، الذي كتبته الآنسة أسبري المسكينة، كان مِثل الجيلاتين النافع الذي حفَّز عمل السُّم؟»

انتظر إيجناتيوس التصفيق لكن بلا جدوى. فقد تثاءب تشارلز، وسار قاصدًا وعاء البسكويت. وتنهَّد القسيس تنهيدةً عميقة وأشعل المصباح.

قال القسيس في ضجر: «من الأفضل أن نحظى ببعض الضوء. وأرى أن كِلَينا بحاجةٍ إلى بعض الشراب. تستحقُّ كأسًا من الويسكي عن جدارة يا إيجناتيوس. منذ متى وأنت تتحدَّث؟ ... لكنها حكاية شنيعة.»

ابتسم إيجناتيوس وأجاب: «آه! اعتدتُ أن أتلمَّس طريقي في متاهات العقول الحائرة المُضطربة. وأُسَرُّ أيما سرور باقتفاء الأثر كي أثبت أنني على حق. قبل أن أنام ليلةً واحدة في القرية، كنتُ قد خمنتُ الحقيقة.»

تبادل القسيس وتشارلز نظراتٍ مُتشكِّكة، لكن إيجناتيوس واصل الحديث في زهو.

قال: «كان ذلك في أول أمسيةٍ لي بالقرية، حين خرجنا للتمشية، والتقَينا بامرأتَين في حديقة «سباوت مانور». على الفور، استنتجتُ أن الآنسة ماك هي الآمِرة الناهية؛ إذ أظهرت مسحةً طفيفة من السيطرة لا تُحيط العبارة بوصفها. بالمناسبة، لا يُخطئ انطباعي الأول أبدًا. بعد أن صحَّحت لي خطئي، ظللتُ أفكر في احتمالية وجود روابط غريبة بين المرأتَين المحبوستَين معًا في ذلك القصر القديم ... بالإضافة إلى أنك حذَّرتني مسبقًا ألَّا أرتاب في هالة القدسية التي تُحيط بالآنسة أسبري.»

ردَّ القسيس: «كلا لم أفعل.»

قال إيجناتيوس: «لم تقُل ذلك مباشرة. لكنك اندهشتَ بلا شكٍّ عندما أصرَّت عليك الآنسة أسبري أن تقرأ الهجوم المزعوم على أخلاقها الفاضلة، أليس كذلك؟ كيف يتَّفق ذلك مع شخصيتها التي تتَّسِم بالإباء والتحفظ الشديد؟»

اعترف القسيس: «أظن ذلك.»

واصل إيجناتيوس: «لهذا ذهبت إلى الكنيسة لحضور القداس، ولديَّ معرفة مسبقة بهيستريا الآنسة أسبري. درستُ تفاعلها مع خطبتكَ، في حين تظاهرتُ بالإعجاب بخادمتها. ومرة أخرى، أثبتُّ أنني على صواب؛ إذ تكشفت لي كل الأعراض التي تُشير إلى أنها تُعاني من مرض العُصاب. وبعد ذلك كان من المنطقي استنتاج أن الآنسة أسبري ربما كانت هي الضحية. وبدأت في التركيز على الآنسة ماك.»

سأل القسيس: «كيف؟»

قال إيجناتيوس موضحًا: «لم أضيِّع الوقت. بعد ظهر ذلك اليوم، اصطحبتُ أدا في جولة، وحاولت استخراج معلوماتٍ منها. كانت الفتاة حادة الذهن، وارتابت في أنني أحاول معرفة ما إذا كانت الآنسة أسبري تقسو على الآنسة ماك، وهو تصرُّف ما كانت الخادمات ستُعارضه إذا لاحظنَه.»

وسكت إيجناتيوس وضحك بهدوء.

قال: «أدا المسكينة. علمت أولًا أن الآنسة ماك كانت تتفاخر بأنها سيدة المنزل؛ وعلمتُ ثانيًا أن المرأتَين محبوستان في المنزل معًا طوال الوقت؛ وأخيرًا عرفتُ أن أدا كانت تفقد أغراضًا شخصية تافهة.

في مساء ذلك اليوم، أطلعتني على الظرف، الذي كان يحتوي على خطاب الآنسة أسبري. وبينما كنتُ أتفحصه بحثًا عن أي خيطٍ بسيط قد يُفيدنا في الوصول إلى كاتبه، لاحظت وجود حرفَين. كان الطبيعي استخدام اسم «الآنسة أسبري» في مخاطبتها، إلا إذا كانت تستخدِم عادة الحروف الأولى من اسمها في التوقيع، أو أن الخطاب كتبه شخصٌ يعرف الآنسة أسبري جيدًا.

وفي صباح اليوم التالي، استجوبتُ مديرة مكتب البريد بحرص، وفي غضون عدة ساعات تأكدتُ من حقيقة أن سكان القرية كانوا ينادون السيدة بـ «الآنسة أسبري»، رغم معرفتهم جميعًا باسمها الأول «ديسيما». لكن لم يستطع أحد إخباري باسمها الأوسط ...»

سأل القسيس: «ألهذا زُرتَها؟»

أجاب إيجناتيوس: «أجل، وذهبت إلى قصرها مبكرًا عن عمدٍ، كي ألقي نظرة على كُتبها القديمة. أردتُ أن أعرف متى توقفت عن استخدام اسمها الأوسط. وفشلت في خُطتي، لكنها أكدت تخميني بشأن تخلِّيها عن اسمها الأوسط. وكشفتْ لي أيضًا أنها قُدِّر لها أن تقع ضحيةً للابتزاز بسبب غرورها الهش. ومِثل جندي أُصيب في بقعة مُحرجة من جسده، كانت الآنسة أسبري ستقبل أي معاناة على الاعتراف بأنها اتَّهمت نفسها بأن لها ماضيًا مُخزيًا.»

وسكت إيجناتيوس، كي يبتسِم؛ إذ تذكَّر شيئًا.

قال: «انتظر. يجب أن أوفِّيها حقَّها. ذات مرة، كانت الآنسة على شفا الاعتراف بما فعلته. حدث ذلك بعدما ألقيتَ خُطبتك التاريخية التي هددتَ فيها رعيتك بالرحيل. فقد عادت الآنسة إلى الكنيسة، لكن الآنسة ماك لحِقَت بها، وأثنتها عن تحقيق مرادها. ولم تستطِع الآنسة استجماع شجاعتها لبذل محاولةٍ أخرى. أدركتُ حينها مدى تأثير الآنسة ماك عليها كأنها تستخدِم معها التنويم المغناطيسي.»

قال القسيس إذ ظهر عليه اهتمام حقيقي لأول مرة: «أكمل.»

قال إيجناتيوس: «كانت الآنسة ماك تشك بي على ما يبدو؛ إذ اتبعتني إلى حديقة القصر عندما زُرت الآنسة أسبري. وتظاهرتُ أنني أعتقد أنها ضحية قسوة الآنسة أسبري التي لا يعرف عنها أحد، كي أُضللها، وعرضتُ عليها المساعدة ... بعد ذلك، قيَّمت الموقف.

كما أخبرتُك من قبل، كان هناك تفسيران للموقف. التفسير الواضح للعقل وهو أن الآنسة كورنر قد كتبت الخطابَين. لكن لو لم تكن الآنسة كورنر تعلم أن للآنسة أسبري اسمًا أوسط، فالشخص الوحيد الذي كان باستطاعته كتابته هو الآنسة أسبري نفسها.»

انفرجت أسارير الرجل الضئيل عندما سمع استنتاجَه الذكي.

وأضاف: «بدا أن هذا التفسير يقود إلى آخر. كنت حائرًا بشأن سيطرة الآنسة ماك على مخدومتها، وخمنتُ أنه لا بد من وجود دليلٍ ما. تذكرت أيضًا أن الآنسة ماك هي المسئولة عن سلة النفايات بالبداهة. بدا من المُحتمَل أن الآنسة أسبري لن تكتب خطابها المجهول، دون أن تكتب مسودة بخطِّ يدِها أولًا. ومن الواضح أنها حين طبعت النسخة، ألهب تكرار الاتهامات على أسماعها مشاعرها، فأُصيبت بحالة من الهستيريا العاطفية، مما جعلها تستخدِم الحرف الأول من اسمِها المتروك بلا وعي، عندما كانت تُعنوِن الظرف. لهذا لم تكن ستُدرك أهمية المسودة التي من المُفترض أنها تخلصت منها.»

صاح إيجناتيوس منتصرًا وهو يلوِّح بإصبع طويل في وجه القسيس.

وقال: «أرأيت يا تيجر؟ كنتُ أعلم أنه لا بد من وجود مسودة، وأنها وقَعت في يد الآنسة ماك، وهي الدليل على كاتب الخطابات. عندما تحقَّقتُ من صحة هذه الاحتمالية، أعطيتُ تعليماتي لمُحقق سري كي يعثر على بعض المعلومات عن الآنسة أسبري والآنسة ماك. ولم يتكبَّد المُحقق أي عناء في التحقق من أن الآنسة ماك كانت لصَّةً في الماضي. كما تواصل المُحقق مع أحد المعاصرين للآنسة أسبري، الذي كان مُلتحقًا بمدرستها الأخيرة، وكانت الآنسة قد أخبرته أنها تُعاني من الهستيريا.

وحصلتُ على دليل آخر عندما جاء القسيس العجوز على الغداء. لا شك أن قواعد الذوق منعتني من توجيه أسئلة إليه، ولو أنني فعلت، ما كان ليُخبرني بشيء. لكن بدا من تردُّده في لقاء الآنسة أسبري مرة أخرى أنه أراد أن يُجنِّبها استدعاء ذكرى مؤلِمة ومُحرجة. عندئذٍ، تأكدت أنها استسلمت لنوبة عنيفة من الهستيريا، عندما تعرضت للانهيار وتخلَّت عن عملها الإغاثي، وأنه كان شاهدًا على ذلك.»

قال القسيس: «فهمت الآن سبب توقف حلِّ اللغز على معرفة كاتب الخطاب الأول.»

تنهَّد إيجناتيوس وقال: «أخيرًا. أعتقد أنه لا يُوجَد ما يمكن إضافته أكثر من ذلك. واصلت مراقبة رأس الحية. وتبين من مأساة عائلة سكودامور أن هناك خطاباتٍ أرسلت إلى أشخاصٍ آخرين، لكن لأن الابتزاز لم يكن سِمةً عامة، بدا أن الآنسة أسبري هي الضحية الأصلية. كما اكتشفت أن الآنسة أسبري فتَّشت المنزل، بحثًا عن المسودة، وفي

إحدى المرَّات حصلت عليها، إذ حدث عراك أُصيبت فيه الآنسة. وكانت جوان بروك معي عندما سمعناها تصرُخ من الألَم.»

اقشعر بدن القسيس وقال: «هذا مُرعب.»

واصل إيجناتيوس: «أجل. أحسستُ أن شيئًا قاتمًا قبيحًا وراء الْتصاق هاتَين المرأتَين، إحداهما بالأخرى، وكأنهما نباتات مُعترشة. ولم تجرؤ الآنسة أسبري على إبعاد الآنسة ماك عن ناظريها، حماية لضيوفها، وحتى عرضي بالسفر لم يُغْرِ تلك الطفيلية بترك ضحيتها ... وبالطبع اضطررتُ إلى الانتظار حتى حدوث مُستجدَّات والحصول على دليلٍ دامغ. وهذا كل شيء.»

توقف القسيس عن فرك مُقلتَيه.

قال: «أعرف أنني يجِب أن أشكرك يا إيجناتيوس. لكنني أفكر في قريتي الجميلة. لقد كانت تمثل لي الكثير. ماذا تبقى لي منها؟»

قال إيجناتيوس: «تبقى لك كل شيء. كل ما حدث يُفترَض أن يُعزِّز إيمانك بالطبيعة البشرية. بادئ ذي بدء، أتوقع أن كل سكان القرية تقريبًا تلقَّوا خطابًا مجهولًا، لكنهم اكتفوا بالتجاوب مع القلق العام ولم يتركوها قطعًا تحرِمُهم من النوم. وكل هذا يؤكد أن لديهم سجلًّا أخلاقيًّا نظيفًا وضميرًا حيًّا.

والآنسة أسبري بنبلٍ مُثير للإعجاب أيضًا. فهي وإن كانت تقدس شعبيتها، إلا أنها وضعت نفسها تحت شبهة التنمُّر على الآنسة ماك، طواعية، حتى لا تكشف حقيقة الآنسة ماك وأنها لصَّة.

وحتى عدوتي اللدودة، الآنسة كورنر، تصرَّفت بسماحةٍ وكرم إلى حدٍّ ما؛ لأنها لم تتحدث عن طبيعة الآنسة أسبري في أيام الدراسة أبدًا، رغم أنها لا يَعنيها أمرها البتة.

ولم تكن مأساة عائلة سكودامور سوى انتصارٍ لقيم اجتماعية زائفة. كما أن هذه المسألة البغيضة ساعدت الآنسة أسبري في التخلُّص من مخلوقة طفيلية خطيرة لم تكن سترضى حتى تسلُبها كل أموالها.»

كان وجه القسيس يستوجب التأمُّل من كثرة ما تضاربت فيه المشاعر، وهو يُنصت إلى خطاب إيجناتيوس الطويل. وسرعان ما عاد البريق إلى عينَيه؛ إذ شعر ببهجة الحياة القديمة تتدفَّق في عروقه. وأراد أن يشكُر صديقه على إنقاذه، لكنه وجد نفسه عاجزًا عن الكلام فجأة. ولذلك عبر عن امتنانه لإيجناتيوس، على حين غفلةٍ منه، بأكثر طريقةٍ ترضيه. فسأله سؤالًا أخيرًا.

قال: «تحدثت عن امرأة لا تبتسِم أبدًا. من هي تلك المرأة؟»

رد إيجناتيوس: «الآنسة ماك بالتأكيد.»

قال القسيس: «لكنها تبتسِم دائمًا.»

كان إيجناتيوس في أفضل حالاته وهو يوضح هذا الأمر للقسيس.

فقال: «لهذا السبب تحديدًا قلتُ إنها لا تبتسِم أبدًا. يبتسِم المرء للتعبير عن مشاعر سارة مُعينة، مثل الطيبة والفرح والتسلية وما شابه. لكن، لأن المرء لا يُمكنه أن يكون سعيدًا للأبد، فإنه لا يستطيع أن يبتسِم للأبد. فاتخذتُ الحذَر عندما أدركتُ أن ابتسامة الآنسة ماك ليست مفتاحًا لشخصيتها، وإنما قناع تختبئ خلفه.»

بعد ذلك بقليل، قام إيجناتيوس بجولةٍ أخيرة في القرية، بصحبة القسيس. كان المطر قد توقف عن الهطول، والهواء نظيفًا وزكيًّا. وتلألأت الأكواخ البيضاء والسوداء التيودورية في ضوء النجوم وأصبحت أشبه بمجسَّمات من الأبانوس والعاج. وكانت كل نافذة من النوافذ محجوبةً بستائر لامعة وردية أو برتقالية اللون.

حافظ كل منزل على خصوصيته وإن لم يكن هناك ما يستوجب إخفاؤه. لم تكن هناك أسرار مخيفة. كان الداخل تغمره السكينة المنزلية، الخدم السعداء في المطبخ، والقطط الشبعى فوق البسط. وكانت الساعات تُعلن مرور الوقت في هدوء، والموسيقى تنبعث من الجو. وانحدرت طرقة ساعي البريد من الأفق البعيد في خفوت. كان يوصِّل الدفعة طلبيته الأخيرة، الأخبار العائلية، الدعوات، طلبات التبرُّع، وإيصالات الدفع. هذا كان كل شيء. لم يحدُث شيء هنا. ولن يحدُث شيء أبدًا.

هنداوي